

الجزء الخامس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وسلم

نبدأ في هذا الجزء بتمام القول في نيران العرب والعجم،
ونيران الديانة ومبلغ أقدارها عند أهل كل ملة وما يكون
منها مفخراً، وما يكون منها مذموماً، وما يكون صاحبها
بذلك مهجوراً.

ونبدأ بالإخبار عنها وبدئها، وعن نفس جوهرها، وكيف
القول في كُمونها وظهورها، إن كانت النار قد كانت
موجودة العين قبل ظهورها، وعن كونها، على المجاورة
كان ذلك أم على المداخلة، وفي حدوث عينها إن كانت
غير كامنة، وفي إحالة الهواء لها والعود جَمراً، إن كانت

الاستحالة جائزة، وكانت الحجّة في تثبيت الأعراض
صحيحة، وكيف القولُ في الصُّرام الذي يظهر من الشجر،
وفي الشُّرر الذي يظهر من الحجر، وما القولُ في لون
النار في حقيقتها، وهل يختلفُ الشُّرر في طبائعها، أم لا
اختلافَ بين جميعِ جواهرها، أم يكون اختلافها على قدر
اختلافِ مخرجها ومداخلها، وعلى قدر اختلافِ ما لاقاها
وهيَّجها؟

الكلام على النار

قول النظام في النار

ونبدأ، باسم الله وتأييده، بقول أبي إسحاق.

قال أبو إسحاق: الناس اسمٌ للحَرِّ والضَّياء، فإذا قالوا:
أَحْرَقْتُ أو سَخَّنْتُ، فإنما الإحراقُ والتسخينُ لأحدِ هذين
الجنسين المتداخلين، وهو الحرُّ دون الضياء.

وزعم أن الحرَّ جوهر صَعَّادٌ، وإنما اختلفا، ولم يكن
اتِّفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما؛ لأنهما متى
صارا من العالم العلويِّ إلى مكانٍ صار أحدهما فوق
صاحبه.

وكان يجزم القول ويبرم الحكم بأن الضياء هو الذي يعلو
إذا انفرد، ولا يُعلَى.

قال: ونحن إنما صرنا إذا أطفأنا نار الأتون وجدنا أرضه
وهوأة وحيطانه حارة، ولم نجد لها مضيئة، لأن في الأرض،
وفي الماء الذي قد لابس الأرض، حرّاً كثيراً، وتداخلاً
مُتشابكاً؛ وليس فيهما ضياء، وقد كان حرُّ النار هيج تلك
الحرارة فأظهرها، ولم يكن هناك ضياء من ملبس فهيجه
الضياء وأظهره، كما اتصل الحرُّ بالحرِّ فأزاله من موضعه،
وأبرزه من مكانه، فلذلك وجدنا أرض الأتون، وحيطانها،

وهواها حارّةٌ، ولم نجدّها مضيئةً.

وزعم أبو إسحاق أنّ الدليل على أن في الحجر والعود ناراً مع اختلاف الجهات، أنه يلزم من أنكر ذلك أن يزعم أن ليس في السّمسم دهنٌ ولا في الزّيتون زيت. ومن قال ذلك لزمه أن يقول: أن ليس في الإنسان دم، وأنّ الدّم إنّما تَخَلَّقَ عند البطّ، وكان ليس بين من أنكر أن يكون الصّبر مرّ الجوهر، والعسل حلوّ الجوهر قبل ألاّ يذاقا، وبين السّمسم والزيتون قبل أن يُعصرا - فَرَق.

وإنّ زعم الزاعم أنّ الحلاوة والمرارة عَرَضَانِ، والزيت والخلّ جوهر، وإذا لزم من قال ذلك في حلاوة العسل، وحموضة الخلّ، وهما طعمان - لزمه مثل ذلك في ألوانهما، فيزعم أنّ سواد السّبيج، وبياض الثلج، وحُمْرَة العُصْفُر، وصُفْرَة الذهب، وحُصْرَة البقل، إنّما تحدّث عند رؤية الإنسان، وإن كانت المعاينة والمقابلة غير عاملتين

في تلك الجواهر. قال: فإذا قاسَ ذلك المتكلم في لَوْنِ
الجسم بعد طعمه، وفي طولهِ وعرضه وصورته بعد
رائحته، وفي خفيته وثقل وزنه، كما قاس في رخاوته
وصلابته - فقد دخل في باب الجهالات، ولحق بالذين
زعموا أن القِرْبَةَ ليس فيها ماء، وإن وجدوها باللمس
ثقيلة مزكورة وإنما تخلَّق عند حلِّ رباطها، وكذلك
فليقولوا في الشمس والقمر، والكواكب، والجبال، إذا
غابت عن أبصارهم

قال: فمن هرب عن الانقطاع إلى الجهالات، كان الذي
هرب إليه أشدَّ عليه.

وكان يضربُ لهما مثلاً ذكرته لِظَرَافته: حُكِيَّ عن رجل
أحدب سقطَ في بئر، فاستوت حدبُهُ وحدثتْ له أُدرَةٌ في

خُصِيته، فَهَنَّاه رَجُلٌ عَن ذَهَابِ حَدَبَتِهِ، فَقَالَ: الَّذِي جَاءَ شَرُّ
مِنَ الَّذِي ذَهَبَ.

رد النظام على ضرار في إنكار الكمون وكان أبو إسحاق
يزعم أن ضرار بن عمرو قد جمع في إنكاره القول
بالكمون الكفر والمعاندة؛ لأنه كان يزعم أن التوحيد لا
يصح إلا مع إنكار الكمون، وأن القول بالكمون لا يصح إلا
بأن يكون في الإنسان دم، وإنما هو شيءٌ تخلق عند
الرؤية.

قال: وهو قد كان يعلم يقيناً أن جوف الإنسان لا يخلو من
دم.

قال: ومن زعم أن شيئاً من الحيوان يعيش بغير الدم، أو
شيء يشبه الدم، فواجب عليه أن يقول بإنكار الطبائع؛
ويدفع الحقائق بقول جهم في تسخين النار وتبريد الثلج،

وفي الإدراك والحسن، والغذاء والسُّمُّ، وذلك بابٌ آخر في الجهالات.

ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بالآ يكون في الإنسان دم، وإلا بأن تكون النار لا توجب الإحراق، والبصرُ الصحيح لا يوجب الإدراك - فقد دلَّ على أنه في غاية النقص والغباوة، أو في غاية التكذيب والمعاندة.

وقال أبو إسحاق: وجدنا الحطب عند انحلال أجزائه، وتفترق أركانه التي بُني عليها، ومجموعاته التي رُكِّبَ منها وهي أربع: نارٌ، ودخان، وماءٌ، ورَمَادٌ، ووجدنا للنار حرّاً وضياءً، ووجدنا للماء صوتاً، ووجدنا للدُّخَان طعماً ولوناً ورائحةً، ووجدنا للرَّمَادِ طعماً ولوناً ويُبْساً، ووجدنا للماء السائل من كل واحد من أصحابه، ثمَّ وجدناه ذا أجناسٍ رُكِّبَتْ من المفردات.

ووجدنا الحطب رُكِّبَ على ما وصفنا، فَرَعَمْنَا أَنَّهُ رُكِّبَ مِنَ الْمُزْدَوِجَاتِ، وَلَمْ يُرَكِّبْ مِنَ الْمَفْرَدَاتِ.

قال أبو إسحاق: فإذا كان المتكلم لا يعرف القياسَ
ويعطيه حقه فرأى أنَّ العُود حين احتكَّ بالعودِ أحدث النارَ
فإنه يلزَّمه في الدخان مثلُ ذلك، ويلزَّمه في الماء السائل
مثلُ ذلك، وإنَّ قاس قال في الرماد مثلَ قوله في الدخان
والماء، وإلا فهو إما جاهلٌ، وإما متحكم.

وإن زعمَ أنه إنما أنكرَ أنَّ تكون النارُ كانت في العودِ، لأنه
وَجَدَ النارَ أعظم من العودِ، ولا يجوز أن يكون الكبيرُ في
الصغيرِ، وكذلك الدخان - فليزعمُ أن الدخانَ لم يكن في
الحطبِ، وفي الزيت وفي التَّفطِ.

فإن زعمَ أنهما سواءٌ، وأنه إنما قال بذلك لأنَّ بَدَنَ ذلك
الحطبِ لم يكن يسعُ الذي عاين من بَدَنِ النارِ والدخانِ،
فليس ينبغي لمن أنكرَ كُموثَها من هذه الجهة أن يزعمَ أنَّ
شَرَّ القَدَّاحَةِ والحَجَرِ لم يكونا كامنين في الحجرِ
والقَدَّاحَةِ.

وليس ينبغي أن يُنكرَ كُمونَ الدم في الإنسان، وكُمونَ

الدُّهْنُ فِي السَّمْسَمِ، وَكُمُونِ الزَّيْتِ فِي الزَّيْتُونِ، وَلَا
يَنْبَغِي أَنْ يُنْكَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا لَا يَكُونُ الْجِسْمُ يَسَعُهُ فِي
الْعَيْنِ.

فَكَيْفَ وَهَمْ قَدْ أُجْرُوا هَذَا الْإِنْكَارَ فِي كُلِّ مَا غَابَ عَنْ
حَوَاسِّهِمْ مِنَ الْأَجْسَامِ الْمَسْتَتِرَةِ بِالْأَجْسَامِ حَتَّى يَعُودَ بِذَلِكَ
إِلَى إِبْطَالِ الْأَعْرَاضِ؟ كُنْ حَمُوضَةُ الْخَلِّ، وَحَلَاوَةُ
الْعَسَلِ، وَعَذُوبَةُ الْمَاءِ، وَمَرَارَةُ الصَّبْرِ.

قَالَ: فَإِنْ قَاسُوا قَوْلَهُمْ وَزَعَمُوا أَنَّ الرَّمَادَ حَادِثٌ، كَمَا
قَالُوا فِي النَّارِ وَالدُّخَانِ، فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا فِي
جَمِيعِ الْأَجْسَامِ مِثْلَ ذَلِكَ كَالدَّقِيقِ الْمَخَالِفِ لِلْبُرِّ فِي لَوْنِهِ،
وَفِي صَلَابَتِهِ، وَفِي مَسَاحَتِهِ، وَفِي أُمُورٍ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَدْ
يَنْبَغِي أَنْ يَزْعَمَ أَنَّ الدَّقِيقَ حَادِثٌ، وَأَنَّ الْبُرَّ قَدْ بَطَلَ.
وَإِذَا زَعَمَ ذَلِكَ زَعَمَ أَنَّ الرُّبْدَ الْحَادِثَ بَعْدَ الْمُخْضِ لَمْ يَكُنْ
فِي اللَّبَنِ، وَأَنَّ جُبْنَ اللَّبَنِ حَادِثٌ، وَقَاسَ مَاءَ الْجُبْنِ عَلَى
الْجُبْنِ، وَلَيْسَ اللَّبْنُ إِلَّا الْجُبْنُ وَالْمَاءُ. وَإِذَا زَعَمَ أَنَّهُمَا

حادثان، وَأَنْ اللَّبْنَ قَدْ بَطَلَ، لَزَمَهُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ الْفَخَّارُ،
الَّذِي لَمْ نَجِدْهُ حَتَّى عَجَّنا التُّرَابَ الْيَابِسَ الْمُتَهافتَ عَلَى
جِدَّتِهِ، بِالْمَاءِ الرَّطْبِ السَّيَالِ عَلَى جِدَّتِهِ، ثُمَّ شَوَيْنَاهُ بِالنَّارِ
الْحَارَّةِ الصَّعَّادَةِ عَلَى جِدَّتِهَا، وَوَجَدْنَا الْفَخَّارَ فِي الْعَيْنِ
وَاللَّمْسِ وَالذَّوْقِ وَالشَّمِّ، وَعِنْدَ النَّقْرِ وَالصِّكِّ - عَلَى خِلافِ
مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ النَّارَ وَحَدَّهَا، وَالْمَاءَ وَحَدَّهُ، وَالتُّرَابَ وَحَدَّهُ؛
فَإِنَّ ذَلِكَ الْفَخَّارَ هُوَ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ، وَالْحَطْبَ هُوَ تِلْكَ
الْأَشْيَاءُ، إِلَّا أَنْ أَحَدَهَا مِنْ تَرْكِيبِ الْعِبَادِ، وَالْآخَرَ مِنْ تَرْكِيبِ
اللَّهِ.

وَالْعَبْدَ لَا يَقْلِبُ الْمَرْكَبَاتِ عَنْ جِوَاهِرِهَا بِتَرْكِيبِهِ مَا رَكِبَ
مِنْهَا.

وَالْحَجْرُ مَتَى صَكَ بِيضَةً كَسَرَهَا، وَكَيْفَ دَارَ الْأَمْرُ، سِوَاءُ
كَانَتِ الرِّيحُ تَقْلِبُهُ أَوْ إِنْسَانٌ.

فَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ الْفَخَّارَ لَيْسَ ذَلِكَ التُّرَابَ، وَذَلِكَ الْمَاءَ،
وَتِلْكَ النَّارَ، وَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَخْبِصَةِ وَالْأَنْبِذَةِ،

كان آخرُ قياسهم أن يُجيبوا بجواب أبي الجهجاه؛ فإنه
زعم أن القائم غيرُ القاعد، والعجين غيرُ الدقيق، وزعم -
ولو أنه لم يقل ذلك - أن الحبة متى فُلقت فقد بطل
الصحيح، وحدث جِسْمان في هيئةِ نصفي الحبة، وكذلك
إذا فُلقت بأربعِ فلق، إلى أن تصيرَ سَوِيْقاً، ثم تصيرَ دقيقاً،
ثم تصيرَ عجينةً، ثم تصيرَ خُبزاً، ثم تعودَ رجيعةً وزُبلاً، ثم
تعودُ رِيحاناً وبَقْلاً، ثم يعود الرגיע أيضاً لبناً وزُبداً؛ لأن
الجلالة من البهائم تأكله، فيعودُ لحمًا ودمًا.
وقال: فليس القولُ إلا ما قال أصحابُ الكُمون، أو قولَ
هذا.

ردّ النظام على أصحاب الأعراض قال أبو إسحاق: فإن
اعترض علينا مُعترضٌ من أصحاب الأعراض فزعم أن
النارَ لم تكن كامنةً، وكيفَ تكمنُ فيه وهي أعظم منه؟
ولكنَّ العودَ إذا احتكَّ بالعودِ حَمِيَّ العودان، وحمي من
الهواءِ المحيط بهما الجزءُ الذي بينهما، ثم الذي يلي ذلك

منهما، فإذا احتدم رقٌّ، ثم جفَّ والتهب، فإنما النارُ هواءٌ استحالَ.

والهواءُ في أصل جوهره حارٌّ رقيق، وهو جسم رقيق، وهو جسمٌ خَوَّازٌ، جيّد القبول، سريع الانقلاب.

والنار التي تراها أكثر من الحطب، إنما هي ذلك الهواء المستحيل، وانطفأؤها بطلان تلك الأعراضِ الحادثة من

النارية فيه، فالهواءُ سريعُ الاستحالة إلى النار، سريعُ

الرجوع إلى طبعه الأول، وليس أنها إذا عُدِمَتْ فقد

انقطعت إلى شكل لها عُلوِيٌّ واتصلت، وصارت إلى

تِلادها، ولا أن أجزاءها أيضاً تفرقت في الهواء، ولا أنها

كانت كامنةً في الحطب، متداخلةً منقبضة فيه، فلما

ظهرت انبسطت وانتشرت، وإنما اللهبُ هواءٌ استحال

ناراً؛ لأن الهواءَ قريبُ القرابةِ من النار، والماءُ هو حجازُ

بينهما، لأنَّ النارَ يابسةٌ حارة، والماءُ رطبٌ بارد، والهواءُ

حارٌّ رطب، فهو يُشبه الماءَ من جهة الرطوبة والصفاء،

ويُشبه النار بالحرارة والخفة فهو يخالفهما ويوافقهما؛
فلذلك جاز أن ينقلب إليهما انقلاباً سريعاً، كما ينعصر
الهواء إذا استحال رطباً وحدث له كثافة، إلى أن تعود
أجزاؤه مطراً، فالماء ضدُّ النار، والهواء خلافُ لهما،
وليس بضدٍّ، ولا يجوز أن ينقلب الجوهر إلى ضده حتى
ينقلب بدياً إلى خلافه، فقد يستقيم أن ينقلب الماء هواءً،
ثم ينقلب الهواء ناراً، وينقلب الهواء ماءً، ثم ينقلب الماء
أرضاً، فلا بدُّ في الانقلاب من الترتيب والتدرج، وكلُّ
جوهر فله مقدمات؛ لأن الماء قد يحيل الطين صخراً،
وكذلك في العكس، فلا يستحيل الصخرُ هواءً، والهواءُ
صخراً، إلا على هذا التنزيل والترتيب.

وقال أبو إسحاق لمن قال بذلك من حُذَّاق أصحاب
الأعراض: قد زعمتم أن النار التي عاينّاها لم تخرج من
الحطب، ولكنَّ الهواءَ المحيط بهما احتدمَ واستحالَ ناراً،
فلعلَّ الحطب الذي يسيل منه الماءُ الكثيرُ، أن يكون ذلك

الماء لم يكن في الحطب، ولكن ذلك المكان من الهواء استحال ماء، وليس ذلك المكان من الهواء أحق بأن يستحيل ماءً من أن يكون سبيلُ الدخان في الاستحالة سبيلَ النار والماء.

فإن قاسَ القومُ ذلك، فزعموا أن النار التي عاينّاها، وذلك الماء والدخان في كثافة الدخان وسواده، والذي يتراكم منه في أسافل القدور وسُقف المطابخ إنما ذلك هواء استحال، فلعلَّ الرماد أيضاً، هواءٌ استحالَ رماداً. فإن قلتُم: الدُّخان في أول ثقله المتراكم على أسافل القدور، وفي بُطونِ سُقْفِ مَوَاقِدِ الحمامات، الذي إذا دُبَّرَ ببعض التدبير جاء منه الأنقاسُ العجيبةُ أحق بأن استحال أرضياً، فإن قاسَ صاحب العَرَضِ، وزعم أن الحطب انحلَّ بأسرِه، فاستحال بعضه رماداً كما قد كان بعضُه رماداً مرةً، واستحال بعضه ماءً كما كان بعضه ماءً مرةً، وبعضه استحال أرضاً، كما كان بعضه أرضاً مرةً، ولم يقل إن

الهواء المحيط به استحالَ رماداً، ولكنَّ بعضَ أخلاطِ
الخطبِ استحالَ رماداً ودُّخاناً، وبعضُ الهواءِ المتصلِ به
استحالَ ماءً وبعضه استحالَ ناراً، على قدرِ العواملِ،
وعلى المقاييلاتِ له، وإذا قال صاحبُ العرضِ ذلكَ كان قد
أجاب في هذه الساعةِ على حدِّ ما نَزَّلَهُ لك.
وهذا باب من القول في النار، وعلينا أن نستقصيَ
للفريقين والله المعين.

رُدُّ على منكري الكُمون

وبابٌ آخرُ، وهو أن بعض من ينكرُ كُمونَ النارِ في الخطبِ
قالوا: إن هذا الحرُّ الذي رأيناه قد ظهرَ من الخطبِ، لو
كان في الخطبِ لكان واجباً أن يجده مَنْ مَسَّهُ كالجمرِ
المتوقدِ، إذا لم يكن دونه مانعٌ منه، ولو كان هناك مانعٌ لم
يكن ذلك المانعُ إلا البردُ؛ لأنَّ اللونَ والطعمَ والرائحةَ لا
يفاسدُ الحرُّ، ولا يُمانعه إلا الذي يُضادُّه، دون الذي يخالفه

ولا يضاده.

فإن زعم زاعم أنه قد كان هناك من أجزاء البرد ما يعادل ذلك الحرّ ويُطاوله، ويكافيه ويوازيه؛ فلذلك صرنا إذا مَسَسْنَا الحطبَ لم نجدَه مؤذياً، وإنما يظهر الحرقُ ويُحرقُ لزوال البرد، إذا قام في مكانه وظهر الحرُّ وحده فظهر عمله، ولو كان البردُ المعادلُ لذلك الحرِّ مقيماً في العود على أصلِ كمونه فيه، لكانَ ينبغي لمن مَسَّ الرَّمادَ بيده أن يجده أبرد من الثلج، فإذا كان مسه كمسِّ غيره، فقد علمنا أنه ليس هناك من البرد ما يعادلُ هذا الحرِّ الذي يُحرق كلَّ شيءٍ لِقِيَّه.

فإن زعم أنهما خرجا جميعاً من العود، فلا يخلو البردُ أن يكونَ أَخَذَ في جهته، فلمَ وجدنا الحرَّ وحده وليس هو بأحق أن نجدَه من ضِدِّه، وإن كان البردُ أَخَذَ شَمَالاً، وأخذَ الحرُّ جنوباً، فقد كان ينبغي أن يجمد ويُهْلِك ما لاقاه، كما أهلك الحر وأحرق وأذاب كلَّ ما لاقاه.

قالوا: فلما وجدنا جميعَ أقسامِ هذا البابِ، علمنا أن النار لم تكن كامنة في الحطبِ.

قال أبو إسحاق: والجواب عن ذلك أنا نزعُ أن الغالبَ على العالمِ السفليِّ الماءُ والأرضُ، وهما جميعاً باردان، وفي أعماقهما وأضعافهما من الحر ما يكون مغموراً ولا يكون غامراً، ويكون مقموماً ولا يكون قامماً؛ لأنه هناك قليل، والقليلُ ذليل، والذليلُ غريب، والغريبُ محقور، فلما كان العالمُ السفلي كذلك، اجتذبَ ما فيه من قوة البرد وذلك البرد الذي كان في العود عند زوالِ مانعه؛ لأن العودَ مقيمٌ في هذا العالم، ثم لم ينقطع ذلك البردُ إلى برد الأرض، الذي هو كالقُرْص له، إلا بالطَّفَرَة والتخليف، لا بالمرور على الأماكن والمحاذة لها وقام بَرَدَ الماء منه مقام قرصِ الشمسِ من الضياء الذي يدخل البيتَ للخَرَق الذي يكون فيه، فإذا سُدَّ فمع السدِّ ينقطعُ إلى قُرْصه، وأصلِ جوهره.

فإذا أجابَ بذلك أبو إسحاق لم يجد خصمه بُدًّا من أن
يبتدئ مسألة في إفساد القول بالطفرة والتخليف.
ولولا ما اعترض به أبو إسحاق من الجواب بالطفرة في
هذا الموضوع، لكان هذا مما يقع في باب الاستدلال على
حدوث العالم.

قول النظام في الكمون وكان أبو إسحاق يزعم أن
احتراق الثوب والحطب والقطن، إنما هو خروج نيرانه
منه، وهذا هو تأويل الاحتراق، وليس أن ناراً جاءت من
مكانٍ فعملت في الحطب، ولكن النار الكامنة في
الحطب لم تكن تقوى على نفي ضدّها عنها، فلما اتصلت
بنار أخرى، واستمدّت منها، قويتاً جميعاً على نفي ذلك
المانع، فلما زال المانع ظهرت، فعند ظهورها تجرّأ
الحطبُ وتجفّف وتهافت؛ لمكان عملها فيه، فأحراقك
للشيء إنما هو إخراجك نيرانه منه.

وكان يزعم أن حرارة الشمس، إنما تحرق في هذا العالم

بإخراج نيرانها منه، وهي لا تُحرق ما عقد العَرَضُ وَكُتِفَ
تلك الندوة؛ لأن التي عقدت تلك الأجزاء من الحر أجناس
لا تحترق، كاللون والطعم والرائحة، والصوت، والاحتراق
إنما هو ظهورُ النار عند زوال مانعها فقط.

وكان يزعم أن سمَّ الأفعى مقيماً في بدن الأفعى، ليس
يَقْتُلُ، وأنه متى مازَجَ بدنًا لا سمَّ فيه لم يقتل ولم يُتْلَفَ،
وإنما يتلفُ الأبدان التي فيها سموم ممنوعة مما يُضَادُّهَا،
فإذا دخل عليها سم الأفعى، عاون السم الكامنُ ذلك
السمَّ الممنوعَ على مانعِهِ، فإذا زال المانعُ تلف البدن،
فكان المنهوشُ عند أبي إسحاق، إنما كان أكثرُ ما أتلفه
السمُّ الذي معه.

وكذلك كان يقول في حرِّ الحمَّام، والحر الكامنِ في
الإنسان: أَنَّ الغَشِيَّ الذي يعتريه في الحمام ليس من
الحر القريب، ولكن من الحر الغريب، حرُّ الحرِّ الكامن
في الإنسان، وأمدُّه ببعض أجزائه، فلما قويَّ عند ذلك

على مانعِهِ فأزاله، صار ذلك العملُ الذي كان يُوقعه
بالمانع واقعاً به، وإنما ذلك كما في حار يحرقُ اليَدَ، صُبَّ
عليه ماءٌ بارِدٌ، فلما دخل عليه الماء البارد صار شُغْلُه
بالداخل، وصار من وصَعَ يده فيه ووضع يده في شيء قد
شُغِل فيه بغيره، فلما دفع الله، عَزَّ وَجَلَّ، عنه ذلك الجسم
الذي هو مشغولٌ به، صار ذلك الشُّغْلُ مصروفاً إلى من
وضع يده فيه؛ إذ كان لا ينفكُ من عمله.

وكان مع ذلك يزعم أنك لو أطفأت نَارَ الأَثُونِ لم تجدْ شيئاً
من الضوء، ووجدت الكثير من الحر؛ لأن الضياء لما لم
يكن له في الأرض أصلٌ ينسب إليه، وكان له في العلوِّ
أصلٌ، كانَ أولى به.

وفي الحقيقة أنهما جميعاً قد اتصلا بجوهرهما من العالم
العلويِّ، وهذا الحر الذي تجده في الأرض، إنما هو الحرُّ
الكامن الذي زال مانعه.

هكذا كان ينبغي أن يقول، وهو قياسه.

وكان يزعم أنك إن أبصرت مصباحاً قائماً إلى الصُّبح أن
الذي رأيته في أول وهلةٍ قد بَطَلَ من هذا العالم، وظَفِر
من الدهن بشيءٍ من وزنه وقدره بلا فضل، ثم كذلك
الثالث والرابع والتاسع، فأنت إن ظننت أن هذا المصباح
ذلك، فليس به، ولكن ذلك المكان لما كان لا يخلو من
أقسامٍ متقاربة متشابهة، و لم يكن في الأول شَيْئاً ولا
علامة، وقع عندك أن المصباح الذي رأيته مع طلوع
الفجر، هو الذي رأيته مع غروب الشَّفَقِ.
وكان يزعم أن نار المصباح لم تأكل شيئاً من الدُّهن ولم
تشربه، وأن النار لا تأكل ولا تشرب، ولكن الدهن ينقص
على قدرٍ ما يخرج منه من الدخان والنار الكامنين، اللذين
كانا فيه، وإذا خرج كلُّ شيءٍ فهو بُطْلَانُهُ.

المجاز والتشبيه الأكل

وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل، وعلى الاشتقاق، وعلى التشبيه.

فإن قلتم: فقد قال الله عزَّ وجلَّ في الكتاب: "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ

لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ" عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّمَا كَلِمَهُم بَلِغْتَهُمْ.

وقد قال أوس بن حجر :

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ أَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلَا
مُعْصِمٌ
أَكَلَتْ أَظْفَارَهُ الصَّخْرُ عَلَيْهِ طَوْلُ مَرْقَى
تَوَصَّلَا

فجعل النحت والتقص أكلًا.

وقال خفاف بن ثدبة:

حُرَاشَةٌ أَمَّا كُنْتَ دَا نَهْرِ الصَّبْعِ
قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ

والصبغ: السنّة، فجعل تنقص الجذب، والأزمة، أكلًا.

باب آخر مما يسمونه أكلًا. وقال مرداس بن أدية:

وَأَدَّتِ الْأَرْضُ مِنِّي مِثْلَ وَقَرَّبُوا لِحِسَابِ الْقِسْطِ
أَكَلْتُ
وَأَكَلُ الْأَرْضَ لَمَّا صَارَ فِي بَطْنِهَا: إِحَالَتِهَا لَهُ إِلَى جَوْهَرِهَا.

باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل

وهو قول الله عز وجل: "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ طُلْمًا" وقوله تعالى، عز اسمه:

"أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ"، وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الخلل، وركبوا

الدواب، ولم ينفقوا منها دِرْهَمًا واحدًا في سبيل الأكل.

وقد قال الله عز وجل: "إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا"، وهذا مجاز آخر.

وقال الشاعر في أخذ السنين من أجزاء الخمر:

الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمَ مِنْهُتَبَقَىٰ مُصَاصَهَا الْمَكْنُونَا

وقال الشاعر:

مَرَّتْ بِنَا تَخْتَالُ فِي أَرْبَعٍ مِنْهَا بَعْضُهَا بَعْضًا
وَهَلْ قَوْلُهُ: وَقَدْ أَكَلْتُ أَظْفَارَهُ الصَّخْرُ، إِلَّا كَقَوْلِهِ:

كَصَبِ الكُدَى أَفْنَى بَرَاثَتِهِ الحَفْرِ

وَإِذَا قَالُوا: أَكَلَهُ الأَسَدُ، فَإِنَّمَا يَذْهَبُونَ إِلَى الأَكْلِ المَعْرُوفِ، وَإِذَا قَالُوا: أَكَلَهُ الأَسْوَدُ، فَإِنَّمَا يَعْنُونَ التَّهَشَّ وَاللَّدَغَ وَالْعَضَّ فَقَطْ.

وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "أَيُّحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا"، وَيُقَالُ: هُمُ لَحُومُ النَّاسِ.
وَقَالَ قَائِلٌ لِإِسْمَاعِيلَ بْنِ حَمَادٍ: أَيُّ اللُّحْمَانِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: لَحُومُ النَّاسِ، هِيَ وَاللَّهُ أَطْيَبُ مِنَ الدَّجَاجِ، وَمِنَ الفِرَاحِ، وَالعُنُوزِ الحُمْرِ.

وَيَقُولُونَ فِي بَابِ آخَرَ: فَلَانٌ يَأْكُلُ النَّاسَ، وَإِنْ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ طَعَامِهِمْ شَيْئًا.

وَأَمَّا قَوْلُ أَوْسَ بْنِ حَجَرَ:

سُطَبَاتٍ قَدَّهُ ابْنُ
مَجْدَعٍ
رَوْنَقُ ذَرِيَّتِهِ يَتَأَكَّلُ

فَهَذَا عَلَى خِلافِ الأَوَّلِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ دُهْمَانَ النَهْرِيِّ:

سَأَلْتَنِي عَنْ أَنَاسٍ أَكَلُوا لَبَنَ الدَّهْرِ عَلَيْهِمْ وَأَكَلُوا
فَهَذَا كُلُّهُ مُخْتَلَفٌ، وَهُوَ كُلُّهُ مُجَازٌ.

بَابُ آخَرَ فِي مُجَازِ الذُّوقِ

وَهُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ إِذَا بَالِغٌ فِي عَقُوبَةِ عِبْدِهِ: ذُوقْ وَ: كَيْفَ ذُقْتَهُ؟ وَ: كَيْفَ وَجَدْتَ طَعْمَهُ! وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: "ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ".

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: مَا ذُقْتُ اليَوْمَ ذَوْاقًا، فَإِنَّهُ يَعْنِي: مَا أَكَلْتُ اليَوْمَ طَعَامًا، وَلَا شَرِبْتُ شَرَابًا، وَإِنَّمَا أَرَادَ القَلِيلَ وَالكَثِيرَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَذُقْهُ، فَضَلًّا عَنِ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُ طَبِيقَاتِ الفُقَهَاءِ، مِمَّنْ يَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مُتَكَلِّمًا: مَا ذُقْتُ اليَوْمَ ذَوْاقًا عَلَى وَجْهِ مِنَ الوُجُوهِ، وَلَا عَلَى مَعْنَى مِنَ المَعَانِي، وَلَا عَلَى سَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ، وَلَا عَلَى جِهَةٍ مِنَ الجِهَاتِ، وَلَا عَلَى لَوْنٍ مِنَ الأَلْوَانِ.

وهذا من عجيب الكلام.

قال: ويقول الرجل لوكيله: إيت فلاناً فدُق ما عنده.

وقال شمّاح بن ضرار:

فذاق فأعطته من اللين ولها أن يُغرق السهم
جانباً حاجز

وقال ابن مُقيل:

كاهتزازِ رُدَيْنيِّ تَدَاوَقُهُ التَّجَارِ فَزَادُوا مَنَّهُ

وقال تَهْسَلُ بن حَرِيٍّ:

وَعَهْدُ الْغَائِيَاتِ كَعَهْدِ قَيْنٍ عَنْهُ الْجَعَائِلُ مُسْتَدَاقٍ

الجعائلُ: من الجُعَل.

وتجاوزوا ذلك إلى أن قال يزيد بن الصّعق، لبني سُليم حين صنعوا بسيدهم العباس ما صنعوا، وقد كانوا توجوه ومَلَكوه، فلما خالقهم في بعض الأمر وتبوا عليه، وكان سبب ذلك قلة رهطه،

وقال يزيد بن الصّعق:

اللّه ذاق حُلوم قَيْسٍ ذاق خِفَّتَهَا قَلَاهَا
لا تطبِعُ لها أميراً فخلّاها تردّدُ في خلاها

فزعم أن الله، عزّ وجلّ، يذوق.

وعند ذلك قال عباس الرّعلي يخبر عن قلّته وكثرتهم، فقال:

وَأُمُّكُمْ تُرْجِي التُّوَامَ لِبَعْلِهَا أَخِيكُمْ كَرَّةَ الرَّحِمِ

وزعم يونس أنّ أسلم بن زرعة لما أنشد هذا البيت اغرورقت عيناه.

وجعل عباسُ أمّه عاقراً إذ كانت تزوراً، وقد قال الغنويّ:

وتحدثوا ملاً لِتُصِيحَ أُمَّيْعِدْرَاءَ لا كَهْلُ وَلَا مَوْلُودُ
جَعَلَهَا إِذْ قَلَّ وَلَدُهَا كَالْعِدْرَاءِ التي لم تلد قطّ، لما كانت كالعذراء جعلها عذراء.

وللعرب إقدام على الكلام، ثقةً بفهم أصحابهم عنهم، وهذه أيضاً فضيلة أخرى.

وكما جوّزوا لقولهم أكل وإنما عضّ، وأكل وإنما أفتى، وأكل وإنما أحاله، وأكل وإنما أبطل

عينه - جَوَّزُوا أَيضاً أَنْ يَقُولُوا: دُفَّتْ مَا لَيْسَ بِطَعْمٍ، ثُمَّ قَالُوا: طَعِمْتُ، لِغَيْرِ الطَّعَامِ، وَقَالَ
العَرْجِيُّ:

سِوَاكُمْ
شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخاً
بَرْدَا

وقال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي"، يريد: لم يذوق طعمه.

وقال علقمة بن عبدة:

أَصَاحِبُ فِتْيَانًا طَعَامُهُمْ
الْمَزَادُ وَلَحْمٌ فِيهِ
تَنْشِيمٌ

يقول: هذا طعامهم في الغزو والسفر البعيد الغاية، وفي الصيف الذي يُعَيَّرُ الطعام
والشراب، والغزو على هذه الصفة من المفاخر؛ ولذلك قال الأول:

أَعَقُّ وَلَا أُحُو
وَلَا أُغَيِّرُ عَلَيَّ مُصْرًا
لَكِنَّمَا عَزَوِي إِذَا
وَعَلَى الْمَعْنَى الْأُولَى قَوْلُ الشَّاعِرِ:
الْمَطِيُّ مِنَ الدَّبَرِ

قَالَتْ أَلَا فَاطِمَةُ عُمَيْرًا
تَمْرِي كَهْرَةً وَزَبْرًا

وعلى المعنى الأول قال حاتم: هذا قَصْدِي أَنَّهُ! وَلِذَلِكَ قَالَ الرَّاجِزُ:

لِعَامِرَاتِ الْبَيْتِ بِالْخَرَابِ
يَقُولُ: هَذَا هُوَ عِمَارَتُهَا.

تأويل النظام لقولهم النار يابسة

وكان أبو إسحاق يتعجب من قولهم: النار يابسة، قال:
أما قولهم: الماء رطب، فيصح؛ لأننا نراه سيالاً، وإذا قال

الأرض يابسة، فإنما يريد الترابَ المتهافتَ فقط، فإن لم يُرِدْ إلا بَدَنَ الأرضِ الملازمَ بعضُه لبعض؛ لما فيها من اللُّدُونَةِ فقط، فقد أخطأ، لأن أجزاءَ الأرضِ مخالطةٌ لأجزاءِ الماءِ، فامتنعتُ من التهافتِ على أقدار ذلك. ومتى حفرنا ودخلنا في عُمقِ الأرضِ، وجدنا الأرضَ طيناً؛ بل لا تزال تجدُ الطينَ أرطبَ حتى تصيرَ إلى الماءِ، والأرضُ اليوم كلها أرضٌ وماءٌ، والماءُ ماءٌ وأرضٌ، وإنما يلزمها من الاسمِ على قدر الكثرة والقلّة، فأما النارُ فليست بيباسةِ البدنِ، ولو كانت يابسةِ البدنِ لتهافتتُ تهافتَ الترابِ، ولتَبَرَّأَ بعضها من بعض، كما أن الماءَ لما كان رطباً كان سيّالاً.

ولكن القوم لما وجدوا النارَ تستخرج كل شيء في العودِ من النارِ فظهرت الرطوباتُ لذلك السببِ، ووجدوا العودَ تتميزُ أخلاطه عند خروج نيرانه التي كانت إحدى مراتعها من التمييزِ فوجدوا العودَ قد صار رماداً يابساً مُتْهافتاً -

ظنوا أن يُبَسَّهُ إنما هو مما أعطته النار وولدت فيه.
والنار لم تُعْطِهَ شيئاً، ولكن نار العود لما فارقت
رطوبات العود، ظهرت تلك الرطوبات الكامنة والمانعة،
فبقيَ من العود الجزء الذي هو الرماد، وهو جزء الأرض
وجَوْهَرُهَا؛ لأن العود فيه جزء أرضيٌّ، وجزءٌ مائيٌّ، وجزءٌ
ناريٌّ، وجزءٌ هوائيٌّ، فلما خرجت النار واعتزلت الرطوبة
بقيَ الجزء الأرضيُّ.

فقولهم: النار يابسَةٌ، غلطٌ، وإنما ذهبوا إلى ما تراه
العيون، ولم يغوصوا على مُغَيَّبَاتِ الْعِلَلِ، وكان يقول:
ليس القوم في طريق خُلص المتكلمين، ولا في طريق
الجهابذة المتقدِّمين.

قول النظام في علاقة الذكاء بالجنس وكان يقول: إنَّ
الأُمَّةَ التي لم تُنْضِجْهَا الأَرْحَامُ، ويخالفون في ألوان
أبدانهم، وأحداق عيونهم، وألوان شعورهم، سبيلَ
الاعتدال - لا تكون عقولهم وقرائحهم إلا على حسبِ

ذلك، وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم،
وشمائلهم، وتصرفهم في لؤمهم وكرمهم،
لاختلاف السبب وطبقات الطبخ، وتفاوت ما بين الفطير
والخمير، والمقصر والمجاوز - وموضع العقل عضو من
الأعضاء، وجزء من تلك الأجزاء - كالتفاوت الذي بين
الصقالية والزنج.

وكذلك القول في الصور ومواضع الأعضاء، ألا ترى أن
أهل الصين والتبت، حذائق الصناعات، لها فيها الرفق
والجدق، ولطف المداخل، والاتساع في ذلك، والغوص
على غامضه وبعيده، وليس عندهم إلا ذلك؛ فقد يفتح
لقوم في باب الصناعات ولا يفتح لهم في سوي ذلك.
تخطئة من زعم أن الحرارة تورث اليبس قال: وكان
يخطئهم في قولهم: إن الحرارة تورث اليبس، لأن
الحرارة إنما ينبغي أن تورث السخونة، وتولد ما
يشاكلها، ولا تولد ضرباً آخر مما ليس منها في شيء،

ولو جاز أن تولد من الأجناس التي تخالفها شكلاً واحداً
لم يكن ذلك الخلاف بأحقّ من خلافٍ آخر، إلا أن يذهبوا
إلى سبيلِ المجاز: فقد يقول الرجلُ: إنما رأيتك لأني
التفتُّ، وهو إنما رآه لطبع في البصر الدرّاك، عند ذلك
الالتفاتِ. وكذلك يقول: قد نجد النار تداخلُ ماءَ القُمقمِ
بالإيقاد من تحته، فإذا صارت النارُ في الماء لابسته،
واتصلت بما فيه من الحرّاراتِ، والنار صَعَّادَةٌ - فيحدثُ
عند ذلك للماء غليانٌ؛ لحركة النار التي قد صارت في
أضعافه، وحرّكتها تصعُّدٌ، فإذا تَرَفَّعت أجزاءُ النار رَفَعَت
معها لطائف من تلك الرُّطوباتِ التي قد لابسَتْها؛ فإذا
دام ذلك الإيقادُ من النار الداخلةِ على الماء، صعدت
أجزاء الرطوباتِ الملبسةُ لأجزاء النار، ولقوة حركة
النار وطلبها التَّلاَدَ العُلُويَّ، كان ذلك، فمتى وجد من لا
عِلْمَ له في أسفل القمقم كالجبس، أو وجد الباقي من
الماء مالِحاً عند تصعُّدِ لطائفه، على مثال ما يعتري ماءً

البحر ظنَّ أن النار التي أعطته اليُبْسَ.

وإن زعموا أن النار هي الميَّسَّة - على معنى ما قد
فسرنا - فقد أصابوا، فإن ذهبوا إلى غير المجازِ أخطئوا.
وكذلك الحرارة، إذا مُكنت في الأجساد بعثتِ الرطوبات
ولابستَها، فمتى قويتْ عَلَى الخروج أخرجتها منه، فعند
خروج الرطوباتِ توجد الأبدان يابسةً، ليس أن الحرَّ
يجوز أن يكون له عملٌ إلا التسخينَ والصعودَ؛ والتقلبُ
إلى الصعود من الصعود، كما أن الاعتزال من شكل
الزوال.

وكذلك الماء الذي يفيض إلى البحر من جميع ظهور
الأرضينَ وبطونها، إذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة،
فالماء غسَّال مصَّاص، والأرض تقذف إليه ما فيها من
الملوحة.

وحرارةُ الشمس والذي يخرج إليه من الأرض، من أجزاء
النيران المخالطة يرفعان لطائفَ الماء بارتفاعهما،

وتبخيرهما، فإذا رَفَعَا اللطائفَ، فصار منهما مطرٌ وما يشبه المطر، وكان ذلك دأبهما، عادَ ذلك الماء ملحاً لأن الأرض إذا كانت تعطيه الملوحة، والنيران تخرجُ منه العذوبة واللطافة - كان واجباً أن يعود إلى الملوحة، ولذلك يكون ماء البحرِ أبداً عَلى كيلٍ واحدٍ، ووزن واحدٍ؛ لأن الحرارة تطلب القرارَ وتجري في أعماق الأرض، وترفع اللطائف؛ فيصير مطراً، وبَرَدًا، وثلجاً، وطلاً، ثم تعود تلك الأمواه سيولاً تطلب الحَدورَ، وتطلب القرارَ، وتجري في أعماق الأرض، حتى تصير إلى ذلك الهواء، فليس يضيع من ذلك الماء شيء، ولا يبطلُ منه شيء، والأعيانُ قائمة، فكأنه مَنجُونُ غُرف من بحر، وصبٌّ في جدول يفيضُ إلى ذلك النهر.

فهو عملُ الحرارة إذا كانت في أجواف الحطب، أو في أجواف الأَرْضين، أو في أجواف الحيوان. والحر إذا صار في البدن، فإنما هو شيء مُكْرَه، والمكرهُ

لا يَألو يتخلصُ وهو لا يتلخص إلا وقد حَمَل معه كلَّ ما
قويَ عليه، مما لم يشتد، فمتى خرج خرج معه ذلك
الشيءُ.

قال: فمن هاهنا غَلَط القوم.

قول الدهرية في أركان العالم قال أبو إسحاق: قالت
الدهرية في عالمنا هذا بأقويل: فمنهم من زعم أن
عالمنا هذا من أربعة أركانٍ: حرٌّ، وبرد، ويبس، وبلَّة،
وسائر الأشياء نتائجُ، وتركيبٌ، وتوليد، وجعلوا هذه
الأربعة أجساماً.

ومنهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركانٍ: من
أرض، وهواءٍ، وماءٍ، ونار، وجعلوا الحر، والبرد، واليبس،
والبلَّة أعراضاً في هذه الجواهر، ثم قالوا في سائر
الأرايح، والألوان، والأصوات: ثمارُ هذه الأربعة، عُلَى
قدر الأخلاط، في القلة والكثرة، والرقه والكثافة.
فقدّموا ذكر نصيب حاسَّةِ اللمس فقط، وأضربوا عن

أنصبا الحواسِّ الأربع.

قالوا: ونحن نجد الطُّعومَ غاذيةً وقاتلةً، وكذلك الأرييح،

ونجد الأصوات مُلذة ومؤلِّمة، وهي مع ذلك قاتلة

وناقصةٌ للقوى مُتلفة، ونجد للألوان في المضار

والمنافع، واللَّذاذةِ والألمِ، المواقعِ التي لا تجهل، كما

وجدنا مثل ذلك في الحر والبر، واليُبس والبلَّة، ونجن لم

نجد الأرض باردة يابسة، غير أنا نجدها مالحة، أي ذات

مذاقةٍ ولون كما وجدناها ذات رائحةٍ، وذات صوتٍ متى

قَرَع بعضها بعضاً.

فبرُد هذه الأجرامِ وحرها، ويُبسُّها ورطوبتها، لم تكن فيها

لعة كون الطُّعوم والأرييح والألوان فيها، وكذلك

طعومها، وأرييحها وألوانها، لم تكن فيها لمكانِ كمون

البرد، واليُبس، والحر، والبلَّة فيها.

ووجدنا كلَّ ذلك إما ضارًّا وإما نافعاً، وإما غاذياً وإما

قاتلاً، وإما مؤلِّماً وإما مُلذِّلاً. وليس يكون كون الأرض

مالحة أو عذبة، ومنتنة أو طيبة أحقَّ بأن يكون علة لكون
اليُبس والبرد، والحر والرطوبة، من أن يكون كون
الرطوبة واليُبس، والحر والبرد- علة لكون اللون
والطعم والرائحة.

وقد هجم الناسُ على هذه الأعراض الملازمة، والأجسام
المشاركة هجوماً واحداً، على هذه الحلية والصورة
ألقاها الأولُ والآخِرُ.

قال: فكيف وقع القول منهم على نصيب هذه الحاسة
وحدها ونحن لم نر من البلَّة، أو من اليُبس نفعاً ولا ضرراً،
تفرد به دون هذه الأمور؟.

قال: والهواء يختلف على قدرِ العوامل فيه من تحت
ومن فوق، ومن الأجرام المشتملة عليه والمخالطة له،
وهو جسم رقيق، وهو في ذلك محصورٌ، وهو خَوَّازٌ سريع
القبول، وهو مع رفته يقبل ذلك الحصر؛ مثل عمل الريح
والزَّقِّ، فإنها تدفعه من جوانبه، وذلك لعله الحصر

ولَقَطْعُهُ عَنِ شَكْلِهِ.

والهواء ليس بالجسم الصاعد، والجسم النَّزَالِ، ولكنه

جسم به تعرف المنازل والمصاعد.

والأمور ثلاثة: شيء يصعدُ في الهواء، وشيء ينزل في

الهواء، وشيء مع الهواء، فكما أن الصاعد فيه،

والمنحدر - لا يكونان إلا مخالفين، فالواقع معه لا يكون

إلا موافقاً.

ولو أنَّ إنساناً أرسل من يده - وهو في قَعْرِ الماء - زِقّاً

منفوخاً، فارتفع الرِّقُّ لدفع الريح التي فيه، لم يكن لقائل

أن يقول: ذلك الهواء شأنه الصعود بل إنما ينبغي أن

يقول: ذلك الهواء من شأنه أن يصير إلى جوهره، ولا

يقيم في غير جوهره؛ إلا أن يقول: من شأنه أن يصعد

في الماء، كما أن من شأن الماء أن ينزل في الهواء،

وكما أن الماء يطلبُ تِلَادَ الماء، والهواء يطلبُ تلاد

الهواء.

قالوا: والنار أجناسٌ كثيرةٌ مختلفة، وكذلك الصاعد، ولا بدّ إذا كانت مختلفة أن يكون بعضها أسرع من بعض، أو يكون بعضها إذا خرج من عالم الهواء، وصار إلى نهاية، إلى حيث لا منفذ - ألا يزال فوق الآخر الذي صعد معه، وإن وجد مذهباً لم يقيم عليه.

ويدلُّ على ذلك أنا نجد الضياء صَعَاداً، والصوت صَعَاداً، ونجد الظلام رابداً، وكذلك البردَ والرُّطوبة، فإذا صح أن هذه الأجناس مختلفة، فإذا أخذت في جهة، علمنا أن الجهة لا تخالف بين الأجناس ولا توافق، وأن الذي يوافق بينهما ويخالف اختلافُ الأعمال.

ولا يكون القطعان متفقين، إلا بأن يكون سرورهما سواء، وإذا صارا إلى الغاية، صار اتصال كل واحد منهما بصاحبه، كاتصال بعضه ببعض، ثم لا يوجد أبداً، إلا إمّا أَعْلَى، وإما أسفل.

قال أبو إسحاق: فيستدل على أن الضياء أخفُّ من الحر

بزواله، وقد يذهب ضوء الأتون، وتبقى سخونته.

قال أبو إسحاق: لأمر ما حُصر الهواء في جوف هذا القَلَك، ولا بد لكل محصور من أن يكون قلبه وضغطه على قدر شدة الحصار، وكذلك الماء إذا اختنق.

قال: والريح هواء نزل لا غير، فليَمَ قَصَّوا على طبع الهواء في جوهريته باللدونة، والهواء الذي يكون بقرب الشمس، والهواء الذي بينهما على خلاف ذلك؟ ولولا أن قُوى البرد غريزيةً فيه، لما كان مرَّوحاً عن النفوس، ومنقَّساً عن جميع الحيوان إذا اختنق في أجوافها البخارُ والوهجُ المؤذي، حتى فزعتْ إليه واستغاثتْ به، وصارت تجتلب من رَوْحه وبردِ نسيمه، في وزن ما حَرَجَ من البخار الغليظ، والحرارة المستَكِنَّة.

قال: وقد علموا ما في اليُبس من الخصومة والاختلاف، وقد زعم قومٌ أن اليُبس إنما هو عدم البَلَّة، قالوا: وعلى قدر البلة قد تتحول عليه الأسماء، حتى قال خصومهم:

فقولوا أيضاً إنما نجدُ الجسم بارداً على قدر قلة الحرِّ فيه.

وكذلك قالوا في الكلام: إن الهواء إنما يقع عندنا أنه مُظلم لفقدان الضياء، ولأن الضياء قرصٌ قائم، وشعاع ساطعٌ فاصل، وليس للظلام قرص، ولو كان في هذا العالم شيء يقال له ظلامٌ، لما قام إلا في قرص، فكيف تكون الأرض قُرْصَةً، والأرض غبراء، ولا ينبغي أن يكون شعاع الشيء أسبعَ منه.

قال: والأول لا يشبه القول في اليُبس والبلة، والقول في الحر والبرد، والقول في اليُبس والرطوبة، والقول في الخشونة واللين، لأن التراب لو كان كله يابساً، وكان اليبس في جميع أجزائه شائعاً، لم يكن بعضه أحق بالتقطيع والتبرد والتهافت، من الجزء الذي نجده متمسكاً. قال خصمه: ولو كان أيضاً التهافت الذي نجده فيه إنما هو لعدم البلة، وكله قد عدم البلة، لكان ينبغي

للكل أن يكون متهافتاً، ولا نجد منه جزأين متلازمين.

فإن زعمتم أنه إنما اختلف في التهافت على قدر اختلاف اليُبس، فينبغي لكم أن تجعلوا اليُبس طبقات، كما يُجعل ذلك للخُصرة والصفرة.

وقال إبراهيم: رأيت لو اشتمل اليُبس الذي هو غاية التُّراب كله كما عرض لنصفه، أما كان واجباً أن يكون الافتراقُ داخلاً على الجميع؟ وفي ذلك القولُ بالجزء الذي لا يتجزأ.

وأبو إسحاق، وإن كان اعترض على هؤلاء في باب القول في اليُبس، فإنَّ المسألة عليه في ذلك أشد. وكان أبو إسحاق يقول: من الدليل على أن الضياء أخفُّ من الحرِّ أنَّ النارَ تكون منها على قاب غلوة فيأتيك ضوءها ولا يأتيك حرها، ولو أن شمعة في بيت غير ذي سقف، لارتفع الضوء في الهواء حتى لا تجد منه على الأرض إلا الشيء الضعيف، وكان الحرُّ على شبيه بحاله

الأول.

رد النظام على الديسانية وقال أبو إسحاق: زعمت
الديسانية أن أصل العالم إنما هو من ضياء وظلام، وأن
الحرّ والبرد، واللون والطعم والصوت والرائحة، إنما هي
نتائج على قدر امتزاجهما.

ف قيل لهم: وجدنا الجبر إذا اختلط باللبن صار جسماً
أغبر، وإذا خلطت الصير بالعسل صار جسماً مراً الطعم
على حساب ما زدنا، وكذلك نجد جميع المركبات، فما
لنا إذا مزجنا بين شيئين من ذوات المناظر، خرجنا إلى
ذوات الملامس، وإلى ذوات المداقة والمشمة؟ وهذا
نفسه داخل على من زعم أن الأشياء كلها تولدت من
تلك الأشياء الأربعة، التي هي نصيب حاسة واحدة.
نقد النظام لبعض مذاهب الفلاسفة وقال أبو إسحاق:
إن زعم قوم أن ههنا جنساً هو روح، وهو ركن خامس -
لم نخالفهم.

وإن زعموا أن الأشياء يحدث لها جنسٌ إذا امتزجت
بضربٍ من المزاج، فكيف صار المزاج يُحدث لها جنساً
وكلُّ واحد منه إذا انفرد لم يكن ذا جنس، وكان مفسِداً
للجسم، وإن فصل عنها أفسدَ جنسها؟ وهل حكمٌ قليل
ذلك إلا كحكم كثيره؟ ولم لا يجوز أن يُجمع بين ضياءٍ
وضياءٍ فيحدث لهما منع الإدراك؟.

فإن اعتلَّ القومُ بالزاج والعُص والماء، وقالوا: قد نجدُ
كلَّ واحد من هذه الثلاثة ليس بأسودَ، وإذا اختلطت
صارت جسماً واحداً أشدَّ سواداً من الليل، ومن السَّبج،
ومن الغراب - قال أبو إسحاق: بيني وبينكم في ذلك
فَرْقٌ، أنا أزعمُ أن السواد قد يكون كامناً ويكون ممنوع
المنظرة، فإذا زال مانعه ظهر، كما أقولُ في النار
والحجرِ وغير ذلك من الأمور الكامنة، فإن قلتُم بذلك
فقد تركتم قولكم، وإن أبيتم فلا بدَّ من القول، قال أبو
إسحاق: وقد خلط أيضاً كثيرٌ منهم فزعموا أن طباع

الشيخ البلغم.

ولو كان طباعُهُ البلغم، والبلغم لِيِنَّ رَطْبُ أبيض، لما
ازداد عَظْمه نحولاً، ولونه سواداً، وجلده تقبُّضاً.
وقال التَّمِرُ بنُ تَوْلِب:

مَحَطًّا فِي يَدَيَّ صَنَاعَ عَلْتِ مِنِّي بِهِ الْجِلْدَ
حَارِثِيَّةٍ عَلُّ

وقال الراجز:

وكثر فواضل الإهاب

قال: ولكنهم لما رأوا بَدَتَهُ يَتَعَصَّنُ، ويظهر من ذلك التغصُّنِ رطوبات بدنية كالبلغم من الفم،
والمخاطِ السائل من الأنف، والرَّمَصِ والدمع من العين، ظنوا أن ذلك لكثرة ما فيه من أجزاء
الرطوبات، وأرادوا أن يقسِّموا الصِّبَا والشباب، والكهولة والشيوخة على أربعة أقسام كما تهيأ
لهم ذلك في غير باب.

وإذا ظهرت تلك الرطوبات، فإنما هي لنفْيِ اليُبْسِ لها، ولعَصْرِه قُوَى البَدَنِ، ولو كان الذي
ذكروا لكان دمعُ الصِّبَا أكثر ومخاطه أغزر، ورطوباته أظهر، وفي البقول والرياحين والأغصان
والأشجار ذلك؛ إذ كانت في الحداثة أرطب، وعَلَى مرور السنين والأيام أَيْس.

قال الراجز:

اسمع أنبئك بآيات العشي وسعال
الكبر بالسحر
النوم إذا الليل الطعم إذا الزاد
اعتكر حضر
وسرعة الطرف وضعفوتركي الحسنا في قبل
النظر الطهر
وحذر أزداده إلى حول الناس يبلون كما يبلو

الشجر

وكان يتعجب من القول بالهيوَلَى. وكان يقول: قد عرفنا مقدارَ رزانة البِلَّة، وسنعطيكم أن للبرد وزناً، أليس الذي لا تُشْكُون فيه أن الحر خفيف ولا وزن له، وأنه إذا دخل في جِرمٍ له وزنٌ صار أخفَّ، وإنكم لا تستطيعون أن تثبتوا لليس من الوزن مثل ما تثبتون للبِلَّة، وعلى أن كثيراً منكم يزعم أن البرد المَجْمَد للماء هو أيبس. وزعم بعضهم أن البرد كثيراً ما يصاحب اليبس، وأن اليبس وحده لو حلَّ بالماء لم يُجمد، وأن البرد وحده لو حلَّ بالماء لم يجمد، وأن الماء أيضاً يجمد لاجتماعهما عليه، وفي هذا القولُ أن شيئين مجتمعين قد اجتمعا على الإجماد، فما تنكرون أن يجتمع شيان على الإذابة؟. وإن جاز لليبس أن يُجمد جاز للبِلَّة أن تُذيب. قال أبو إسحاق: فإن كان بعض هذه الجواهر صغاداً وبعضها نزالاً، ونحن نجد الذهب أثقلَ من مثله من هذه

الأشياء النَّزَّالة، فكيف يكون أثقل منها وفيه أشياء
صَّعَّادة؟.

فإن زعموا أن الخفة إنما تكونُ من التَّخْلُجِ والسُّخْفِ،
وكثرةِ أجزاءِ الهواءِ في الجرمِ، فقد ينبغي أن يكون الهواءُ
أخفَّ من النارِ، وأن النارِ في الحَجَرِ، كما أن فيه هواءً،
والنارِ أقوى رفع الحَجَرِ من الهواءِ الذي فيه.
وكان يقول: من الدليل على أن النارِ كامنَةٌ في الحطبِ،
أن الحطبِ يُحرقُ بمقدارِ من الإحراقِ، ويُمنع الحطبِ أن
يخرج جميع ما فيه من النيرانِ، فيجعل فحماً، فمتى
أحببت أن تستخرجِ الباقيَ من النارِ استخرجته، فترى النارِ
عند ذلك يكون لها لهبٌ دون الضرامِ، فمتى أخرجت تلك
النارِ الباقية، ثم أوقدت عليها ألفِ عامٍ لم تَسْتَوْقِدْ،
وتأويل: لم تستوقد إنما هو ظهور النارِ التي كانت فيه،
فإذا لم يكن فيه شيءٌ فكيف يستوقد؟.
وكان يُكثرُ التعجُّبَ من ناس كانوا ينافسون في الرّأسة،

إذا رآهم يجهلون جهلَ صغارِ العلماء، وقد ارتفعوا في
أنفسهم إلى مرتبةٍ كبار العلماء.
وذلك أن بعضهم كان يأخذ العود فينقيه فيقول: أين تلك
النار الكامنة؟ ما لي لا أراها، وقد ميّزتُ العود قشراً بعد
قشر؟.

استخراج الأشياء الكامنة

فكان يقول في الأشياء الكامنة: إن لكل نوع منها نوعاً
من الاستخراج، وضرباً من العلاج، فالعيدانُ تُخرجُ نيرانها
بالاحتكاك، واللبنُ يُخرجُ زبده بالمخض، وجُبنة يُجمع
بإنفحةٍ، وبضروب من علاجه.
ولو أن إنساناً أراد أن يخرج القطرانَ من الصنوبر،
والزفتَ من الأرز؛ لم يكن يخرج له بأن يقطع العود ويدقه
ويقشره، بل يوقد له ناراً بقربه، فإذا أصابه الحرُّ عرق
وسال، في ضروب من العلاج.

ولو أن إنساناً مَرَجَ بين الفضة والذهب، وسبكهما سبيكة واحدة، ثم أراد أن يعزل أحدهما من صاحبه لم يُمكنه ذلك بالفَرَضِ والدَّقِّ، وسبيل التفريق بينهما قريبة سهلة عند الصَّاعَةِ، وأرباب الحُمْلانات.

رد النظام على أرسطاطاليس وزعم أبو إسحاق أن أرسطاطاليس كان يزعم أن الماء الممازج للأرض لم ينقلب أرضاً، وأن النار الممازجة للماء لم تنقلب ماءً، وكذلك ما كان من الماء في الحجر، ومن النار في الأرض والهواء، وأن الأجرام إنما يخفُّ وزنها وتسخفُّ، على قدر ما فيها من التخلخلُ ومن أجزاء الهواء، وأنها ترزُّ وتصلب وتَمْتُن على قدر قَلَّةِ ذلك فيها.

ومن قال هذا القولَ في الأرض والماء والنار والهواء، وفيما تركب منها من الأشجار وغير ذلك - لم يصل إلى أن يزعم أن في الأرض عرضاً يحدث، وبالْحَرَا أن يَعِجَزَ عن تثبيت كون الماء والأرض والنار عرضاً.

وإذا قال في تلك الأشجار بتلك القالة، قال في الطول والعرض، والعُمق، وفي التربع والتثليث والتدوير، بجواب أصحاب الأجسام، وكما يُلزم أصحاب الأعراض أصحاب الأجسام بقولهم في تثبيت السكون والحركة أن القول في حِرَاكِ الحَجَرِ كالقول في سكونه - كذلك أصحاب الأجسام يلزمون كل من زعم أن شيئاً من الأعراض لا يُنْقَضُ أَنَّ الجسمَ يتغير في المَدَاقَةِ والمَلْمَسَةِ والمنظرة والمشَمَّة من غير لون الماء، وفي برودة نفس الأرض وتثبيتها كذلك.

ومتى وجدنا طينة مَرَبَّعة صارت مَدَوَّرة، فليس ذلك بحدوثٍ تدويرٍ لم يكن، فكان عنده تَغْيُره في العَيْنِ أَوْلَى من تَغْيُرِ الطِينَةِ في العين من البياض إلى السواد، وسبيلُ الصلابة والرَّخَاوَةِ؛ والثقل والخِفَّةُ، سبيلُ الحلاوة والملوحة، والحرارة والبرودة. أصحاب القول بالاستحالة وليس يقيس القول في الأعراض إلا من قال بالاستحالة،

وليس في الاستحالة شيءٌ أقبحُ من قولهم في استحالة
الجبل الصَّخِيرِ إلى مقدار خردلةٍ، من غير أن يدخل
أجزاءه شيءٌ على حال، فهو عَلَى قولٍ من زعم أن
الخردلة تنصّفُ أبداً أحسن، فأما إذا قال بالجزء الذي لا
يتجزأ، وزعم أن أقلَّ الأجسام، الذي تركيبه من ثمانيةِ
أجزاءٍ لا تتجزأ، أو ستة أجزاءٍ لا تتجزأ، يستحيل جسماً
عَلَى قدر طول العالم وعرضه وعمقه - فإننا لو وجدناه
كذلك لم نجد بدّاً من أن نقول: إنا لو رفعنا من أوهامنا
من ذلك شبراً من الجميع، فإن كان مقدار ذلك الشبرِ
جزءاً واحداً فقد وجدناه جسماً أقلَّ من ثمانية أجزاءٍ ومن
سته أجزاءٍ، وهذا نقضُ الأصل، مع أن الشبرَ الذي رفعناه
من أوهامنا، فلا بدَّ إن كان جسماً أن يكون من ستة أجزاءٍ
أو من ثمانية أجزاءٍ، وهذا كله فاسد.

الأضواء والألوان

والنار حرٌّ وضياء، ولكلُّ ضياءٍ بياضٌ ونور، وليس لكلِّ
بياض نورٌ وضياء، وقد غلط في هذا المقام عالمٌ من
المتكلمين.

والضياء ليس بلون، لأن الألوان تتفاسد، وذلك شائعٌ في
كلها، وعامٌّ في جميعها؛ فاللبن والجبر يتفاسدان، ويتمازجُ
التراب اليابس والماء السائل، كما يتمازج الحارُّ والبارد،
والحلو والحامض، فصنيع البياض في السواد، كصنيع
السواد في البياض، والتفاسدُ الذي يقع بين الخُصرةِ
والحمرة، فبذلك الوزن يقع بين البياض وجميعِ الألوان.
وقد رأينا أن البياضَ مَيَّاعٌ مفسدٌ لسائر الألوان، فأنت قد
ترى الضياءَ عَلى خلافِ ذلك؛ لأنه إذا سقط عَلى الألوان
المختلفةِ كان عمله فيها عملاً واحداً، وهو التفصيل بين
أجناسها، وتمييزُ بعضها من بعض، فيبين عن جميعها إبانة
واحدة، ولا تراه يخصُّ البياضَ إلا بما يخص بمثله السواد،
ولا يعملُ في الخُصرةِ إلا مثلَ عمله في الحُمرة، فدلَّ ذلك

عَلَى أَنْ جِنْسَهُ خِلاَفُ أَجْنَاسِ الْأَلْوَانِ، وَجَوْهَرَهُ خِلاَفُ
جَوَاهِرِهَا، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى اخْتِلاَفِ الْجَوَاهِرِ اخْتِلاَفُ
الْأَعْمَالِ؛ فَبِاخْتِلاَفِ الْأَعْمَالِ وَاتِّفَاقِهَا تَعْرِفُ اخْتِلاَفَ
الْأَجْسَامِ وَاتِّفَاقَهَا.

جَمَلَةُ الْقَوْلِ فِي الضَّدِّ وَالْخِلاَفِ وَالْوِفاقِ

قالوا: الْأَلْوَانُ كُلُّهَا مُتَضادَّةٌ، وَكَذَلِكَ الطَّعْمُ، وَكَذَلِكَ
الْأَرابِيحُ، وَكَذَلِكَ الْأَصْوَاتُ، وَكَذَلِكَ الْمَلَامِسُ: مِنَ الْحَرارةِ
وَالْبَرودةِ، وَالْيَبسِ وَالرَّطوبَةِ، وَالرِّخاوةِ وَالصِّلابَةِ،
وَالْمَلاسَةِ وَالخَشونَةَ، وَهَذِهِ جَمِيعُ الْمَلامِسِ.
وَزَعَمُوا أَنَّ التَّضادَّ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ نَصيبِ الحاسَّةِ الواحِدَةِ
فقط، فَإِذا اختلفتِ الحواسُّ صارَ نَصيبُ هَذِهِ الحاسَّةِ
الواحدةِ مِنَ المَحسوساتِ، خِلاَفِ نَصيبِ تلكِ الحاسَّةِ،
وَلَمْ يَضادَّها بِالضَّدِّ كَاللَّوْنِ وَاللَّوْنِ؛ لِمَكَانِ التَّفاسِدِ،
وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ؛ لِمَكَانِ التَّفاسِدِ.

ولا يكون الطعم ضدَّ اللون، ولا اللون ضدَّ الطعم، بل
يكونُ خِلافًا، ولا يكون ضدًّا ولا وفاقًا، لأنه من غير جنسه،
ولا يكون ضدًّا، لأنه لا يفسده.

وزعم من لا علم له من أصحاب الأعراض، أن السوادَ إنما
ضادُّ البياضَ، لأنهما لا يتعاقبان، ولا يتناوبان، ولأنهما
يتنافيان.

قال القوم: لو كان ذلك من العلة، كان ينبغي لذهابِ
الجسمِ قُدْمًا أن يكون بعضه يضاد بعضًا، لأن كونه في
المكان الثاني لا يوجد مع كونه في المكان الثالث، وكذلك
التربيع: كطينة لو رُبِّعت بعد تثليثها، ثم رُبِّعت بعد ذلك،
ففي قياسهم أن هذين التربيعةين ينبغي لهما أن يكونا
متضادَّين، إذ كانا متنافيين، لأن الجسم لا يحتمل في وقت
واحد طولَين، وأن الضدَّ يكون عَلى ضدين: يكون أحدهما
أن يخالف الشيءُ الشيءَ من وجوهٍ عدة، والآخِرُ أن
يخالفه من وجهين أو وجهٍ فقط.

قالوا: والبياض يخالف الحمرة ويضادُّها، لأنه يُفاسِدُها ولا يفاسِدُ الطعم؛ وكذلك البياض للصفرة والحُوَّة والحُضرة، فأما السواد خاصة فإن البياض يضاده بالتفاسد، وكذلك التفاسد، وكذلك السواد.

وبَقِيَ لهما خاصة من الفصول في أبواب المضادة: أن البياض ينصبغ ولا يَصْبُغ، والسواد يصبغ ولا ينصبغ، وليس كذلك سائر الألوان لأنها كلها تصبغ وتُنْصَبِغ. قالوا: فهذا بابٌ يساق.

إن الصفرة متى اشتدت صارت حُمرة

ومتى اشتدت الحمرة صارت سواداً، وكذلك

الخصرة متى اشتدت صارت سواداً.

والسواد يضاد البياض مضادة تامة، وصارت الألوان الأخر فيما بينها تتضاد عادة، وصارت الطُّعوم والأرايح والملامس تخالفها ولا تضادها.

أصل الألوان جميعها وقد جعل بعض من يقول بالأجسام
هذا المذهب دليلاً عَلَى أن الألوان كُلُّها إنما هي من
السواد والبياض، وإنما تختلفان عَلَى قدر المزاج،
وزعموا أن اللونَ في الحقيقة إنما هو البياض والسواد،
وحكموا في المقالة الأولى بالقوة للسواد عَلَى البياض؛
إذ كانت الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد،
وَبَعُدت من البياض، فلا تزال كذلك إلى أن تصير سواداً.
وقد ذكرنا قبل هذا قولَ من جعل الضياء والبياض
جنسين مختلفين، وَرَعَمَ أن كلَّ ضياءٍ بياضٌ وليس كلُّ
بياضٍ ضياءً.

عِظَمَ شأن المتكلمين وما كان أحوَجَنَا وأحوَجَ جميعِ
المرضى أن يكون جميعُ الأطباء متكلمين، وإلى أن يكون
المتكلمون علماء؛ فإن الطبَّ لو كان من نتائج حُذاقِ
المتكلمين ومن تلقихم له، لم نجدُ في الأصول التي
يبنون عليها من الخَلَلِ ما نجدُ.

ألوان التَّيْران والأضواء وزعموا أن النار حمراء، وذهبوا إلى ما ترى العينُ، والنار في الحقيقة بيضاء، ثم قاسوا على خلافِ الحقيقةِ المِرَّةَ الحمراء، وشبَّهوها بالنار، ثم زعموا أن المرة الحمراء مُرَّة، وأخْلِقُ بالدخان أن يكون مرّاً، وليس الدخان من النار في شيء.

وكل نور وضياء هو أبيض، وإنما يحمُرُّ في العين بالعرض الذي يَعْرِضُ للعين، فإذا سَلِمَتْ من ذلك، وأفضت إليه العين رأته أبيضَ، وكذلك نار العود تنفصل من العود، وكذلك انفصال النار من الدُّهْنِ ومعها الدخان⁰. لأجزائها، فإذا وقعت الحاسة على سوادٍ أو بياض في مكان واحد، كان نتاجهما في العين منظرَةَ الحمرة. ولو أنَّ دخاناً عرض بينك وبينه قرص الشمس أو القمر لرأيته أحمر، وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر، للبخار والغبارِ المعترض بينك وبينه، والبخار والدخان أخوان.

ومتى تحلَّق القرص في كبد السماء، فصار على قمة رأسك؛ ولم يكن بين عينيك وبينه إلا بقدر ما تمكن البخار من الارتفاع في الهواء صُعْدًا - وذلك يسيَّر قليل - فلا تراه حينئذٍ إلا في غاية البياض.

وإذا انحطَّ شرقاً أو غرباً صار كلُّ شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء، ملابساً للغبار والدخان والبخار، وضروب الصَّبَاب والأنداء فتراها إما صفراء، وإما حمراء. ومن زعم أن النار حمراء فلم يكذب إن ذهب إلى ما ترى العين، ومن ذهب إلى الحقيقة والمعلوم في الجوهريَّة، فزعم أنها حمراء، ثم قاس على ذلك جهلَ وأخطأ.

وقد نجد النار تختلف على قدر اختلاف النَّفْط الأزرق، والأسود، والأبيض، وذلك كله يدور في العين مع كثرة الدخانِ وقلته.

ونجد النار تتغير في ألوانها في العين، على قدر جفوفِ

الخطب ورطوبته، وعلى قدر أجناس العيدان والأدهان،
فنجدها شقراء، ونجدها خضراء إذا كان حطبها مثل
الكبريت الأصفر.

علة تلون السحاب ونجد لون السحاب مختلفاً في
الحمرة والبياض، على قدر المقابلات والأعراض، ونجد
السحابة بيضاء، فإذا قابلت الشمس بعض المقابلة، فإن
كانت السحابة غربية أفقية والشمس منحطة، رأيتها
صفراء، ثم سوداء، تعرض للعين لبعض ما يدخل عليها.
شعر في ألوان النار وقال الصلّتان الفهمي في النار:

وئوقدها شقراء في رأبِعِشُو إليها كلُّ باغٍ
هَضْبَةٌ
وجازِع

وقال مزرد بن ضرار:

فأبصر ناري وهي شقرلُغلياء نَشِرٌ للعيونِ
أوقِدَتْ
النواظِرِ

وقال آخر:

كسخر العود يرفعُ الليل هبَّاتُ الرياحِ
صَوَّءَها
الصَّوَّارِدُ

والغبار يناسب بعض الدخان، ولذلك قال طقيّل العنوي:

هبطت سهلاً كأنَّ بجانبها الأقصى دواخُنُ
غبارَه
تنصِبِ

لأن دَخَانَهُ يكون أبيض يشبه الغبار، وناره شقراء.

والعرب تجمعُ الدخان دواجن، وقال الأزرق الهمداني:

ونوقدها شقراء من قَرَوِّ لَكُمْثُ أَرْوَى لِلنِّزَالِ
تَنْصُبُ وَأَشْبَعُ

وذلك أن النار إذا أُلْقِيَ عليها اللحمُ فصار لها دخان،
أصْهَابَتْ بِدَخَانِ ماءِ اللحمِ وسوادِ القُتَارِ، وهذا يدل أيضاً
عَلَى ما قلنا.

وفي ذلك يقول الهَيَّبَانُ الفَهْمِيُّ:

فوق النجاد جفان
لا تضرم للصلاء
شيزى

ولكن للطبخ، وقد عرّفه الطيخ الهم مستلب الفراء
غذيت بغير لظى، كمرتكم الغمامة ذي العفاء
فنارى

وقال سحر العود:

نَارٌ تُشَبُّ عَلَى يَفَاعٍ مُرْعَبِلِ الأهدامِ بالي
فوقها بُحْرٌ رَحَابٌ مُبَجَلَةٌ تَقَادِفُ بالمَحَالِ

علة اختلاف ألوان النار ويدلُّ أيضاً على ما قلنا: أن النار يختلف لوئها على قدر اختلاف جنس

الدُّهْنِ والحطب والدخان، وَعَلَى قدر كثرة ذلك وَقَلَّتْهُ، وَعَلَى قدر يُبْسِهِ ورطوبته - قولُ

الراعي حين أراد أن يصف لونَ ذئبٍ فقال:

الربيع وقد تقارب ورأى بعقوته أزل نسولا
خطوه

متوضح الأقراب فيه شهبة اليدين تخاله مشكولا
كدخان مرتجل بأعلى تلعثان ضرم عرفجاً مبلولا
المرتجل: الذي أصاب رجلاً من جرادٍ، فهو يشويه،

وجعله عَرَّثَانِ لكون العَرِثِ لا يختار الحطب اليابس عَلى

رطبه، فهو يشويه بما حصره، وأدار هذا الكلام، ليكون لون الدخان بلون الذئب الأطحل متفقين.

تعظيم زرادشت لسان النار

وزرادشت هو الذي عظم النار وأمر بإحيائها، ونهى عن إطفائها، ونهى الحيض عن مسها والدنو منها، وزعم أن العقاب في الآخرة إنما هو بالبرد والزمهرير والدمق. علة تخويف زرادشت أصحابه بالبرد والثلج وزعم أصحاب الكلام أن زرادشت - وهو صاحب المجوس - جاء من بلخ، وادعى أن الوحي نزل عليه على جبال سيلان، وأنه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة، الذين لا يعرفون إلا الأذى بالبرد، ولا يضربون المثل إلا به؛ حتى يقول الرجل لعبده: لئن عدت إلى هذا لأنزعن ثيابك، ولأقيمَنَّك في الريح، ولأوقفَنَّك في الثلج فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع، جعل الوعيد بتضاعفه، وظنَّ أنَّ

ذلك أزرَّ لهم عما يكره.

وزرَّادُشت في توعده تلك الأمة بالثلج دون النار، مُقِرُّ بأنه لم يُبعث إلا إلى أهل تلك الجبال، وكأنه إذا قيل له: أنت رسول إلى من؟ قال لأهل البلاد الباردة، الذين لا بدُّ لهم من وعيدٍ، ولا وعيدٍ لهم إلا بالثلج.

وهذا جهلٌ منه، ومن استجاب له أجهلٌ منه.

رُدُّ على زرادشت في التخويف بالثلج والثلج لا يكْمُل لمضادَّة النار، فكيف يبلغ مبلغها؟ والثلج يُؤْكَلُ ويشرب، ويُقضم قضمًا، ويمرَّج بالأشربة، ويدفن فيه الماء وكثير من الفواكه.

وربما أخذ بعض المترفين القطعة منه كهامة الثور،

فيضعها على رأسه ساعة من نهار، ويتبرَّد بذلك.

ولو أقام إنسان على قطعة من الثلج مقدارِ صخرة في حَمدان ريح ساعةً من نهار، لما خيفَ عليه المرض قَطُّ.

فلو كان المبالغة في التنفير والزجر أراد، وإليه قصد؛

لذَكَرَ ما هو في الحقيقة عند الأمم أشدُّ، والوعيد بما هو
أشد، وبما يعم بالخوف سكان البلاد الباردة والحارة
أشبهه، إذا كان المبالغة يريد.

والثلج قد يداوى به بعض المرضى، ويتولد فيه الدود،
وتخوضه الحوافرُ، والأظلاف، والأخفاف، والأقدام، بالليل
والنهار، في الأسفار.

وفي أيام الصيد يهون على من شرب خمسة أرطال نبيذ
أن يعدو عليه خمسة أشواط.

معارضة بعض المجوس في عذاب النار وقد عارضني
بعض المجوس وقال: فلعلَّ أيضاً صاحبكم إنما توعدَّ
أصحابه بالنار، لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَق، وإنما
هي ناحية الحرور والوهج والسَّموم، لأن ذلك المكروه
أزجر لهم، فرأي هذا المجوسي أنه قد عارضني فقلت
له: إن أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف،
وشدة البرد في الشتاء؛ لأنها بلاد صخور وجبال، والصخر

يقبل الحر والبرد ولذلك سمت الفرس بالفارسية،
العرب والأعراب: كَهَيَّان، والكَّه بالفارسية هو الجبل،
فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء
وحزَّها في الصيف، فانظر في أشعارهم، وكيف قَسَّموا
ذلك، وكيف وضعوه لتعرف أن الحالتين سواء عندهم
في الشدة.

القول في البرودة والثلج والبلاد ليس يشتد بردها عَلَى
كثرة الثلج، فقد تكون بلدة أبرد وثلجها أقل، والماء ليس
يجمد للبرد فقط، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر،
حكمتنا أن نصيبها من البرد أوفر.

وقد تكون الليلة باردة جداً، وتكون صَبْرَةً فلا يجمد
الماء، ويجمد فيما هو أقلُّ منها برداً، وقد يختلف جمود
الماء في الليلة ذات الريح، عَلَى خلاف ما يقدِّرون
ويظنون.

وقد خبرني من لا أرتاب بخبره، أنهم كانوا في موضعٍ

من الجبل، يستَغْشُونَ به بلبس المبطّانات، ومتى صبوا
ماءً في إناء زجاج، ووضعوه تحت السماء، جَمَدَ من
ساعته.

فليس جُمود الماء بالبرد فقط، ولا بد من شروطٍ
ومقادير، واختلافٍ جواهر، ومقابلات أحوال، كسرعة
البرد في بعض الأدهان، وإبطائه عن بعض وكاختلاف
عمله في الماء المغلّى، وفي الماء المتروك على حاله
وكاختلاف عمله في الماء والنيذ، وكما يعتري البؤل من
الخُثورة والجمود، على قدر طبائع الطعام والقلة.
والزّيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار، فيستحيل
من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحرّ.
رُدُّ آخر على المجوس وحجّة أخرى على المجوس، وذلك
أن محمداً صلى الله عليه وسلم، لو كان قال: لم أبعثُ
إلا إلى أهل مكة - لكان له متعلق من جهة هذه
المعارضة، فأما وأصل نبوّته، والذي عليه مخرجُ أمره

وابتداءً مبعثه إلى ساعة وفاته، أنه المبعوث إلى الأحمر
والأسود، وإلى الناس كافة، وقد قال الله تعالى: "قُلْ يَا
أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً" وقد قال تعالى:
"نَذِيرًا لِلْبَشَرِ" فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم
معارضة، وأن يُعَدَّ في باب الموازنة.

مما قيل في البرد ومما قالوا في البرد قول الكميت:

التفّ دون الفتاةِ ووَحْوَحَ ذُو الْقَرْوَةِ الْمُزْمِلُ
الصَّجِيعُ

القَيْنِقُ مع الرائحكِحدي أوائلها المرسلِ

وقال الكميت أيضاً في مثل ذلك:

وجاءت الريح من تلقاء وَصَنَّ من قِدره ذُو الْقِدرِ
مَغْرِبِهَا بِالْعُقْبِ

وكهكَّة المذْلِجِ المقرورِ واستدفاً الكلبِ في
المأسورِ ذِي الدَّئِبِ

وقال في مثله جِرَانُ الْعُودِ:

ومشبوح الأشاجِعِ أريجِ السَّمْعِ، كالقمرِ
المُتَنِيرِ

الناظرين إلى العِلَاتِ في الخلقِ

المعالي اليسيرِ

المجدُّ ينضحُ من يديُّفِعِ الْيَتِيمُ عن الجزورِ
وَأَلْجأتِ الْكَلابِ صَباً بليلاً نباحهنَّ إلى الهريرِ
جعلتُ فتاةً الحيِّ الهلاكِ من عَرَنِ الْقُدُورِ

تدنو

وقال في مثل ذلك ابن قميئة:

طعمي طعم الأنامل
قلص دُرُّ اللقاح في

الصنبر

ورأيت الإمام كالجعثنِ البيا
عكوفاً على
فرارة قدر

ورأيت الدخان
كالودع الأه
ينباع من وراء
الستر

حاضر شركم
وخيركم د
خروس من
الأرانب بكر

وقال في مثل ذلك:

العذارى بالدخان
تقنعت
واستعجلت نصب القدور
فملت

بأرزاق العيال
معالق
من قمع العشار
الجلّة

وقال الهذلي:

يصطلي بالفرت يختصُّ بالنقرى المثرين
جازرها
داعيا

ينبح الكلبُ فيها غير
واحدة
الشتاء ولا تسري
أفاعيا

وفي الجمد والبرد والأزمات يقول الكمي:

السنة الجمار يكون لم تعط درتها

الغضوب

وروّحت اللقاح مُبهلات
تُعطف على الربيع
التسلوب

السوف للفتيان
قوتاً
تعيش به وهيبت الرقوب

وفي هذه القصيدة يقول في شدة الحر:

وَحَزَقٌ تَعْرِفُ الْجِنَانُ فِلْأَفْئِدَةِ الْكَمَامَةِ لَهَا وَجِيبٌ
قَطَعَتْ ظِلَامَ لَيْلَتِهِ وَيَوْمًا حَصَى الْإِكَامَ بِهِ يَذُوبُ
وقال آخر لمعشوقته:

وَأَنْتِ الَّتِي كَلَفْتَنِي الْبُرُوءَ أوردتنيه فانظري أَيَّ
شَاتِيَا
فَمَا ظَنُّكَ بَبَرْدٍ يُؤَدِّي هَذَا الْعَاشِقُ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ شِدَّتَهُ
عِذْرًا لَهُ فِي تَرْكِهِ الْإِلْمَامَ بِهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ

القصيدة:

حَسَنَهَا إِذْ لَمْ أَعْجُ أَنْ فَشِيعِنَا إِلَى ضَحْوَةِ
لِي
فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَسِوَى ذِكْرِهَا كَالْقَابِضِ الْمَاءِ
وَبَيْنَهَا

ومما يقع في الباب قبل هذا، ولم نجد له باباً قول مسكين الدارمي:

لَا أَقُومُ عَلَى قِنَاتِي أَسْبُ النَّاسَ كَالْكَلْبِ
الْعُقُورِ
لَا أَحُلُّ بِبَطْنِ وَاٍ أَوْيَ إِلَى الْبَيْتِ الْقَصِيرِ
لَا أَحَاوِصُ عَقْدَ نَادٍ أَدْعُو دَعَائِي بِالصَّغِيرِ
وَلَسْتُ بِقَائِلٍ لِلْعَبْدِ أَوْ قَدْ أَوْقَدْتُ بِالْعُودِ الصَّغِيرِ
وَلَوْ تَأَمَّلْتَ دَخَانَ أُتُونِ وَاحِدٍ، مِنْ ابْتِدَائِهِ إِلَى انْقِضَائِهِ،

لرأيت فيه الأسود الفاحم، والأبيض الناصع.

والسواد والبياض، هما الغاية في المضاة، وذلك على

قدر البخار والرطوبات، وفيما بينهما ضروب من الألوان.
وكذلك الرماد، منه الأسود، ومنه الأبيض، ومنه الأصهب،
ومنه الخَصِيف، وذلك كله على قدر اختلاف حالات
المحترق وجواهره.

فهذا بعض ما قالوا في البرد.

بعض ما قيل في صفة الحر

وسنذكر بعض ما قالوا في صفة الحر، قال مضرس بن زُرارة بن لقيط:

تدلت عليها الشمس حتى الحر يرمى بالسكينة
كأنه نُورُها
سجوداً لدى الأُرطى كأنها صداغٌ أو قَوَالٍ
رؤوسها يَصُورها
وقال القطامي:

معرضاتٌ والحصو الرِيح ساكنةٌ والظللُ
رميضٌ معتدلُ
وردن رَكِيَّاتِ العُوبِرِ المُلأء من الكَتَّانِ
يشتعلُ

وقال الشماخ بن ضرار:

قُتودي فوق جأب الحقب لاحتُه الجداد
مطرِد الغوارز
طوى ظمأها في بيضة جرت في عِنان الشَّعْرَيْنِ
القيظ بعد ما الأماعُرُ

وظللت بيمؤودٍ كأن
عيونها
الشمس هلا تدنو، ركي
نواكز

ولهذه الأبيات كان الحطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم.

وقال الراعي:

وديقة في يوم هَبَّح
الشَّعْرَى نَصَبْتُ لَهَا
مَعْرَاءُ هَاجِرَةٌ أَوْ نَجْنَادُهَا
وكان العيسُ جُونَا

وقال مسكينُ الدارمي:

وهاجرةٍ ظَلَّتْ كَأَنَّ
ظبَاءَهَا
ما أَتَّقَتْهَا بِالْقُرُونِ
سَجُودٌ
لشُّبُوبٍ مِنَ الشَّمْسِ لَادًا مِنْ حَرِّ السَّنَانِ
طَرِيدٌ
فوقها

وقال جرير:

وهاجدٍ موماةٍ بعثتُ إلى النومِ أحلى عنده من
السُّرَى
يكون نزولُ الركب فيها شاشاً ولا يدنون رحلاً إلى
وَلَا
أنتِ دون الظلالِ وظلَّ المها صوراً جماجمها
سمومه

وفيها يقول جرير:

رجال من تميمٍ لي زاد عن أحسابهم ذائدٌ
الرّدى

احتجاج النظام للكمون

وقال أبو إسحاق: أخطأ من زعم أن النار تصعدُ في أول

العود، وتنحدر وتغوص فيه، وتظهر عليه، وتأخذ منه

عَرَضًا.

وقال: العود، النار في جميعه كامنة، وفيه سائحة، وهي أحد أخلاطه، والجزء الذي يُرى منها في الطرف الأول، غير الجزء الذي في الوسط والجزء الذي في الوسط غير الجزء الذي في الطرف الآخر، فإذا احتكَّ الطرف فحمي زال مانعه، وظهرت النار التي فيه، وإذا ظهرت حمي لشدة حرها الموضع الذي يليها، وتنحى أيضاً مانعه، وكذلك الذي في الطرف الآخر ولكن الإنسان إذا رأى النار قد اتصلت في العود كله، وظهرت أولاً فأولاً، ظن أن الجزء الذي كان في المكان الأول قد سترى إلى المكان الثاني، ثم إلى المكان الثالث، فيخبر عن ظاهر ما يرى ولا يعرف حقيقة ما بطن من شأنها. وقال أبو إسحاق: ولو كانت العيدان كلها لا نار فيها، لم يكن سرعة ظهورها من العراجين، ومن المَرخِ والعَفارِ، أحقَّ منها بعودِ العُنَابِ والبرديِّ وما أشبه ذلك، لكنها لما كانت في بعض العيدان

أكثر، وكان مانعها أضعفَ، كان ظهورها أسرع، وأجزاؤها
إذا ظهرت أعظمَ، وكذلك ما كَمَنَ منها في الحجارة، ولو
كانت أجناس الحجارة مستوية في الاستسرار فيها، لما
كان حَجْرُ المَزْوِ أحقَّ بالقَدْحِ إذا صُكَّ بالقَدَّاحَةِ، من غيره
من الحجارة، ولو طال مُكُتُّه في النار وُفِخَ عليه بالكبير.
ولم صار لبعض العيدان جَمْرٌ باقٍ، وبعضها جمر سريع
الانحلال، وبعضها لا يصير جمرًا؟ ولم صار البَرْدِيُّ مع
هَشَاشَتِهِ وَيَبَسِهِ ورخاوته، لا تعمل فيه النيران؟ ولذلك إذا
وقع الحريق في السُّوقِ سَلِمَ كل مكان يكون بين أضعاف
البردي، ولذلك ترى النار سريعة الانطفاء في أضعاف
البرديِّ، ومواضعِ جميع اللَّيْفِ.

وقال أبو اسحاق: فِيمَ اِخْتَلَفَتْ في ذلك؟ إلا على قدر ما
يكونُ فيها من النار، وَعَلَى قدر قوة الموانع وضعفها.
ولم صارت تقدح عَلَى الاحتكاك حتى تلهبت، كالساج في
السفن إذا اختلط بعضه ببعض عند تحريك الأمواج لها؟

ولذلك أعدُّوا لها الرجال لتَصُبَّ من الماء صَبًّا دائماً،
وتدوِّم الريح فتحتك عيدان الأغصان في الغياض، فتلتهب
نار فتحدثُ نيران.

ولِمَ صار العود يحمى إذا احتكَّ بغيره؟ ولمَ صار الطَّلَقُ لا
يحمى؟ فإن قلت لطبيعة هناك، فهل دللتمونا إلا عَلَى
اسم عَلَّقْتُمُوهُ عَلَى غير معنَى وجدتموه؟ أو لسننا قد
وجدنا عيون ماءٍ حارة وعيون ماءٍ بارد، بعضها يبرص
ويُنْفَط الجلد، وبعضها يُجَمِّدُ الدَّم ويورث الكُرَّاز؛ أولسنا
قد وجدنا عيون ريح وعيون نار؟ فليَمَ زعمتم أن الريحَ
والماء كانا مختنقين في بطون الأرض و لم تجوِّزوا لنا
مثل ذلك في النار؟ وهل بين اختناق الريح والماء فرق؟
وهل الريح إلا هواءٌ تحرَّكَ؟ وهل بين المختنق والكامن
فرق؟.

وزعم أبو إسحاق: أنه رمى بردائه في بئر النبي صلى الله
عليه وسلم التي من طريق مكة، فردَّته الريح عليه.

وحدَّثني رجل من بني هاشم قال: كنت بِرَامَةَ، من طريق مكة فرميت في بئرها ببكرة فرجعت إليَّ، ثم أعدتها فرجعتُ، فرميت بحصاة فسمعتُ لها حريقاً وحفيفاً شديداً وشبيهاً بالجولان، إلى أن بلغتُ قرار الماء.

وزعم أبو إسحاق أنه رأى عين نار في بعض الجبال، يكون دخانها نهاراً وليلاً، أو ليس الأصل الذي بُني عليه أمرهم: أن جميع الأبدان من الأخلاط الأربعة: من النار، والماء، والأرض، والهواء؟ فإذا رأينا موضعاً من الأرض يخرج منه ماءً قلنا: هذا أحدُ الأركان؛ فما بالنا إذا رأينا موضعاً من الأرض يخرج منه نازٌ لم نقل مثل ذلك فيه؟.

ولم نقولُ في حجرِ النار إنه متى وُجد أخف من مقدار جسمه من الذهب والرصاص والزئبق، إنما هو لما خالطه من أجزاء الهواء الرَّافعة له؟ وإذا وجدناه أُغْلِكَ عُلوكة، وأمَّتَنَ متانة، وأبعد من التهاقِ جعلنا ذلك لما خالطه من أجزاء الماء، وإذا وجدناه ينقض الشرر، ويُظهرُ النار جعلنا

لك للذي خالطه من الهواء؟ ولم جعلناه إذا خف عن شيء بمقدار جسمه، لما خالطه من أجزاء الهواء، ولا نجعله كذلك لما خالطه من أجزاء النار؟ ولا سيما إذا كانت العين تجده يقدح بالشرر، ولم تجر أجزاء الهواء فيه عندنا عياناً، فلم أنكروا ذلك، وهذه القصة توافق الأصل الذي بتوا عليه أمرهم؟.

قال: أو ليس من قوله أنه لولا النيران المتحركة في جوف الأرض، التي منها يكون البخار - الذي بعضه أرضي وبعضه مائي - لم يرتفع ضباب، ولم يكن صواعق ولا مطر ولا أنداء.

الصواعق وما قيل فيها

ومتى كان البخار حاراً يابساً قدح وقدف بالنار التي تسمى الصاعقة، إذا اجتمعت تلك القوى في موضع منه، فإن كانت القوى ريحاً كان لها صوت، وإن كانت ناراً كانت لها صواعق، حتى زعم كثير من الناس أن بعض السيوف من خبث نيران الصواعق، وذلك شائع على أفواه الأعراب والشعراء، قال أبو الهول الجُميري:

صمصامة الزبيدي من

جميع الأنام موسى
الأمينُ
سيفُ عمرو، وكان فيما ما أطبقت عليه
سَمَعْنَا الجفونُ
أوفدت فوقه ساطت به
لاصواعقُ ناراً الزعاف المنون
وقال منهم آخر:

يكفيك من قَلَعِ السماء
عقيقةُ
الدَّرَاعِ ودون بَوَعِ

قال الأصمعيّ: الانعقاد: تشقُّق البرق، ومنه وصف السيف بالعقيقة، وأنشد:

وسيفي كالعقيقة وهو كَمَعِي

وقال الأخطل:

وأرَّقني من بعد ما نِمْتُ وَعَصْبُ إباضي كالعقيق
يَمَانِي

ونذكرُ بَعُونَ اللَّهِ وتأييده جُمْلَةً مِنَ القَوْلِ فِي المَاءِ ثُمَّ

نصير إلى ذكر ما ابتدأنا به، من القول في النار.

ذكروا أن الماء لا يغذو، وإنما هو مَرَكَبٌ وَمِعْبَرٌ وَمَوْصِلٌ

للغذاء، واستدلُّوا لذلك بأن كلَّ رقيق سَيَّالٍ فإنك متى

طَبَخْتَهُ انعقد، إلا الماء، وقالوا في القياس: إنه لا ينعقد

في الجوف عند طبخ الكيد له، فإذا لم ينعقد لم يجر منه

لحمٌ ولا عظم، ولأننا لم نر إنساناً قطُّ اغتذاه وثبت عليه

روحه وإن السمك الذي يموت عند فقدِه لَيَعْدُوهُ سِوَاهُ
مما يكون فيه دونه.

قال خصمهم: إنما صار الماء لا ينعقد؛ لأنه ليس فيه قُوَى
مستفادَةٌ مأخوذة من قُوَى الجواهرِ، والماء هو الجوهرُ
القابلُ لجميعِ القُوَى، فبضربٍ من القُوَى والقبولِ يصير
دُهْنًا، وبضربٍ آخرِ يصيرُ خَلًّا، وبضربٍ آخرِ يصيرُ دَمًا،
وبضربٍ آخرِ يصيرُ لَبَنًا، وهذه الأمور كلها إنما اختلفت
بالقُوَى العارضة فيها، فالجوهرُ المنقلبُ في جميعِ الأجرامِ
السِّيَالَةِ، إنما هو الماء، فيصيرُ عند ضربٍ من القبولِ دُهْنًا،
وعند ضربٍ من القبولِ لَبَنًا.

وعصير كل شيء ماؤه والقابلُ لِقُوَى ما فيه، فإذا طبخت
الماء صِرْفًا، سالمًا على وجهه، ولا قُوَى فيه، لم ينعقد
وانحلَّ بُخَارًا حتى يتفانى؛ وإنما ينعقد الكامن من
الملابس له، فإذا صار الماء في البدنِ وحده ولم يكن فيه
قُوَى لم ينعقد، وانعقاده إنما هو انعقاد ما فيه.

والماء لا يخلو من بعض القَبُول ولكنَّ البعض لا ينعقد ما لم يكثر.

وزعم أصحاب الأعراض أن الهواء سريعُ الاستحالة إلى الماء، وكذلك الماء إلى الهواء، للمناسبة التي بينهما من الرطوبة والرقّة، وإنما هما غير سيَّارين، ويدل على ذلك اجتذابُ الهواء للماء وملابسته له، عند مَصِّ الإنسان بفيه فم الشَّرابة، ولذلك سَرَى الماء وجرى في جوف قَصَبِ الخيْزَرانِ، إذا وضَعْتَ طرفه في الماء.

وكذلك الهواء، فيه ظلامُ الليل وضياء النهار وما كان فيه من الأشباح، والحدّقة لا ترى من الضياء العارض في الهواء ما تباعد منها.

ألوان الماء

والماء يرقُّ فيكون له لون، ويكون عمقه مقداراً عَدَلًا فيكون له لون، فإنْ بعد عَوُزُه وأفرط عمقه رأيتَه أسودًا.

وكذلك يحكون عن الدُّرْدُورِ.

ويزعمون أن عين حوارا ترمى بمثل الزنوج.

فتجد الماء جنساً واحداً، ثم تجد ذلك الجنس أبيض إذا قلَّ عمقه، وأخضَرَ إذا كان وسطاً، وأسودَ إذا بُعدَ عَوْرُهُ.

تحقيق في لون الماء ويختلف منظره على قدر اختلاف

إنائه وأرضه، وما يقابله، فدلَّ ذلك على أنه ليس بذي

لون، وإنما يعتريه في التخيل لونٌ ما يقابله ويحيط به،

ولعلَّ هذه الأمور إذا تقابلت أن تصنع في العين أموراً،

فيظنَّ الإنسان مع قُرب المجاورة والالتباس، أن هذه

الألوان المختلفة إنما هي لهذا الماء الرائق الخالص، الذي

لم ينقلب في نفسه، ولا عَرَضَ له ما يقُلبه، وكيف يعرض

له ويقلبه وعينٌ كل واحد منهما غيرُ عينِ صاحبه؟ وهو

يرى الماء أسودَ كالبحر، متى أخذ منه أحدُ عُرفه رآه

كهَيْئته إذا رآه قليل العُمق.

تشابه الماء والهواء ويتشابهان أيضاً لسُرعة قبولهما للحر

والبرد، والطَّيِّبُ والتَّنُّ؛ والفساد والصلاح.

حجة للنظام في الكمون قال أبو إسحاق: قال الله عزَّ وجلَّ عند ذكر إنعامه على عباده وامتنانه على خلقه، فذكر ما أعانهم به من الماعون: "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ"، وكيف قال شَجَرَتَهَا وليس في تلك الشجرة شيء، وجوفها وجوفُ الطَّلَقِ في ذلك سواء، وقدرة الله على أن يخلق النار عند مسِّ الطَّلَقِ، كقدرته على أن يخلقها عند حَكِّ العود وهو، تعالى وعز، لم يُرد في هذا الموضع إلا التعجيب من اجتماع النار والماء.

وهل بين قولكم في ذلك وبين من زعم أن البذر الجيِّد والرديء والماء العذب والملح، والسَّبَّخَةُ والخِيرَةُ الرَّخْوَةُ، والزمان المخالف والموافق، سواءً، وليس بينها من الفرق إلا أن الله شاء أن يخلق عند اجتماع هذه "حَبًّا، وَعِنْبًا وَقَصْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا" دون تلك الأضداد.

ومن قال بذلك وقاسه في جميع ما يلزم من ذلك، قال
كقول الجَهْمِيَّةِ في جميع المقالات، وصار إلى الجهالات،
وقال بإنكار الطبائع والحقائق.

وقال الله عز وجل: "الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ
تَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ".

ولو كان الأمر في ذلك على أن يخلقها ابتداءً لم يكن بين
خلقها عند أخضر الشجر وعند اليابس الهشيم فرق، ولم
يكن لذكر الخَصْرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الرطوبةِ مَعْنَى.

وقد ذكرنا جملةً من قولهم في النار، وفي ذلك بلاغ لمن
أراد معرفة هذا الباب، وهو مقدارُ قصدٍ، لا طویل ولا
قصير.

فأما القولُ في نار جهنم، وفي شواظها ودوامها وتسعُّرها
وخبوُّها والقول في خلق السماء من دُخَانٍ والجَانِّ من نار
السُّموم، وفي مَفْخَرِ النار على الطين، وفي احتجاج

إبليس بذلك - فإننا سنذكر من ذلك جملة في موضعه إن شاء الله تعالى.

ما قيل في حسن النار

ونحن راجعون في القول في النار إلى مثل ما كنا ابتدأنا به القول في صدر هذا الكلام، حتى تأتي من أصناف النيران على ما يحضرنا، إن شاء الله تعالى.

قالوا: وليس في العالم جسمٌ صِرْفٌ غير ممزوج، ومرسلٌ غير مركب، ومُطلق القُوَى، غير محصور ولا مقصور، أحسنٌ من النار.

قال: والنار سماوية غُلُوبية؛ لأن النار فوق الأرض، والهواء فوق الماء، والنار فوق الهواء، ويقولون: شراب كأنه النار، و كأن لونَ وجهها النار، وإذا وصفوا بالذكاء قالوا: ما هو إلا نار وإذا وصفوا حمرة القرمز وحمرة الذهب قالوا: ما هو إلا نار.

قال: وقالت هند: كنتُ والله في أيام شبابي أحسنَ من النار الموقَّدة.

وأنا أقول: لم يكن بها حاجةٌ إلى ذكر الموقَّدة وكان قولها: أحسنَ من النار يكفيها، وكذلك اتهمتُ هذه الرواية.

وقال قُدَّامة حكيم المشرق في وصف الدَّهن: شُعاعٌ مركوم، وتَسَمُّ معقود، ونورٌ بصَّاص، وهو النار الخامدة، والكبيريت الأحمر.

ومما قال العنَّابي: وجمالُ كل مجلسٍ بأن يكون سَقْفُهُ أحمر، وبساطُهُ أحمر.

وقال بشر بن بُرد:

هَجَانٌ عَلَيْهَا حُمْرَةٌ فِي تَرُوقِ بِهَا الْعَيْنَيْنِ وَالْحَسَنُ
بِأَضْحَاهَا
وقال أعرابي:

هَجَانٌ عَلَيْهَا حُمْرَةٌ فِي لَوْنِ أَدْنَى لِلْهَجَانِ مِنْ
بِأَضْحَاهَا
الْحُمْرِ

تعظيم الله شأن النار

قال: ومما عظم الله به شأن النار أنها تنتقم في الآخرة من جميع أعدائه، وليس يستوجبها بَشْرِيٌّ مِنْ بَشْرِيٍّ، ولا جَنِيٌّ مِنْ جَنِيٍّ بضعين ولا ظلمٍ ولا جنايةٍ ولا عُذْوَانٍ، ولا يَسْتَوْجِبُ النَّارَ إلا بعداوة الله عزَّ وجلَّ وحده، وبها يَنْشَفِي صدور أوليائه من أعدائهم في الآخرة. عظم شأن ما أضيف إلى الله وكل شيء أضافه الله إلى نفسه فقد عظم شأنه، وشدَّد أمره، وقد قَعَلَ ذلك بالنار، فقالوا بأجمعهم: دَعُهُ فِي نَارِ اللَّهِ وَسَقَرِهِ، وفي غضب الله ولعنته، وَسَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ، هما ناره أو الوعيدُ بناره، كما يقال: بيثُ الله، وِرْوَارِ اللَّهِ، وسَمَاءُ اللَّهِ، وعرشُ الله.

المنة الأولى بالنار ثم ذكرها فأمَّتَنَ بها على أهل الأرض من وجهين: أحدهما قوله عزَّ وجلَّ: "الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ" فَجَعَلَهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَاعُونِ معونة، وأخفها مؤونة.

استطرد لغوي والماعون الأكبر: الماء والنار، ثم الكَلَأُ والملح.

قال الشاعر في الماعون بيتاً جامعاً، أحسن فيه التأييد حيث قال:

تَعْدِلَنَّ أَتَاوِيَيْنَ قَدْ نَزَلُوا
وَسَطَ الْقَلَاةِ بِأَصْحَابِ
الْمَجَلَّاتِ

والمَجَلَّات هي الأشياء التي إذا كانت مع المسافرين

حَلَّوْا حَيْثُ شَاؤُوا، وهي القَدَّاحَة، والقِرْبَة، والمِسْحَاة،

فقال: إِيَاكَ أَنْ تَعْدِلَ، إذا أردت النزولَ، مَنْ مَعَهُ أَصْنَافُ

الْمَاعُونِ بِأَتَاوِيَيْنَ، يعني واحداً أتى مِنْ هَاهُنَا، وآخر أتى

مِنْ هَاهُنَا، كأنهم جماعة التقوا من غير تعريف بنسب ولا

بلد، وإذا تجمعوا أفذاذاً لم يكمل كل واحدٍ منهم خصال
المجَلَّاتِ.

قال أبو النجم:

يَصَّعَنَ بِالْفَقْرِ أَتَاوِيَّاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ غَيْرَ عُرْضِيَّاتٍ
وقالت امرأة من الكفار، وهي تحرّض الأوس والخزرج، حين نزل فيهم النبي صلّى الله عليه
وسلم وعلى آله وصحبه:

أَطْعُمْتُمْ أَتَاوِيَّيَّ مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ مُرَادٍ وَلَا مَدْحِجٍ
ولم تردّ أنهما أشرف من قريش، ومن الحيين كعب
وعامر، ولكنها أرادت أن تؤلّب وتذكّي العصبية.

اختيار ما تبني عليه المدن وقالوا: لا تُبَنِّيَ المدن إلا على
الماء والكلأ والمحتطب، فدخلت النار في المحتطب؛ إذ
كان كلُّ عود يورِي.

المنة الثانية بالنار وأما الوجه الآخر من الإمتنان بها،
فكقوله تعالى: "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا
تَنْتَصِرَانِ" ثم قال على صلة الكلام: "فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تَكْذِبَانِ"، وليس يريد أن إحراق الله عز وجلّ العبد بالنار
من آلائه ونعمائه، ولكنه رأى أن الوعيد الصادق إذا كان

في غاية الزجر عما يُطغيه ويُزديه فهو من النعم السابغة
والآلاء العظام.

وكذلك نقول في خلقِ جهنم: إنها نعمة عظيمة، ومِنَّةٌ
جلیلةٌ، إذا كان زاجراً عن نفسه ناهياً، وإلى الجنة داعياً،
فأما الوقوع فيها فما يُشكُّ أنه البلاءُ العظيم.

وكيف تكونُ النقمُ نِعماً ولو كانت النعمة نعمةً لكانت
رحمةً، ولكان السُّخط رضا وليس يَهْلِكُ عَلَى البينة إلا
هالكٌ، وقال الله عزَّ وجلَّ: "لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ
وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ".

عظمت للحسن البصري وقال الحسن: والله يا ابن آدم،
ما توبُّقك إلا خطاياك قد أريد بك النجاة فأبيت إلا أن توقعَ
نفسك.

وشهد الحسنُ بعضَ الأمراء، وقد تعدَّى إقامة الحدِّ، وزاد
في عددِ الضرب، فكلمه في ذلك، فلما رآه لا يقبلُ النصح
قال: أما إنك لا تضربُ إلا نفسك، فإن شئتَ فقلِّلْ، وإن

شئت فَكثُر.

وكان كثيراً ما يتلو عند ذلك: "فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ".
عقاب الآخرة وعقاب الأولى والعقاب عقابان: فعقاب
آخرة، وعقابُ دنيا، فجميعُ عقاب الدنيا بِلِيَّةٍ مِنْ وَجْهِ،
ونعمةٌ من وَجْهِ، إذ كان يُؤدِّي إلى النعمة وإن كان مؤلماً،
فهو عن المعاصي زاجرٌ، وإن كان داخلاً في باب الامتحان
والتعبد، مع دخوله في باب العقاب والنعمة؛ إذ كان زجراً،
وتنكيلاً لغيره، وقد كَلَّفْنَا الصبرَ عليه، والرضا به، والتسليم
لأمر الله فيه.

وعقاب الآخرة بلاءٌ صِرْفٌ، وخزيٌّ بَحْتٌ، لأنه ليس بِمُخْرَجٍ
منه، ولا يحتملُ وجهين.

معارف في النار

وقال أبو إسحاق: الجمرُ في الشمس أصهب، وفي
الغيء أشكلُ، وفي ظلِّ الأرض - الذي هو الليل - أحمر،

وأبى صوتٍ خالطته النار فهو أشد الأصوات، كالصاعقة،
والإعصار الذي يخرج من شقِّ البحر، وكصوت الموم،
والجدوة من العود إذا كان في طرفه ناز ثم غمسته في
إناء فيه ماء توى مُنقع.

ثم بالنار يعيش أهل الأرض من وجوه: فمن ذلك صنيعُ
الشمس في برد الماء والأرض؛ لأنها صلاء جميع الحيوان،
عند حاجتها إلى دفع عادية البرد، ثم سراجهم الذي
يستصبحون به، والذي يميزون بضياؤه بين الأمور.
وكلُّ بخار يرتفع من البحار والمياه وأصول الجبال، وكل
ضباب يعلو، وندى يرتفع ثم يعود بركة ممدودة على جميع
النبات والحيوان - فالماء الذي يحلُّه ويلطّفه، ويفتح له
الأبواب، ويأخذ بصبّعه من قعر البحر والأرض النار
المخالطة لهما من تحت، والشمس من فوق.

عيون الأرض وفي الأرض عيون نار، وعيون قطران،
وعيون نَقط وكباريت وأصناف جميع الفلز من الذهب

والفضة والرصاص والنجاس، فلولا ما في بطونها من
أجزاء النار لما ذاب في قعرها جامدٌ، ولما انسبك في
أضعافها شيءٌ من الجواهر، ولما كان لمتقاربها جامع،
ولمختلفها مفرق.

ما قالت العرب في الشمس

قال: وتقول العرب الشمسُ أرخمُ بنا.
وقيل لبعض العرب: أيُّ يوم أنفع؟ قال: يومُ شمالِ وشمس.
وقال بعضهم لامرأته:

تَمَيَّنَ الطَّلَاقَ وَأَنْتِ عِنْدِي مِثْلُ مَشْرِقَةِ
الشَّمَالِ

وقال عُمر: الشمسُ صلاءُ العرب، قال عُمر: العربيُّ كالبعير، حيثما دارت الشمسُ استقبلها
بها مته.

ووصف الراجز إبلاً فقال:

تستقبل الشمسَ بجموماتها

وقال قطران العبسي:

بمستأسد القزيانِ حُوٌّ فَنُوَّارُهُ مِيلٌ إِلَى الشَّمْسِ
تِلَاعُهُ زَاهِرُهُ

الخيريُّ والخيريُّ ينضم ورقه بالليل، وينفتح بالنهار.

ولإسماعيل بن غزوان في هذا نادرة، وهو أن سائلاً سألنا

من غير أهل الكلام، فقال: ما بالُ ورق الخيريِّ ينضم

بالليل وينتشرُ بالنهار؟ فانبَرى له إسماعيل بنُ عَزْوان
فقال: لأن بردَ الليل وثِقَلَه، من طباعهما الضمُّ والقبض
والتنويم، وحرُّ شمس النهار من طباعه الإذابة، والنشر،
والبسط، والخفَّة، والإيقاظ، قال السائل: فيما قلت دليلٌ،
ولكنه قال إسماعيل: وما عليك أن يكون هذا في يدك،
إلى أن تصيبَ شيئاً هو خيرٌ منه.

تسرع الحمر الألوان، وفالج ذوي البدانة وكان إسماعيل
أحمرَ حليماً، وكذلك كان الحراميّ، وكنت أظن بالاحمر
الألوانِ التسرعَ والحدَّة، فوجدت الحلمَ فيهم أعمّ، وكنت
أظن بالسمان الخدالِ العظامِ أن الفالجَ إليهم أسرعُ،
فوجدته في الذين يُخالفون هذه الصِّفةَ أعمّ.

أثر الشمس والحركة والجوُّ في الأبدان وقال إياسُ بن
معاوية: صِحَّة الأبدان مع الشمس، ذهب إلى أهل العمَد
والوبر.

وقال مثنى بن بشير: الحركة خيرٌ من الظل والسُّكون.

وقد رأينا لمن مدح خلاف ذلك كَلَاماً، وهو قليل.

وقيل لابنة الخسِّ: أَيُّمَا أَشَدُّ: الشتاء أم الصيف؟ قالت:

ومن يجعل الأذى كالزمانة؟.

وقال أعرابيٌّ: لا تَسُبُّوا الشَّمالَ فإنها تَضَعُ أنفَ الأفعى،

وترفع أنف الرِّفقة.

وقال خاقانُ بن صبيح، وذكر نُبْلَ الشتاء وفضله عَلى نُبْلِ

الصيف فقال: تغيب فيه الهوام، وتنجر فيه الحشرات،

وتظهر الفِرْشَةَ والبرَّةُ، ويكثر فيه الدَّجَنُ؛ وتطيب فيه

خَمرة البيت، ويموت فيه الدُّبان والبَعوض، ويبزُد الماء،

ويسخُن الجوفُ، ويطيبُ فيه العِناق.

وإذا ذكرت العربُ بَرَدَ الماءِ وسخونة الجوفِ قالت: حِرَّةٌ

تحت قِرَّة.

ويجود فيه الاستمراء؛ لطول الليل، لتَفْصِي الحَرِّ.

وقال بعضهم: لا تُسَرِّنَّ بكثرة الإخوان، ما لم يكونوا

أخياراً؛ فإن الإخوان غير الخيار بمنزلة النار، قليلها متاعٌ،
وكثيرها بوار.

نار الزحفتين

قال: ومن النيران نار الزحفتين، وهي نار أبي سريع، وأبو
سريع هو العرفج.

وقال قتيبة بن مسلم، لعمر بن عبّاد بن حصين: والله
للسؤدّد أسرع إليك من النار في يبيس العرفج.

وإنما قيل لنار العرفج: نار الزحفتين؛ لأن العرفج إذا
التهبت فيه النار أسرع فيه وعظمت، وشاعت
واستفاضت، في أسرع من كل شيء، فمن كان في قُربها
يزحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها، في مثل
تلك السرعة؛ فيحتاج الذي يزحف عنها أن يزحف إليها من
ساعته؛ فلا تزال للمصطلي كذلك، ولا يزال المصطلي بها
كذلك، فمن أجل ذلك قيل: نار الزحفتين، قال: وقيل

لبعض الأعراب: ما بالُ نساءكم رُسِحاً؟ قال: أُرْسِحُهُنَّ
عَرَفَجُ الْهَلْبَاءِ.

صورة عقد بين الراعي والمسترعي وهذا شرط الراعي
فيما بينه وبين من استرعاه ماشيته في القارّ والحارّ ،
وذلك أن شرطهم عليه أن يقول المسترعي للراعي: إن
عليك أن تردّ ضالّتها، وتهنأ جزباها، وتلوط حوضها، ويدك
مبسوطه في الرّسل ما لم تُنْهَكَ حَلْباً، أو تضرّ بنسّل.
قال: فيقول عند ذلك الراعي لرب الماشية، بعد هذا
الشرط: ليس لك أن تذكّر أمّي بخيرٍ ولا شرٍّ ولك حدّفةٌ
بالعصا عند غضبيك، أخطأت أو أصبت، ولي مقعدي من
النار وموضعُ يدي من الحارّ والقارّ.

شبه ما بين النار والإنسان

قال: ووصف بعض الأوائل شبه ما بين النار والإنسان،
فجعل ذلك قرابة ومشاكلة، قال: وليس بين الأرض وبين

الإنسان، ولا بين الإنسان، والماء، ولا بين الهواء
والإنسان، مثل قرابة ما بينه وبين النار؛ لأن الأرض إنما
هي أمُّ للنبات، وليس للماء إلا أنه مَرْكَبٌ، وهو لا يَغْدُو؛ إِلَّا
ما يَعْقِدُهُ الطبخ وليس للهواء فيه إلا النسيم والمنتَلَب،
وهذه الأمور وإن كانت زائدة، وكانت النفوسُ تَتَلَفُ مع
فَقْدِ بعضها، فطريق المشاكلةِ والقرابةِ غير طريق إدخال
المَرْقِقِ وَجَرِّ المنفعة، ودفعِ المَصْرَّةِ.

قال: وإنما قضيتُ لها بالقرابة، لأنني وجدت الإنسان يَحْيَا
ويعيشُ في حيثُ تحيا النار وتعيشُ، وتموتُ وتَتَلَفُ حيث
يموت الإنسان ويتلف.

وقد تدخل نار في بعض المطامير والجبابِ، والمغاراتِ،
والمعادن، فتجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى
صار في ذلك الموضعِ مات، ولذلك لا يدخلها أحدٌ ما دامت
النار إذا صارتُ فيها ماتت، ولذلك يعمد أصحاب المعادن
والحفائيرِ إذا هجموا على فَنَقِ في بطن الأرض أو مغارة

في أعماقها أو أضعافها، قدّموا شمعةً في طرفها أو في رأسها نازٍ، فإن ثبتت النار وعاشت دخلوا في طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك، وإلا لم يتعرّضوا له، وإنما يكون دخولهم بحياة النار، وامتناعهم بموت النار. وكذلك إذا وقعوا على رأس الجُبِّ الذي فيه الطعام، لم يجسّروا على النزول فيه، حتى يُرسلوا في ذلك الجُبِّ قنديلاً فيه مصباحٌ أو شيئاً يقوم مقامَ القنديل، فإن مات لم يتعرّضوا له، وحرّكوا في جوفه أكسية وغيرها من أجزاء الهواء.

قال: وممّا يُشَبَّه النارُ فيه بالإنسان، أنك ترى للمصباح قبل انطفائه ونفاذِ دهنه، اضطراباً وضياءً ساطعاً، وشُعاعاً طائراً، وحركة سريعةً وتنقضاءً شديداً، وصوتاً متداركاً، فعندها يخمُدُ المصباح.

وكذلك الإنسان، له قبلَ حالِ الموتِ، ودُويَنَ انقضاءِ مُدَّتِه بأقرب الحالات، حال مُطمِعةٌ تزيد في القوة على حاله

قَبَلَ ذَلِكَ أضعافاً، وهي التي يسمونها راحة الموت، وليس له بعد تلك الحال بُث.

قول أحد المتكلمين في النفس وكان رئيساً من المتكلمين، وأحد الجلة المتقدمين، يقول في النفس قولاً بليغاً عجيباً، لولا شُعبته لأظهَرْتُ اسمه، وكان يقول:

الهواء اسم لكل فتق، وكذلك الحيز، والفتق لا يكون إلا بين الأجرام الغلاظ، وإلا فإنما هو الذي يسميه أصحاب القلِّ اللُّجِّ، وإذا هم سألوهم عن حُصرة الماء قالوا: هذا لُجُّ الهواء، وقالوا: لولا أنك في ذلك المكان لرأيت في اللُّجِّ الذي فوق ذلك مثل هذه الخضرة، وليس شيء إلا وهو أرقُّ من كَتيفه أو من الأجرام الحاصرة له، وهو اسمٌ لكل متحرِّكٍ ومُتقلِّبٍ لكل شيء فيه من الأجرام المركبة، ولا يستقيم أن يكون من جنس النسيم، حتى يكون محصوراً، إما بحصر كَتيفيِّ كالسفينة لما فيها من الهواء الذي به حَمَلَتْ مثلَ وزنِ جِرمها الأضعاف الكثيرة، وإما

أن يكون محصوراً في شيء كهيئة البيضة المشتملة على ما فيها، كالذي يقولون في القَلِكِ الذي هو عندنا: سماء. قال: وللنسيم الذي هو فيه معنى آخر، وهو الذي يجعله بعضُ الناس ترويحاً عن النفس، يعطيها البرَدَ والرِّقَّةَ والطَّيْبَ، ويدفعُ النَّفْسَ، ويُخرجُ إليه البخارَ والغَلظَ، والحراراتِ الفاضلة، وكلُّ ما لا تقوى النَّفْسُ على نفيه واطِّرادِهِ.

قال: وليس الأمر كذلك، بل أزعُمُ أنَّ النفس من جنس النسيم وهذه النفسُ القائمة في الهواء المحصور، عرضُ لهذه النفسِ المتفرِّقة في أجرام جميع الحيوان، وهذه الأجزاء التي في هذه الأبدان، هي من النسيم في موضع الشعاع والأكتاف، والفروع التي تكون من الأصول. قال: وضياء النفس كضياء دخلَ من كَوَّة فلما سُدَّت الكَوَّة انقطع بالطُّفْرة إلى عنصره من قُرْص الشمس وشُعاعها المشرِقِ فيها، ولم يُقِم في البيت مع خلاف

شكله من الجُروم، ومتى عَمَّ السَّدُّ لم تُقِمِ النَّفْسُ فِي
الجِرمِ فوقَ لا.

وَحَكْمُ النَّفْسِ عِنْدَ السَّدِّ - إِذْ كُنَّا لَا نَجِدُهَا بَعْدَ ذَلِكَ -

كحِكمِ الضِّيَاءِ بَعْدَ السَّدِّ، إِذْ كُنَّا لَا نَجِدُهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

فَالنَّفْسُ مِنْ جِنْسِ النَّسِيمِ، وَبِفَسَادِهِ تَفْسُدُ الْأَبْدَانُ،

وَبصِلَاحِهِ تَصْلُحُ، وَكَانَ يَعْتمِدُ عَلَى أَنَّ الهَوَاءَ نَفْسَهُ هُوَ

النَّفْسُ وَالنَّسِيمِ، وَأَنَّ الحَرَّ وَاللِدُونَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ

الخِلافِ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ الفِسادِ العَارِضِ.

قِيلَ لَهُ: فَقَدْ يَفْسُدُ المَاءُ فَتَفْسُدُ الأَجْرَامُ مِنَ الحَيَوَانِ

بِفِسادِهِ، وَيَصْلُحُ فَتَصْلِحُ بِصِلَاحِهِ، وَتَمَنَعُ المَاءُ وَهِيَ تَنَازَعُ

إِلَيْهِ فَلَا تَحُلُّ بَعْدَ المَنَازَعَةِ إِذَا تَمَّ المَنَعُ، وَتَوَصَّلُ بِجِرمِ

المَاءِ فَتَقِيمُ فِي مَكَانِهَا، فَلَعَلَّ النَّفْسَ عِنْدَ بُطْلَانِهَا فِي

جِسمِهَا قَدْ انْقَطَعَتْ إِلَى عُنْصَرِ المَاءِ بِالطَّفَرَةِ.

وَبَعْدُ فَمَا عَلَّمَكَ؟ لَعَلَّ الخِنقَ هَيَّجَ عَلَى النَّفْسِ أُضْدَاداً لَهَا

كثيرةً، غَمَرَتْهَا حَتَّى غَرِقَتْ فِيهَا، وَصَارَتْ مَغْمُورَةً بِهَا.

وكان هذا الرئيس يقول: لولا أن تحت كلِّ شعرةٍ ورَعْبَةٍ
مجري نَفْسٍ لكان المخنوق يموتُ مع أوَّلِ حالات الخنق،
ولكن النفسَ قد كان لها اتصالٌ بالنسيم من تلك المجاري
على قدرٍ مِنَ الأقدار، فكان تَوَطُّها جوف الإنسان فالرَّيح
والبُخارُ لَمَّا طَلَبَ المنفذ فلم يجِدْه، دارَ وكُثِفَ وقوي؛
فامتدَّ له الجلدُ فسدَّ له المجاري، فعند ذلك ينقطع
النفس، ولولا اعتصامها بهذا السبب لقد كانت انقطعت
إلى أصلها من القُرْص، مع أولِ حالات الخنق.
وكان يقول: إن لم تكن النفسُ عُمرت بما هُيِّجَ عليها من
الآفاتِ، ولم تنقطع للطَّفْرِ إلى أصلها جاز أن يكون الضياءُ
الساقطُ على أرض البيت عند سدِّ الكُوَّةِ أن يكون لم
ينقطع إلى أصله. ولكن السدَّ هَيَّجَ عليه من الظلام القائم
في الهواء ما غمره، وقطعه عن أصله، ولا فرَّق بين
هذَّين.

وكان يعظّم شأنَ الهواء، ويُخبر عن إحاطته بالأمور

ودخوله فيها، وتفصّل قوّته عليها.

وكان يزعمُ أن الذي في الرُّقّ من الهواء، لو لم يكن له مَجَارٍ ومنافسٌ، ومُنِع من كل وجهٍ لأَقَلَّ الجَمَل الضخم. وكان يقول: وما ظنُّك بالرُّطل من الحديد أو بالرُّبْرَة منه، أنه متى أُرسل في الماء خَرَقه، كما يخرق الهواء قال: والحديد يسرُعُ إلى الأرض إذا أرسلته في الهواء، بطبعه وقوّته، ولطلبه الأرض المشاكِلَة له، ودفعِ الهواء له، وتبرّيه منه، ونفيه له بالمضادة، واطَّرادِه له بالعداوة. قال: ثمّ تأخذُ تلك الرُّبْرَة فتبسُّطها بالمطارق، فتنزل نزولاً دون ذلك؛ لأنها كلما اجتمعت فكان الذي يلاقيها من الماء أصغرَ جِزْماً، كانت أقوى عليه.

ومتى ما أشخّصت هذه الرُّبْرَة المفطوحة المبسوطة المسطوحة، بنثق الحيطان في مقدارِ غِلظ الإصبع، حَمَلَ مثلَ زَيْتِه المرارِ الكثيرةِ وليس إلا لما حصرتُ تلك الإصبعُ من الهواء، وكلما كان نتوُّ الحيطان أرفع كان للأثقال

أَحْمَلَ، وكان الهواء أشدَّ انحصاراً.

قال: ولولا أن ذلك الهواء المحصورَ متَّصلٌ بالهواء المحصور في جرم الحديد، وفي جرم الخشبِ والقارِ، فرَقَعَ بذلك الاتصال السفينةَ عُلوًّا - لَمَا كان يبلُغُ من حصر ارتفاعِ إصبعٍ للهواء ما يحمله البَغلُ.

ويدلُّ على ذلك شأنُ السكَّابة؛ فَإِنَّكَ تَضَعُ رَأْسَ السكَّابة الذي يلي الماء في الماء، ثم تمصه من الطرف الآخر، فلو كان الهواء المحصورُ في تلك الأنبوبةِ إنما هو مجاوزُ لوجهِ الماء، ولم يكن متصلاً بما لايس جِزْم الماء من الهواء، ثم مصصته بأضعافِ ذلك الجذبِ إلى ما لا يتناهى لَمَا ارتفع إليك من الماء شيءٌ رأساً.

وكان يقول في السَّبيكة التي تُطيل عليها الإيقاد، كيف لا تتلوَّى، فما هو إلا أن يُنفخ عليها بالكبيرِ حتى تدخلَ النيرانُ في تلك المداخلِ، وتُعاونَها الأجزاء التي فيها من الهواء. وبمثل ذلك قامَ الماءُ في جوفِ كُوْرِ المِسْقاة المنكس،

ولعلمهم بصنيع الهواء إذا احتَصَرَ وإذا حُصِر، جعلوا سَمَكَ
الصَّيْنِيَّةِ مِثْلَ طَوْلِهَا، أَعْنِي الْمَرْكَبَ الصَّيْنِيَّ.
وكان يخبر عن صنيع الهواء بأعاجيب.
وكان يزعم أنَّ الرَّجَلَ إِذَا صُزِبَتْ عَنْقُهُ سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ،
فَإِذَا انْتَفَخَ انْتَفَخَ عُرْمُولُهُ وَقَامَ وَعَظُمَ، فَقَلَبَهُ عِنْدَ ذَلِكَ عَلَى
الْقَفَا، فَإِذَا جَاءَتِ الصَّبْعُ لِتَأْكُلَهُ فَرَأَتْهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ،
وَرَأَتْ عُرْمُولَهُ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ، اسْتَدْخَلَتْهُ وَقَضَتْ وَطَرَهَا
مِنَ تِلْكَ الْجِهَةِ، ثُمَّ أَكَلَتْ الرَّجَلَ، بَعْدَ أَنْ يَقُومَ ذَلِكَ عِنْدَكَ
أَكْثَرَ مِنْ سِفَادِ الدِّيخِ.

والدِّيخُ: ذَكَرَ الصَّبَاعُ الْعَرَقَاءُ. وَذَكَرَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ أَنَّهُ
عَايَنَهَا عِنْدَ ذَلِكَ، وَعِنْدَ سِفَادِ الصَّبْعِ لَهَا، فَوَجَدَ لَهَا عِنْدَ تِلْكَ
الْحَالِ حَرَكَةً وَصِيَاحًا، لَمْ يَجِدْهُ عِنْدَهَا فِي وَقْتِ سِفَادِ الدِّيخِ
لَهَا.

ولذلك قال أبو إسحاق لإسماعيل بن عَرْوَانَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ
إِنَّكَ لَصَبْعٌ، لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ شَدَّ جَارِيَةً لَهُ عَلَى سُلْمٍ وَحَلَفَ

ليضربها مائة سوطٍ دون الإزار - ليلتزيق جلدُ السُّوطِ
بجلدها، فيكون أوجعَ لها - فلما كشفَ عنها رطوبةً بصَّنةً
خَدَلَةً، وقعَ عليها، فلما قضى حاجته منها وقرعَ، ضربها
مائة سوط، فعند ذلك قال أبو إسحاق ما قال.
اختلاف أحوال الغرقى وإذا غرقت المرأةُ رسبتُ، فإذا
انتفخت وصارت في بطنها ريح وصارت في معنى الزقِّ،
طفا بدؤها وارتفع، إلا أنها تكون مُنكَّبةً، ويكونُ الرَّجلُ
مستلقياً.

وإذا ضربتُ عُنقُ الرَّجلِ وألقى في الماء لم يرسب، وقام
في جوف الماء وانتصب، ولم يغرق، ولم يلزم القعر، ولم
يظهر، كذلك يكونُ إذا كان مضروبَ العُنق، كان الماء
جارياً أو كان ساكناً، حتى إذا خفَّ وصار فيه الهواء، وصار
كالزَّقِّ المنفوخ، انقلبَ وظهَرَ بدنه كله، وصار مستلقياً،
كان الماءُ جارياً أو كان قائماً، فوُوقُوه وهو مضروب
العُنق، شبيهٌ بالذي عليه طباعُ العقربِ التي فيها الحياة،

إذا ألقيتها في ماء عَمُر، لم تطفُ ولم ترسبُ، وبقيتُ في
وسط عُمُق الماء، لا يتحرَّك منها شيء.

ما يسبح من الحيوان والعقرب من الحيوان الذي لا يسبح،
فأما الحيَّة فإنها تكونُ جيِّدَةَ السباحةِ، إذا كانت من
اللواتي تنساب وتزحف، فأما أجناس الأفاعي التي تسير
على جنبٍ فليس عندها في السباحة طائل.

والسِّباحة المنعوتة، إنما هي للإوْزة والبقرة والكلبِ، فأما
السَّمكةُ فهي الأصل في السباحة، وهي المثل، وإليها
جميع النسبة.

والمضروب العنق يكون في عُمُق الماء قائماً، والعقربُ
يكون على خلاف ذلك.

ثمَّ رجع بنا القول إلى ذكر النار

قال: وللنار من الخصال المحمودة أنَّ الطفل لا يُناغي
شيئاً كما يُناغي المِصْبَاح، وتلك المناغاة نافعة له في

تحريك النفس، وتهيج الهمة، والبعث على الخواطر،
وفتق اللّهاء، وتسديد اللسان، وفي السرور الذي له في
النفس أكرم أثر.

قول الأديان في النار قال: وكانت النار معظمةً عند بني
إسرائيل، حيث جعلها الله تعالى تأكل القربان، وتدل
على إخلاص المتقرّب، وفساد نية المُدغِل، وحيث قال
الله لهم: لا تُطْفِئُوا النَّارَ مِنْ بَيْتِي، ولذلك لا تجد
الكنائس وَالْبَيْعَ أبداً إلا وفيها المصابيح تزهر، ليلاً ونهاراً،
حتى تَسَخَّ الإسلام ذلك وأمرنا بإطفاء النيران، إلا بقدر
الحاجة.

فَدَكَرَ ابْنُ جُرَيْجٍ قال: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر
بن عبد الله يقول: أمرني رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وسلم فقال: إِذَا رَقَدْتَ فَأغلق بابك، وَخَمِّرْ إِنْاءَكَ، وَأَوْكِ
سِقَاءَكَ، وَأطفئ مصباحك، فَإِنَّ الشيطان لا يفتح عَقْلًا
ولا يكشفُ إِنْاءً، ولا يحلُّ وِكاءً، وَإِنَّ الفأرة الفُوسِيقَةَ

تُحْرَقُ أَهْلُ الْبَيْتِ.

وَفِطْرُ بْنُ خَلِيفَةَ عَنْ أَبِي الزَّبِيرِ؛ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،
قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَغْلِقُوا
أَبْوَابَكُمْ، وَأَوْكُوا أَسْقِيَتَكُمْ وَخَمِّرُوا آئِنَتَكُمْ، وَأَطْفِنُوا
سُرُجَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلَقًا، وَلَا يُحِلُّ وِكَاءً، وَلَا
يُكشِفُ غِطاءً، وَإِنَّ الْفَوَيْسِقَةَ تَضُرُّمُ الْبَيْتَ عَلَى أَهْلِهِ،
وَكُفُّوا مَوَاشِيَكُمْ وَأَهْلِيَكُمْ حِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ، حَتَّى
تَذَهَبَ فَحْمَةُ الْعِشاءِ".

قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَأْمُرْ
بِحِفْظِهَا إِلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَيَأْمُرُ بِإِطْفَائِهَا إِلَّا عِنْدَ
الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهَا - مَا حَدَّثَ بِهِ عَبَادُ بْنُ كَثِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي
الْحَسَنُ بْنُ ذَكْوَانَ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَحْبِسُوا صَبِيَّاتِكُمْ عِنْدَ
فَحْمَةِ الْعِشاءِ، وَأَنْ تُطْفِنُوا الْمَصَابِيحَ، وَأَنْ تَوَكِّئُوا
الْأَسْقِيَةَ، وَأَنْ تَخْمِّرُوا الْآئِنَةَ، وَأَنْ تَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، قَالَ:

فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله إنه لا بد لنا من المصابيح، للمرأة النفساء، وللمريض، وللحاجة تكون، قال: فلا بأسَ إذاً، فإن المصباحَ مَطْرَدَةٌ للشيطان، مذبةٌ للهوام، مَدْلَةٌ على اللصوص.

نار الغول قال: ونازٌ أخرى، وهي التي تذكر الأعرابُ أن الغولَ تُوقِدُها بالليل، للعبث والتخليل، وإضلال السابلة. قال أبو المطراب عبيد بن أيوب العنبري:

دُرُّ الْغُولِ أَيُّ رَفِيقِصَاحِبٍ قَفْرِ خَائِفٍ مُتَقَنَّزٍ
أرْبَتٌ بَلْحَنٍ بَعْدَ لَحْنٍ حَوَالِي نِيرَانًا تَبُوخٌ وَتَزْهَرُ
وَأَوْقَدَتْ

جَمَرَاتُ الْعَرَبِ قَالَ: وَجَمَرَاتُ الْعَرَبِ: عَبَسٌ، وَصَبَّةٌ، وَتَمِيرٌ، يُقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: جَمْرَةٌ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو حَيَّةَ التَّمِيمِيُّ قَوْمَهُ خَاصَّةً فَقَالَ:

جَمْرَةٌ لَا يَصْطَلِي النَّاسُ نَارَهُمْ
لَا تُطْفَأُ لِرَيْبِ النَّوَائِبِ
وبروى: الدوابر.

ثم ذكر هذه القبائل فعممهم بذلك، لأنها كلها مُصْرَبَةٌ، فقال:

جَمَرَاتٌ لَيْسَ لِلنَّاسِ مِثْلُهُمْ
فَقَدْ جُرِّبَنَ كُلُّ التَّجَارِبِ
وَعَبَسٌ تُتَّقَى صَقَرَاتُهَا
وَصَبَّةٌ قَوْمٌ بِأَسْهُمٍ عَيْرٌ

يعني شدتها.

كَلِّ قَوْمٍ قَدْ دَلَفْنَا
بِجَمْرَةٍ
عَارِضُ جَوْنٍ قَوِيٌّ
الْمَنَاكِبِ

سقوط الجمرة

وعلى ذلك المعنى قيل: قد سقطت الجمرة، إذا كان في
اسقبال زمان الدَّفَاء، ويقولون: قد سقطت الجمرة
الأولى، والثانية، والثالثة.

استطراد لغوي

والجمار: الحصى الذي يُرْمَى به، والرَّمَى: التجمير، قال الشاعر:

أَر كالتجميرِ منظرٌ كَلْيَالِي الْحَجِّ أَفْتَنَ ذَا

والتجمير أيضاً: أن يُرْمَى بالجُندِ في ثغر من الثُّغُورِ، ثم لا يُؤَدَّنَ لهم في الرجوع.
وقال حُمَيْدُ الأَرْقَطُ:

فاليومَ لا ظلمَ ولا تَبِيرٌ لغازٍ إن غَزَا تَجْمِيرُ

وقال بعضُ مَنْ جُمِّرَ من الشعراء في بعض الأجناد:

مُعَاوِيَ إِذَا أَنْ تُجَهَّزَ أَهْلُنَا وَإِذَا أَنْ تُوُوبَ مُعَاوِيَا
أَجْمَرْتَنَا تَجْمِيرَ كِسْرَى وَمَنْيَتَنَا حَتَّى مَلَلْنَا الأَمَانِيَا
جُنُودَهُ

وقال الجعديُّ:

كالخَلَايَا أَنْشَانَ مِنْ أَهْلِ بَجْدٍ مُجَمَّرٍ بِأَوَالِ

ويقال قد أجمر الرجل: إذا أسرع أو أعجل مركبه.

وقال لبيد:

حَرَكَتْ عَزْرِي أَجْمَرَ شِقْرَابِي عَدُوَّ جَوْنٍ قَدْ أَبْلُ

وقال الراجز:

أَجْمَرَ إِجْمَارًا لَهُ تَطْمِيمٌ

التطميم: الارتفاع والعلو، ويقال: أجمَرَ ثوبه، إذا دَخَنه.

والمِجْمرة والمِجْمَر: الذي يكون فيه الدُّخنة، وهو مأخوذٌ من الجَمْر.

ويقال: قد جَمَرَتِ المرأَةُ شَعْرَهَا إِذَا صَفَّرَتْهَا، والصَّفْرُ يقال له الجمير، قال: ويسمى الهلالُ

قبل ليلةِ السَّرارِ بَلِيلَةً: ابن جَمِيرٍ قال أبو حَزْدَبَةَ:

الإله يُشِيْعُنِي بِفَوَارِسِ أُمِّيَّةٍ فِي سِرَارِ جَمِيرٍ

وأنشدني الأصمعيُّ:

مَصْفُورُهَا يُطَوَى عَلَى جَمِيرِهَا

ويقال: قد تَجَمَّرَ القومُ، إِذَا هُم اجتمعوا حتى يصير لهم بَأْسٌ، ويكونوا كالنارِ على أعدائهم

فكأنهم جمرُهُ، أو كأنهم جَمِيرٌ من شعر مَضْفُورٍ، أو حَبْلٌ مُرْصَعٍ القُوى.

وبه سُمِّيَتِ تلك القبائلُ والبطونُ من تميم: الجمار.

والمجَمَّرُ مشدَّد الميم: حيثُ يقع حصى الجمار، وقال الهذلي:

لَأَذْرِكُهُمْ شُعْتَ النَّوَاصِي سَوَابِقُ حُجَّاجٍ تُوَافِي
كَأَنَّهُمْ
المَجْمَرَا

ويقال حُفٌّ مَجْمَرٌ: إِذَا كَانَ مجتمعاً شديداً.

ويقال: عَدَّ فلانٌ إبله أو خيله أو رجاله جَمَاراً: إِذَا كَانَ ذلك جُملة واحدة، وقال الأعشى:

مُبْلَغٌ وَائِلًا قَوْمَنَا وَأَعْنِي بِذَلِكَ بَكَرًا جَمَارًا

قال: ويقال في النار وما يسقط من الرِّند: السَّقَطُ، والسَّقَطُ، والسَّقَطُ، ويقال: هذا مَسْقِطٌ

الرمل، أي مُنْقَطِعُ الرمل، ويقال: أَتَانَا مَسْقِطُ النَّجْمِ، إِذَا جَاءَ حين غاب.

ويقال رَفَعَ الطائرُ سِقْطِيَه، وقال الشاعر:

إِذَا مَا أَضَاءَ الصُّبْحُ نَعَامَةٌ ذِي سِقْطَيْنِ
وَانْبَعَثَتْ مُعْتَكِرٍ

أراد ناحيتي الليل.

ويقال: شَبَّتِ النار والحرب تَشِبُّ شَبًّا، وشَبَّبْتُها أنا أشَبُّها شَبًّا، وهو رجل شَبُوبٌ للحرب. ويقال: حَسَبْتُ ثاقب، أي مضيءٌ متوقد، وكذلك يقال في العلم، ويقال: هب لي ثقوباً، وهو ما أثقبت به النار، من عُطْبَةٍ أو من غيرها ويقال: أثقب النار إذا فتح عَيْنَهَا لتشتعل، وهو لثَقُوب، ويقال: ثَقَبَ الزندُ ثُقُوباً، إذا ظهرت ناره، وكذلك النار، والزند الثاقب الذي إذا قَدِحَ ظهرت النار منه.

ويقال: ذَكَرَتِ النارُ تَذْكُو ذُكُوءاً، إذا اشتعلت، ويقال ذَكَّهَا إذا أريد اشتعالها، وذُكَاءُ اسم للشمس، مضموم الذال المعجمة، وابن ذُكَاء: الصبح، ممدود مضموم الذال، وقال العجاج:

ذُكَاءٍ كَامِنٌ فِي كَفْرِ

وقال نَعْلَبَةُ بن صُعَيْر المازني، وذكر ظليماً ونعاماً:

تَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيداً بَعْدَ مَا ذُكَاءٌ يَمِينَهَا فِي كَافِرٍ

وأما الذكاء مفتوح الذال ممدود فحدّه الفُؤَاد، وسُرْعَةُ اللُّقْن.

وقالوا: أَصْرَمْتُ النار حتى اضطرمت وألهبْتُها حتى التهبت، وهما واحد، والصَّرام من الحطب:

ما ضَعْفُ منه ولان، والجَزَلُ: ما غَلِظَ واشتَدَّ، فالرُّمْتُ وما فوقه جَزَلٌ، والعَرَقُجُ وما دونه ضرام، والقصب وكل شيء ليس له جمرٌ فهو ضرام، وكل ما له جمر فهو جزل.
 ويقال: ما فيها نافخ صَرَمَة، أي ما فيها أحدٌ ينفخ ناراً.
 ويقال: صَلَّى الشاةُ فأنا أَصْلِيها صَلَّىاً إذا شَوَّيْتها، فهي مَصْلِيَّةٌ، ويقال: صَلَّى الرَّجُلُ النارَ يَصْلَاها، وأصله الله حَرَّ النارِ إِصْلَاءً، وتقول: هو صالٍ حَرَّ النارِ، في قومٍ صالحين وصَلَّى.
 ويقال: هَمَدَتِ النارُ تَهْمُدُ هُمُوداً، وطَفِنَتْ تَطْفَأُ طُفُوءاً، إذا ماتت، وَحَمَدَتْ تَحْمُدُ حُمُوداً، إذا سكنَ لَهْبُها وبَقِيَ جَمراً حارّاً.
 وشَبَّتِ النارُ تَشْبُبُ شُبُوباً إذا هاجتُ والتهبت، وشَبَّ الفرسُ بيديه فهو يَشْبُبُ شِبَاباً، وشَبَّ الصبيُّ يَشْبُبُ شَبَاباً، ويقال: ليس لك عَصَاضٌ ولا شَبَابُ.
 ويقال: عَشَاَ إلى النارِ فهو يعيشُ إليها عَشُوءاً وَعُشُوءاً، وذلك يكون من أول الليل، يرى ناراً فيعيشُ إليها يستضيءُ بها، قال الحطيئة:

تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى صَوْءٍ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ
 مُوقِدٍ

وقال الأعشى:

على النارِ الندى والمحلِق

ويقال: عَشِيَ الرَّجُلُ يَعْشَى عَشَاوَةً، وهو رجلٌ أَعْشَى، وهو الذي لا يبصر بالليل، وعَشِيَ الرَّجُلُ عَلَى صاحِبِهِ يَعْشَى عَشَاً شديداً.
 نار الحرب ويذكرون ناراً أخرى، وهي على طريق المثل والاستعارة، لا على طريق الحقيقة، كقولهم في نار الحرب، قال ابن ميادة:

: يَدْ تَنْهَلُ بِالْخَيْرِ وَأُخْرَى شَدِيدٌ بِالْأَعَادِي
 وَالنَّادِ صَرِيرُهَا
 وَنَارَاهُ: نَارٌ نَارٌ كَلٌّ وَأُخْرَى يُصِيبُ الْمَجْرِمِينَ
 مُدْفَعٌ سَعِيرُهَا
 وقال ابن كُنَّاسَةَ:

خَلَفَهَا عَارِضٌ يَمُدُّ عَلَى الْآ سِئْرَيْنِ مِنْ حديدٍ وَنارِ
 حربٍ يَشْبُهَانِ الحَدَّ وَالْحِجْرَيْنِ نَوَافِدَ الأَبْصَارِ

وقال الرَّاعي:

وَعَارَتْنا أودْتُمْ ببَهْرَاءَ ^{تصيبُ الصَّرِيحَ مَرَّةً}
وَالْمَوَالِيا ^{إنه}
وكانت لنا نارانٍ: نارٌ ^{بجاسِم}
بدمخٍ يُحْرِقانِ الأَعادِيا ^{جاسم: بالشام، ودمخ: جبلٌ بالعالية.}

نار القري ونار أخرى، وهي مذكورة على الحقيقة لا على المثل، وهي من أعظم مفاخر العرب، وهي النار التي تزقع للسفر، ولمن يلتمس القري، فكلما كان موضعها أرفع كان أفخر. وقال أمية بن أبي الصلت:

الغِياباتُ مَنَوَاكَ وَلَكِنْ دُرَى مُشْرِفِ القِصَورِ

وقال الطائي:

وبوات بيتك في مَعْلَمِ المِباءَةِ والمِسرِحِ
كيفت العُفاةَ طلابَ القِري الكلابِ لمِستنجِحِ
دعسَ آثارِ تلكَ المِطأخاديدَ كاللِقمِ الأفيحِ
كنت في نفيِّ رائيكنت على الشريكِ الأوضِحِ
وأنشدني أبو الرِّبِقان:

نارٌ تُشَبُّ بِكلِّ رِبعٍ الظلِماءُ جَلَّتِ البِقاةَا
إن كان أَكْثَرَهُمْ سَوالمَكَّنُ كانَ أَرْحَبَهُمْ ذِراعا
ويروى: وَلَمْ يَكُ أَكْثَرَ الفِئِيانِ مالاً.

وفي نار القري يقول الآخر:

مِثْلَ هَمَّامٍ وَلَمْ أَرِ البَواكي أو لِبِشْرِ بِنِ
مِثْلَهُ ^{عامر}
غلامان كان استوردًا كلَّ المجدِ ثمَّ استوسعا في
مَورِدِ ^{المصادر}

سَنَا نَارِيهَمَا كَلَّ
شَنَوَةٌ
الفجرِ يبدو للعيون
النواظيرِ

وفي ذلك يقول عوف بن الأحوص:

ومستنجح يخشي القواءَ الليلِ بابًا ظلمةً
ودونهُ
رفعتُ له ناري فلما اهتدجرتُ كلابي أن يهرَّ
عقورُها
تسأليني واسألني عن رَدِّ عَافِي القدرِ من
خليقتي
أن قدرني لاتزالُ الفروة المقرور أمُّ
كأنها
مبرزة لا يجعلُ السترُ أحمد النيرانُ لاح
دونها
الشولُ راحتُ ثم لمْ أتفادِها ذاقَ السنانَ
لحمها
عقيرها

خبر وشعر في الماء أما إن ذكرنا جُملةً من القول في الماء من طريق الكلام وما يدخل في الطب، فستذكر من ذلك جملة في باب آخر: قالوا: مدَّ الشعبي يده وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب، فلم يدرِ صاحبُ الشرابِ اللبن، أم العسل، أم بعضَ الأشربة؟ فقال له: أي الأشربة أحبُّ إليك؟ قال: أعزُّها مفقوداً، وأهوئها موجوداً قال قتيبة: اسقيه ماءً. وكان أبو العتاهية في جماعة من الشعراء عند بعض الملوك، إذ شرب رجلٌ منهم ماء، ثم قال: برَدَ الماءَ وطابَ فقال أبو العتاهية: اجعله شِعراً، ثم قال: مَنْ يجيز هذا البيت؟ فأطرق القومُ مفكرين، فقال أبو العتاهية: سبحان الله وما هذا الإطراق؟ ثم قال:

الماءُ وطابا
الماءُ شرابا

وقال الله عز وجل: "أنهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ" ثم لم يذكره بأكثر من السلامة من التغيُّر، إذ كان الماء متى كان خالصاً سالماً لم يحتجْ إلى أن يُشربَ بشيء غير ما في خلقة من الصِّفاء والغذوبة، والبرِّد والطَّيب، والحُسن، والسَّلَس في الحَلْق، وقد قال عدِيُّ بن رَيد:

بَغَيْرِ المَاءِ حَلْقِي
كَالغَصَّانِ بِالمَاءِ

اعتصاري

شَرْقُ

قال أبو المطرَاب عبيد بن أيُّوب العنبريُّ:

حُبِّتِ الْمَاءَ حُبْتُ حُبِّتِ النَّجْلِ حُبْتُ

الْحَلَائِلِ

تُرَابِهِ

وأوصى رجلٌ من العرب ابنته ليلة زفافها بوصايا، فكان مما قال لها: احذري مَوَاقِعَ أنفه، واغتسلي بالماء القَرَّاح، حتى كأنك سَنُّ ممطور.

وأوصت امرأةٌ ابنتها بوصايا، فكان منها: وليكن أطيبَ طيبك الماء.

وزعموا أنها القائلةُ لبنتها:

بُنَيْتِي إِنْ نَامَ نَامِي قَبْلَ الْوَأْكَرْمِي تَابِعُهُ وَأَهْلَهُ
تَكُونِي فِي الْخِصَامِ فَتَخْصِمِيهِ فَتَكُونِي بَعْلُهُ

ومن الأمثال:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَسِوَى ذِكْرِهَا كَالْقَابِضِ الْمَاءِ
وَبَيْنَهَا

وأخذ المسيحُ عليه السلام في يده اليمنى ماءً، وفي

يده اليسرى حُبزاً فقال: هذا أبي، وهذا أمِّي، فجعل

الماء أباً، لأن الماءَ من الأرض يقوم مقام النطفة من

المرأة.

وإذا طُبِخَ الماءُ ثم بَرَدَ لم تَلْقَحْ عليه الأشجار، وكذلك

فُضبان الشجر، والحبوبُ والبذور لو طُبِخت طبخةً ثمَّ

بُذِرَتْ لم تَعْلُق.

وقالوا في النظر إلى الماء الدائم الجريان ما قالوا.
وجاء في الأثر: من كان به برصٌ قديمٌ فليأخذُ دِرْهَمًا
حلالًا، فليشُتِرْ به عَسَلًا، ثم يشربه بماء سماء، فإنه يبرأ
بإذن الله.

والنزيف هو الماء عند العرب.

وما ظنُّكم بشرابٍ حَبُثَ ومَلَحَ فصار مِلْحًا زُعَاقًا، وبحرًا
أَجَاجًا، ولَّد العنبر الوَزْدَ، وأنسل الدرّ النفيس، فهل
سِمَعَتِ بِنَجَلٍ أكرمَ ممن نَجَله، ومن نِتَاجِ أشرفَ ممن
تَسَله.

وما أحسن ما قال أبو عبَّاد كاتبُ ابن أبي خالد حيثُ
يقول: ما جلسَ بين يديّ رجلٌ قط، إلا تمثَّل لي أنني
سأجلسُ بين يديه، وما سَرَّني دهرٌ قطُّ، إلا شغلني عنه
تذكُّر ما يليق بالدهور من الغير. قال الله عزَّ وجلَّ: "قِيلَ
لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
سَاقَيْهَا"، لأن الزجاج أكثر ما يُمدحُ به أن يقال: كأنه

الماء في الفيافي.

وقال الله عز وجل: "هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ".

وقال القُطامي:

يَنْبِذَنَّ مِنْ قَوْلِ مَوَاقِعِ الْمَاءِ مِنْ زِي الْعُلَّةِ
يُصِبْنَ بِهِ الصَّادِي

وقال الله عز وجل: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ".

فيقال: إنه ليس شيء إلا وفيه ماء، أو قد أصابه ماء،

أو خلق من ماء، والنُّطفة ماء، والماء يسمى نُطفة، وقال

الله تعالى: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ"، قال ابن عباس:

موج مكفوف.

وقال عز وجل: "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا".

التسمية بماء السماء وحين اجتهدوا في تسمية امرأة

بالجمال، والبركة، والحسن، والصفاء، والبياض قالوا: ماء

السماء، وقالوا: المنذر بن ماء السماء.

استطراد لغوي

ويقال: صَبَّغَ له ماء، ولو نُؤ له ماء، وفلان ليس في وجهه ماء، ورَدَّني فلانٌ ووجهي بمائه، قال الشاعر:

الحياءُ يجولُ في وجناتِهِ

شعر في صفة الماء وقالت أمُّ قُرُوة في صفة الماء:

ماءٌ مزنٌ أيُّ ماءٍ من غرِ طِوالِ
تقولهُ الذوائِبِ
بمنعرجٍ أو بطنٍ وادٍ رياحُ المزنِ من كلِّ
تحدثت جانبِ
نسمُ لاريجِ القذا عن إنْ به عيبِ تراه
متونهُ لشارِبِ
بأطيبَ ممنْ يقصُرُ الطرفَ الله واستحياءِ بعضِ
العواقِبِ

ما يحبه الحيوان من الماء والإبل لا تحبُّ من الماء إلا
الغليظاً، والحوافر لا تحبُّ العُذوبة وتكره الماء الصافي،
حتى ربَّما صَرَبَ الفرسُ بيده الشريعة ليتَّوَّر الماء ثمَّ
يشربهُ.

والبقر تعافُ الماءَ الكدِرَ، ولا تشرب إلا الصافي.
والظباء تَكَرَّع في ماء البحرِ الأجاج، وتخضِمُ الحنْظَلَ.

استطراد لغوي

والأبيضان: الماء، واللبن، والأسودان: الماء، والتمر.

وسواد العراق: ماؤه الكثير، والماء إن كان له عُمُق اشتدَّ سواده في العين.

شعر في صفة الماء وقال العُكَلِيّ في صفة الماء:

من ذكرِ سلمى والليلِ داَجٍ مطلقمٌ
عوده أسوده
ليلي ساهراً ما إذا الليل تولى كبده
أرُفده
وانكبَّ للغورِ انكبابا حادٍ كميثُ يطرده
فرقدُه
أجلى مغربٌ مجردُه أصبح بالقلبِ جوى ما
يبرده
غمامٍ في الرصاف به عن رأس نيقٍ
مقلده
ظهر صفوانٍ مزل إذا السيل تناهى
مجسده
وشكد الماء الذي نعامي ودبورٍ تلهده
يشكده
نسيمٍ من صباً كأنما يشهده أو يفقده
تستورده

فهو شفاءُ الصاد مما يَعْمِدُه وقال آخر في الماء:

كأس ما ثغبُ برأس أصابَّ عراصها
شظيةٍ شؤبوب
ضحيانُ شاهقةٍ يرف نديانَ، يقصر دونه
بشامُه اليعقوب
منكٍ مذاقةً لمحلا عشانَ داغش ثم عاد
يلئوبُ

وقال جرير:

شئتِ قد نَقَعَ الفؤادُ الحوائِمَ لا يَجْدُنَ غليلا

بشربة
بالعذب من رصف القلات الأباطح لا يزال ظليلا
مقيه

فضل الماء قال: وفي الماء أن أطيّب شراب عُمِلَ
وَرُكِّبَ، مثل السَّكَنْجَبِينِ، والجُلَّابِ، والبَنْفَسِجِ وغير ذلك
مما يُشْرَبُ من الأشربة، فإن لَدَّ وطاب، فإنّ تمام لَدَّته
إن يَجْرَعَ شاربه بعد شربه له جُرْعاً من الماء، يَغْسِلُ بها
فمه، ويطيّب بها نفسه، وهو في هذا الموضع كالخَلَّةِ
والخَمَضِ جميعاً وهو لتسويغ الطعام في المريء،
والمركب والمعبر، والمتوصّل به إلى الأعضاء.
فالماء يُشْرَبُ صِرْفاً وممزوجاً، والأشربة لا تُشْرَبُ
صِرْفاً، ولا يُتَنَفَّعُ بها إلا بممازجة الماء، وهو بعد طهور
الأبدان، وغسول الأدران. وقالوا: هو كالماء الذي يطهر
كلّ شيء، ولا ينجسه شيء.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بئر رومة: "الماء
لا ينجسه شيء".

ومنه ما يكون منه المِلْح، والبَرْد، والتَّلْج، فيجتمع الحُسن في العين، والكرم في البياض والصفاء، وحسنُ الموقع في النفس.

وبالماء يكون القَسَم، كقول الشاعر:

عَضْبِي وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا أَشْرَبُ الْبَارِدَ أَوْ تَرَضَى
ويقولون: لو عَلِمَ فلانٌ أَنَّ شُرْبَ الْبَارِدِ يَصَعُّ مِنْ مَرُوءَتِهِ

لما ذاقه، وَسَمَّى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَصْلَ الْمَاءِ غَيْثًا بَعْدَ أَنْ
قال: "وَكَانَ عَرِشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

ومن الماء ماء زمزم، وهو لِمَا شَرِبَ له، ومنه ما يكونُ
دواءً وشفاءً بنفسه، كالماء للحمى.

عَلَّةُ ذِكْرِ النَّارِ فِي كِتَابِ الْحَيَوانِ

قد ذكرنا جملة من القَوْل في النار، وإن كان ذلك لا يدخل في باب القول في أصناف الحيوان، فقد يرجع إليها من وجوه كريمة نافعة الذكر، باعثة على الفكر، وقد يعرض من القَوْل ما عسى أن يكون أنفع لقارئ هذا الكتاب من باب القول في الفيل، والزَّندبيل، والقرد والخنزير، وفي الدُّبِّ والدُّنْبِ، والصَّبِّ والصَّيْعِ، وفي السَّمْعِ والعشبار. وَعَلَى أن الحكمة ربما كانت في الدُّبابة مع لطافة شخصها، ونذالة قَدْرها، وخساسة حالها أظهر منها في الفرس الرَّائِعِ، وإن كان الفرسُ أنفع في باب الجهاد، وفي الجاموس مع عَظَم

شخصه، وفي دودة القَرِّ، وفي العنكبوت أظهرَ منها في الليثِ الهصور، والعقابِ الشَّعْواءِ.
وربما كان ذكرُ العَظِيمِ الجُثَّةِ الوثيقِ البَدَنِ، الذي يجمعُ جَدَّةَ النَّابِ وصولَةَ الخلقِ أَكْثَرَ فائدةً،
وأظهرَ حِكْمَةً من الصَّغِيرِ الحَقِيرِ، ومن القليلِ القَمِي، كالبعيرِ والصُّوَابَةِ، والجاموسِ والثعلبِ
والقَمَلَةِ.

وشأن الأَرْضِ أعَجَبُ من شأن البَيْرِ مع مسالمة الأسد له، ومحاربتِه للنمرِ.
وشأن الكُرْكِيِّ أعَجَبُ من شأن العَنْدَلِيْبِ، فإن الكُرْكِيَّ من أعظم الطَّيْرِ، والعَنْدَلِيْبِ أصغر من
ابن تَمْرَةَ.

ولذلك ذكر يونس بعضَ لاطَةِ الرُّوَاةِ فقال: يضربُ ما بين الكُرْكِيِّ إلى العَنْدَلِيْبِ، يقول: لا يدع
رجلاً ولا صبيّاً إلا عَفَجَه.

ويشبه ذلك هجاءُ خلفِ الأحمرِ أبا عبيدة، حيثُ يقول:

**ويضربُ الكُرْكِيَّ إلى القُنْبَرَانِسَاءِ يَبْقَى وَلَا مُحْتَلِمٌ
والعانس من الرجال مثله من النساء.**

فلسنا نُطَنِبُ في ذكر العَظِيمِ الجُثَّةِ لِعَظَمِ جُثَّتِهِ، وَلَا
تَرَعَبُ عن ذكر الصَّغِيرِ الجُثَّةِ، لصغر جُثَّتِهِ، وإنما نلتمس
ما كان أكثرَ أعجوبةً، وأبلغَ في الحكمة، وأدلَّ عند العامة
على حكمة الرَّبِّ، وعلى إنعام هذا السَّيِّدِ.

وَرُبَّ شَيْءٍ الأَعْجُوبَةُ فِيهِ إِنَّمَا هِيَ فِي صُورَتِهِ، وَصَنَعَتِهِ،
وَتَرْكِيبِ أَعْضَائِهِ، وَتَأْلِيفِ أَجْزَائِهِ، كَالطَّاوُوسِ فِي تَعَارِيحِ
رَيْشِهِ، وَتَهَاوِيلِ أَلْوَانِهِ، وَكَالزَّرَّافَةِ فِي عَجِيبِ تَرْكِيبِهَا،

ومواضع أعضائها، والقولُ فيهما شبيهٌ بالقول في التُّدرجِ
والنَّعامَةِ.

وقد يكون الحيوانُ عجيبَ صنعةِ البدنِ، ثم لا يُذكرُ بعدَ
حُسنِ الخَلْقِ بخُلُقِ كريمٍ، ولا حِسِّ ثاقِبٍ، ولا معرفة
عجيبةٍ، ولا صنعةٍ لطيفةٍ، ومنه ما يكون كالبيغاءِ،
والنَّخلةِ، والحمامَةِ، والثعلبِ، والدُّرَّةِ، ولا تكون الأعجوبةُ
في تصويره، وتركيبِ أعضائه، وتنضيدِ ألوانِ ريشه في
وزن تلك الأشياء التي ذكرناها، أو يكون العَجَبُ فيما
أعطى في حنجرته من الأغاني العجيبةِ، والأصواتِ
الشجِيَّةِ المطربةِ، والمخارجِ الحسنةِ مثلَ العجبِ فيما
أعطِيَ من الأخلاقِ الكريمةِ، أو في صنعةِ الكفِّ اللطيفةِ،
والهدايةِ الغريبةِ، أو المِرْفَقِ النافعِ، أو المضرَّةِ التي
تدعو إلى شدَّةِ الاحتراسِ، ودقةِ الاحتيالِ، فيقدِّمُ في
الذكرِ لذلكِ.

وأَيُّ شيءٍ أعجبُ من العَفْعَقِ وصدِّقِ حِسِّه، وشدَّةِ

حَذْرِهِ، وَحُسْنِ مَعْرِفَتِهِ، ثُمَّ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ طَائِرٌ أَشَدُّ
تَضْيِيعًا لَبِيضَهُ وَفِرَاحَهُ مِنْهُ، وَالْحُبَارَى مَعَ أَنَّهَا أَحْمَقُ
الطَيْرِ، تَحْوِطُ بَيِّضَهَا أَوْ فِرَاحَهَا أَشَدَّ الْحَيَاطَةِ، وَبِأَعْمَاضِ
مَعْرِفَةٍ، حَتَّى قَالَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُلُّ
شَيْءٍ يَحِبُّ وَالِدَهُ حَتَّى الْحُبَارَى، يَضْرِبُ بِهَا الْمِثْلَ فِي
الْمَوْقِ.

العقَّوقُ ثم العقَّوقُ مع حذقه بالاستلاب، وبسرعة
الخطف، لا يستعمل ذلك إلا فيما لا ينتفع به، فكَمَّ من
عَقْدِ ثَمِينِ خَطِيرٍ، وَمَنْ قُرْطِ شَرِيفِ نَفِيسٍ، قَدْ اخْتَطَفَ
مِنْ بَيْنِ أَيْدِي قَوْمٍ، فَأَمَّا رَمَى بِهِ بَعْدَ تَحَلُّقِهِ فِي الْهَوَاءِ،
وَإِنَّمَا أَحْرَزَهُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَبَدًا. وَقَالُوا: هُوَ كَالْمَاءِ الَّذِي
يَطْهَرُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا يَنْجَسُهُ شَيْءٌ.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بئر رومة: "الماءُ
لا ينجسُهُ شَيْءٌ".

ومنه ما يكون منه المِلْحُ، والبَرْدُ، والتَّلَجُ، فيجتمع الحُسنُ

في العين، والكرم في البياض والصفاء، وحسنُ الموقع في النفس.

وبالماء يكون القَسَم، كقول الشاعر:

عَضْبِي وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا أَشْرَبُ الْبَارِدَ أَوْ تَرَضَى
ويقولون: لو عَلِمَ فلانٌ أَنَّ شُرْبَ الْبَارِدِ يَصَعُّ مِنْ مَرْوَعَتِهِ

لما ذاقه، وَسَمَّى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَصْلَ الْمَاءِ غَيْثًا بَعْدَ أَنْ
قال: "وَكَانَ عَرَشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

ومن الماء ماء زمزم، وهو لِمَا شَرِبَ لَهُ، ومنه ما يكونُ
دواءً وشفاءً بنفسه، كالماء للحمى.

عَلَّةُ ذِكْرِ النَّارِ فِي كِتَابِ الْحَيَوَانَ

قد ذكرنا جملة من القَوْل في النار، وإن كان ذلك لا يدخل في باب القول في أصناف الحيوان، فقد يرجع إليها من وجوه كريمة نافلة الذكر، باعثة على الفكر، وقد يعرض من القَوْل ما عسى أن يكون أنفع لقارئ هذا الكتاب من باب القول في الفيل، والرّندبيل، والقرد والخنزير، وفي الدُّب والذئب، والضبِّ والضبع، وفي السمِّع والعشبار. وَعَلَى أَنْ الْحِكْمَةَ رُبَّمَا كَانَتْ فِي الدُّبَابَةِ مَعَ لَطَافَةِ شَخْصِهَا، وَنِزَالَةِ قَدْرِهَا، وَخَسَاسَةِ حَالِهَا أَظْهَرَ مِنْهَا فِي الْفَرَسِ الرَّائِعِ، وَإِنْ كَانَ الْفَرَسُ أَنْفَعًا فِي بَابِ الْجِهَادِ، وَفِي الْجَامُوسِ مَعَ عَظَمِ شَخْصِهِ، وَفِي دُودَةِ الْقَرِّ، وَفِي الْعَنْكَبُوتِ أَظْهَرَ مِنْهَا فِي اللَّيْثِ الْهَيَّوِيِّ، وَالْعُقَابِ الشُّعْوَاءِ. وَرُبَّمَا كَانَ ذِكْرُ الْعَظِيمِ الْجُنَّةِ الْوَتِيقِ الْبَدَنِ، الَّذِي يَجْمَعُ جِدَّةَ النَّابِ وَصَوْلَةَ الْخَلْقِ أَكْثَرَ فَائِدَةً،

وأظهرَ حِكْمَةً من الصَّغِيرِ الحَقِيرِ، ومن القليلِ القَمِي، كالبعيرِ والشُّوَابَةِ، والجاموسِ والثعلبِ والقَمَلَةِ.

وشأنُ الأَرْضِ أعَجَبٌ من شأنِ البَيْرِ مع مسالمةِ الأسدِ له، ومحاربتِه للنمرِ.
وشأنُ الكُرْكِيِّ أعَجَبٌ من شأنِ العَنْدَلِيْبِ، فإن الكُرْكِيَّ من أعظمِ الطَّيْرِ، والعَنْدَلِيْبَ أصغرُ من ابنِ تَمْرَةٍ.

ولذلك ذكر يونس بعضَ لاطَةِ الرُّوَاةِ فقال: يضربُ ما بين الكُرْكِيِّ إلى العَنْدَلِيْبِ، يقول: لا يدع رجلاً ولا صبيّاً إلاَّ عَفَّجَه.

ويشبه ذلك هجاءُ خلفِ الأحمرِ أبا عبيدة، حيثُ يقول:

**ويضربُ الكُرْكِيَّ إلى القُنْبَعَانِسَاءِ يَبْقَى ولا مُحْتَلِمٌ
والعانس من الرجالِ مثله من النساءِ.**

فلسنا نُطَنِبُ في ذكرِ العَظِيمِ الجِثَّةِ لِعَظَمِ جُثَّتِهِ، ولا تَرَعَبُ عن ذكرِ الصَّغِيرِ الجِثَّةِ، لصِغَرِ جُثَّتِهِ، وإنما نلتَمِسُ ما كان أكثرَ أعجوبةً، وأبلَغَ في الحِكمةِ، وأدلَّ عندَ العامَّةِ على حِكمةِ الرَّبِّ، وعلى إنعامِ هذا السَّيِّدِ.

وَرُبَّ شَيْءٍ الأَعْجُوبَةُ فِيهِ إِنما هِيَ فِي صُورَتِهِ، وَصَنَعَتِهِ، وَتَرْكِيْبِ أَعْضَائِهِ، وَتَأْلِيفِ أَجْزَائِهِ، كَالطَّاوُوسِ فِي تَعَارِيْجِ رِيْشِهِ، وَتَهاوِيلِ أَلوانِهِ، وَكَالزَّرَافَةِ فِي عَجِيبِ تَرْكِيْبِها، وَمَواضِعِ أَعْضائِها، وَالقَولُ فِيها شَبِيهُ بِالقَولِ فِي التُّدْرُجِ وَالتَّعامَةِ.

وقد يكون الحيوانُ عَجِيبَ صِنْعَةِ البَدَنِ، ثم لا يُذكَرُ بعدَ
حُسْنِ الخَلْقِ بِخُلُقِ كَرِيمٍ، ولا حِسِّ ثاقِبٍ، ولا معرفة
عَجِيبَةٍ، ولا صِنْعَةٍ لَطِيفَةٍ، ومنه ما يكون كالبيغاءِ،
والنخلةِ، والحمامةِ، والثعلبِ، والدُّرَّةِ، ولا تكون الأعجوبةُ
في تصويره، وتركيب أعضائه، وتنضيد ألوان ريشه في
وزن تلك الأشياء التي ذكرناها، أو يكون العَجَبُ فيما
أعطى في حنجرته من الأغاني العجيبَةِ، والأصوات
الشجِيَّةِ المطربةِ، والمخارج الحسنة مثلَ العَجَبِ فيما
أعطِيَ من الأخلاق الكريمة، أو في صِنْعَةِ الكَفِّ اللطيفةِ،
والهداية الغريبةِ، أو المِرْفَقِ النافعِ، أو المَضْرَّةِ التي
تدعو إلى شِدَّةِ الاحتراسِ، ودقة الاحتيالِ، فيقدِّم في
الذكر لذلك.

وأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنَ العَقَّاقِ وَصِدْقِ حِسِّهِ، وَشِدَّةِ
حَدْرِهِ، وَحُسْنِ معرفته، ثم ليس في الأرض طائر أشدُّ
تَضْيِيعاً لبيضه وفراخه منه، والحُبَارَى مع أنها أحمقُ

الطير، تحوط بيضها أو فراخها أشدّ الحياطة، وبأغمض
معرفة، حتى قال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: كلُّ
شيء يحب والدّه حتى الحبارى، يَضْرِبُ بها المثلَ في
الموق.

العقعق ثم العقعقُ مع حذقه بالاستلاب، وبسرعة
الخطف، لا يستعمل ذلك إلا فيما لا ينتفع به، فكَمَ من
عَقْدِ ثمين حَظير، ومن قُرْطِ شريف نفيس، قد اختطف
من بين أيدي قومٍ، فإمّا رَمَى به بعد تَحَلُّقه في الهواء،
وإما أحرزه ولم يلتفت إليه أبداً. وزعم الأصمعيُّ أنّ
عَقْعَقاً مرةً أَسْتَلَبَ سِخَاباً كريماً لقومٍ، فأخذَ أهلُ
السَّخَابِ أعرابيةً كانت عندهم، فبينما هي تُضْرَبُ،
وَتُسْحَبُ وتَسَبُّ إذ مرَّ العَقْعَقُ والسَّخَابُ في منقاره،
فصاحوا به فرمى به، فقالت الأعرابية وتذكرتِ السلامة
بعد أن كانت قد ابْتُليت ببليةٍ أخرى فقالت:

السَّخَابُ مِنْ تَعَاجِبِ أَنَّهُ مِنْ بَلَدَةِ السَّوءِ

نَجَّانِي

تَعْنِي الَّذِينَ كَانَتْ نَزَلَتْ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ.
كَلَامٍ فِي الْإِسْتِطْرَادِ وَلَا بِأَسْ بِذِكْرِ مَا يَعْرُضُ، مَا لَمْ يَكُنْ
مِنَ الْأَبْوَابِ الطُّوَالِ، الَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الْمَقَائِيسُ
الْمَجْرَدَةُ، وَالْكَلَامِيَّةُ الْمُحَضَّةُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخْفُ
سَمَاعَهُ وَلَا تَهَشُّهُ النُّفُوسُ لِقِرَاءَتِهِ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ
صَاحِبُ الصَّنَاعَةِ، وَمَلْتَمَسُ الثَّوَابِ وَالْحِسْبَةِ، إِذَا كَانَ
حَلِيفَ فِكْرٍ، أَلِيفَ عِبْرٍ، فَمَتَى وَجَدْنَا مِنْ ذَلِكَ بَابًا يَحْتَمِلُ
أَنْ يُوَسِّحَ بِالْأَشْعَارِ الظَّرِيفَةَ الْبَلِيفَةَ، وَالْأَخْبَارَ الطَّرِيفَةَ
الْعَجِيبَةَ، تَكَلَّفْنَا ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاهُ أَجْمَعَ لِمَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْقَارِئُ.
وَلِذَلِكَ اسْتَجْرْنَا أَنْ نَقُولَ فِي بَابِ النَّارِ مَا قَلْنَا.
وَأَنَا كَاتِبٌ لَكَ بَعْدَ هَذَا؛ إِذْ كُنْتُ قَدْ أَمْلَيْتُكَ بِالتَّطْوِيلِ،
وَحَمَلْتُكَ عَلَى أَصْعَابِ الْمَرَاقِبِ، وَأَوْعَرَ الطُّرُقِ، إِذْ قَدْ
ذَكَرْنَا فِيهِ جَمَلَةً صَالِحَةً مِنْ كَلَامِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَلَا أَرَى أَنْ
أَزِيدَ فِي سَامَتِكَ، وَأُحْمَلَّكَ اسْتِفْرَاغَ طَاقَتِكَ، بِأَنْ أُبْتَدِئُ

القول في الإبل، والبقر، والغنم، والأسد، والذئب،
والحمير، والظباء، وأشباه ذلك، مما أنا كاتبه لك.
ولكني أبدأ بصغار الأبواب وقصارها، ومُحَقَّرَاتِهَا، ومِلاحِهَا،
لئلا تخرج من الباب الأول، إلا وأنت نشيط للباب الثاني،
وكذلك الثالث والرابع إلى آخر ما أنا كاتبه لك، إن شاء
الله.

سرد منهج سائر الكتاب

ونبدأ بذكر ما في العصفور، ثم نأخذ في ذكر ما في الفأر
والعقرب، والذي بينهما من العداوة، مع سائر خصالهما.
ثم القول في العقرب والخنفساء، وفي الصداقة بينهما،
مع سائر خصالهما.

ثم القول في السنور، وبعض القول في العقرب.
ثم القول في البعوض والبراغيث، ثم القول في القمل
والصُّبَّان، ثم القول في الورل والصَّبَّ، ثم القول في

اليربوع والقنفذ، ثم القول في النسور والرّخم.
ثم القول في العُقاب، وفي الأرنب، ثم القول في القِرْدان
والضفادع، ثم القول في الحُبّارى وما أشبه ذلك، وإن كنا
قد استعملنا في هذا الكتاب جملاً من أخبار ما سمينا
بذلك.

وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة،
تصلح للمذاكرة، وتبعث على النشاط معه وتُسْتَحَفُّ معه
قراءة ما طال من الكتب الطوال.

ولولا سوء ظني بمن يُظهِرُ التماسِ العلم في هذا الزمان،
ويذكر اصطناعِ الكتبِ في هذا الدهر - لَمَا احتجْتُ في
مداراتهم واستمالتهم، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم،
مع كثرةِ فوائد هذا الكتابِ - إلى هذه الرياضة الطويلة،
وإلى كثرة هذا الاعتذار، حتى كأنَّ الذي أُفيدُهُ إياهم
أستفيدُهُ منهم، وحتى كأنَّ رغبتني في صلاحهم، رغبةً من
يُرْعَبُ في دنياهم، ويتضرَّعُ إلى ما حوته أيديهم.

هذا، ولم أذكر لك من الأبواب الطوال شيئاً، ولو قد
صرت إلى ذكرِ فرقٍ ما بين الجن والإنس، وفرق ما بين
الملائكة والأنبياء، وفرق ما بين الأنثى والذكر، وفرق ما
بينهما وبين ما ليس بأنثى ولا ذكر، حتى يمتدَّ بنا القولُ في
فضيلة الإنسان على جميع أصنافِ الحيوان، وفي ذكر
الأمم والأعصار، وفي ذكر القسم والأعمار، وفي ذكر
مقادير العقول والعلوم والصناعات، ثم القول في طباع
الإنسان منذُ كان نطفةً إلى أن يُفنيه الهَرَم، وكيف حقيقة
ذلك الرَدِّ إلى أرذل العمر، فإن مَلَّيتَ الكتابَ واستثقلت
القراءة، فأنت حينئذٍ أعدٌّ، ولحظَّ نفسك أبخسٌ، وما
عندي لك من الحيلة إلا أن أصوِّره لك في أحسن صورة،
وأقلِّبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرجُ من
الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا
تخرجُ من الحديث إلا إلى الشعر الصحيح، ولا تخرجُ من
الشعر الصحيح الظريف إلا إلى المثل السائر الواقع،

ولاتخرج من المثل السائر الواقع إلا إلى القول في طرف
الفلسفة، والغرائب التي صحَّحتها التجربة، وأبرزها
الامتحان، وكشَّف قِنَاعَهَا البُرْهَانُ، والأعاجيب التي
للنفوسِ بها كَلْفٌ شديدٌ وللعقول الصحيحة إليها النزاع
القويّ. ولذلك كتبه لك، وسُقِّته إليك، واحتسبتُ الأجرَ
فيك.

فانظر فيه نظرَ المنصِفِ من الأكفاء والعلماء، أو نظرَ
المسترشدِ من المتعلِّمين والأتباع، فإن وجدت الكتابَ
الذي كتبه لك يخالفُ ما وصفتُ فأنقِصني من نشاطك له
على قَدْر ما نَقَصْتُكَ مما ينشطك لقراءته، وإن أنت
وجدتني - إذا صحَّ عقلُك وإنصافُك - قد وقَّيتُكَ ما ضمننتُ
لك فوجدتَ نشاطك بعدَ ذلك مدخولاً، وحدَّكَ مفلولاً
فاعلم أنا لم نُؤتَ إلا من فُسولتِكَ، و من فسادِ طبعك،
ومن إيثارك لما هو أضربُك.

مديح النصارى واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس

من ذلك ما هو مديحُ رغبة، ومنه ما هو إحماد.

أنشدنا أبو صالح مسعود بن قنْد الفزاريّ، في ناسٍ خالطهم من اليهود:

وجدنا في اليهودِ رجالَ
ما كانَ من دينِ يريبُ
صدق

لعمركَ إنني وابني عريضُ الماءِ خالطهُ الحليبُ
خيلاً اكتسبُتْهُمَاتِ وإنِّي ماجدٌ أبداً كسوبُ

وقال أبو الطَّمَحانِ الأَسديّ، وكان نديماً لناسٍ من بني الحَدَّاءِ وكانوا تَصَارِي، فأحمدَ يَدامهم

فقال:

لم يكنْ قصرٌ وزورةٌ ظلُّ ناعمُ
مقاتلٌ وصدیقٌ

أردُّ البحطاءِ أمزجُ بخمرٍ من البرِّ وقتينِ
ماءها عتيقُ

كلُّ فضفاضٍ لا قميصها جرى فيه المدامُ
فنيقُ

الصلتِ والحداءِ كلُّ في العروقِ الصالحاتِ
سَمِيدِعُ عروقُ

وإنْ كانوا نصارى ويرتأخُ قلبي نحوهم
أحبُّهم ويتوقُّ

وقال ابنُ عَبْدَلِ، أو غيرُه، في مجوسٍ ساق عنه صدأفاً فقال:

شهدتُ عليك بطيبِ
وأنكُ بحرٌ جوادٌ خضمُّ
المشا

سيدُ أهلِ الجحيمِ ما ترديتَ فيمن ظلمُ
نظيراً لها مانَ في قعرِها عاونَ والمكتنى

بالحكم كفاني المجدوسيُّ مَهْرٌ فدى للمجوسيِّ خالي

فقال له المجوسيُّ: جعلتني في النار؟ أمّا ترضى أن تكون مع مَنْ سميْتُ؟ قال: بلى، قال:
فمن تعني بالحكم؟ قال: أبا جهل بن هشام.

وأنشدني أبو الرُّدَينِي العُكَلِيّ، لبعض العُكَلِيّين، وكان قينٌ لهم أحدٌ جلماً له، فقال يمدحه:

سودُ يا أكرمَ قينٍ في مضرٍ
المساعي كلهاً والمفتخرُ
قُيون الناس، و الوجهُ الأغرُ
أبوكَ رجلاً لا يُفتَسِرُ
إذا ما هو بالكيرِ ازبأرُ
زادك نفخاً تلتظي منه سقرُ
يطيرَ حوله منها شررُ
عطف الكتيفَ حتى قد مهزُ
بالشعب إن شاء وإن شاء سَمَرُ
زالَ مُدٌّ كانَ غلاماً يشتبرُ
على العيرِ إكافٌ وثغرُ
والكلبتانِ والعلاءُ والوترُ
فانظرِ تَوَابِي، والتَّوَابُ ينتظرُ
جَلَمِيَّ والأحاديثُ عِبَرُ

من أراد أن يمدح فهجا

قال سعيد بن سَلْم: لما قال الأخطلُ بالكوفة: أخطأ الفرزدقُ حين قال:

عُدَانَةٌ إِنني حَرَزْتُكُمْ هَبْتكم لِعَطِيَّةِ بنِ جِعَالِ
عَطِيَّةٌ لاجتَدَعْتُ
أُنُوفَكُم
بين أُمِّ أَعْيُنِ وَسِبَالِ

كيف يكون قد وهبهم له وهو يهجوهم بمثل هذا الهجاء؟ قال: فانبرى له فتى من بني تميم فقال له: وأنت الذي قلت في سويد بن منجوف:

جِدْعُ سَوءٍ رَفَقَ
السُّوسُ جَوْفَهُ
حُمْلَنُهُ وائِلٌ بمطيق

أردت هجاءه فزعمت أن وائلاً تعصبُ به الحاجات، وقَدَّرُ وسويد لا يبلغ ذلك عندهم، فأعطيته الكثيرَ ومنعته القليلَ.

وأردت أن تهجوَ حاتمَ بنَ النعمانِ الباهليِّ، وأن تصعَّرَ شأنه، وتَصَعَّ منه، فقلت:

وسَوَدَ حاتماً أن ليس فيها ما أوقدَ النيرانُ نارُ

فأعطيته السُّوددَ من قيس ومنعته ما لا يضُرُّه.

وأردت أن تمدح سِماكَ بن زيد الأَسدي فهجوته فقلت:

المجيزُ سِماكُ من يَلْطِفُ إِذْ قَتَلْتَ جِيراتِها

كُنْتُ أَحسِبُهُ قَيْظاً لِيَوْمِ طَيْرٍ عن أثوابه
وَأُنَبِّؤُهُ الشَّرُّ

وقلت في زُفرِ بنِ الحارثِ:

أَمِيَّةُ إِنِّي ناصِحٌ لَكُمْ يَبِيْتَنَّ فَيْكُمْ آمِناً زُفْرُ
مُفْتَرِشاً كافتراش الليثِ لَوْقَعَةٍ كائن فيها لكم جَزْرُ
كَلِكَلُهُ

فأردت أن تُعْريَ به بني أُمِيَّةَ فوهنت أمرهم، وتركتهم ضُعفاءَ ممتَهِنِينَ، وأعطيت زُفْرَ عليهم من القوة ما لم يكن في حسابه.

قال: ورَجَعَ أبو العَطافِ من عند عمرو بن هَدَّابِ، في يومين كانا لعمرو، وأبو العَطافِ يضحك، فسئل عن ذلك فقال: أما أحدُ اليومينِ فَإِنَّهُ جَلَسَ للشعراءِ، فكان أولُ من أنشده المديحَ فيه طريفُ بنِ سَوادَةَ، فما زال يُنشدُهُ أرجوزةً له طويلة، حتى انتهى إلى قوله:

أَبْرَصُ فَيَاضُ اليَدَيْنِ أَكَلَفُ
وَأَعْرَفُ
أَنْدَى بِاللُّهُيْ

مجلوّد في الرّحفات مِرْحَفٌ

المجلوّد: السريع.

وكان عمرو أبرص فصاح به ناس: ما لك؟ قطع الله لسانك: قال عمرو: مة، البرص من مفاخر العرب، أما سمعتم ابن حنساء يقول:

امرؤ حنظليُّ حين تنسُبني
عَتِيكَ ولا أخوالي
تحسبن بياضاً فيّ العَوْقُ
اللّهاميمَ في أقرابها
مَنْقَصَةٌ

أو ما سمعتم قول الآخر:

كأسٌ لا تستنكري نُحولي
ووضحاً أوقى على خَصيلي

تَعَتِ الفرسِ الرّجيكهلُ بالغرّة والتّحجيلِ

أو ما سمعتم بقول أبي مسهر:

يَشْتُمَنِي زَيْدٌ بَأْنٍ كُنْتُ
كريمٍ لا أبالك أبرصٌ
أَبْرَصاً

ثم أقبل على الرّاجز فقال: ما تحفظ في هذا؟ قال: أحفظُ واللهِ قوله:

أُخْتٌ سَعْدٍ لا تُعْرِي بِالرَّوْقِ
يَضُرُّ الطَّرْفَ تُولِعُ
الْبَلَقُ
جَرى في حَلْبَةِ الخيلِ

ومحمد بن سلام يزعم أنه لم ير سابقاً قطّ أبلق ولا بقاء.

وقد سبق للمأمون فرس، إمّا أبلق وإمّا بقاء.

وأنشدني أبو نواسٍ لبعض بني نهشل:

تَفَرَّتْ سَوْدَةٌ عَنِّي أَنْ
الرَّأْسِ وفي الجلدِ

يا سَوْدَةَ هذا والذي الكُرْبَةَ مِنَّا والكلخُ

زَيْنٌ لِي فِي الْوَجْهِ كَمَا الطَّرْفَ تَحَاسِينُ الْفَرْحِ

وزعم أبو ثواس أنهم كانوا يتبركون به، وأن جَذِيمَةَ الوَصَّاحِ كان يفخرُ بذلك.

وزعم أصحابنا أن بَلْعَاءَ بْنَ قَيْسٍ، لَمَّا شَاعَ فِي جِلْدِهِ الْبَرَصُ قال له قائل: ما هذا يا بَلْعَاءُ؟
فقال: هذا سيف الله جَلَاهُ، وكنانة تقول: سيف الله خَلَاهُ.

ثم رجع الحديثُ إلى أَبِي الْعَطَّافِ وَصَّحِكَ، قال: وأما اليوم الآخرِ فَإِنَّ عَمْرَأً لَمَّا ذَهَبَ بِصِرْهُ،
وَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسَ يُعَرِّوْتَهُ، دخل عليه إبراهيمُ بْنُ جَامِعٍ، وهو أبو عَنَابٍ مِنْ آلِ أَبِي مَصَادٍ، وكان
كالجمل المحجوم، فقام بين يدي عمرو فقال: يا أبا أُسَيْدٍ لا تجزَعَنَّ مِنْ ذَهَابِ عَيْتِكَ وَإِنْ كَانَتْ
كِرِيمَتِكَ؛ فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ ثَوَابَهُمَا فِي مِيزَانِكَ تَمْنَيْتَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ يَدَيْكَ
وَرَجَّلَيْكَ، وَدَقَّ ظَهْرَكَ، وَأَدَمَى ضِلْعَكَ.

قال: فصاح به القومُ وَصَّحِكَ بعضهم، فقال عمرو: معناه صحيحٌ، ونيته حسنة، وإن كان قد
أخطأ في اللفظ.

وقلتُ لأبي عَنَابٍ: بلغني أن عبد العزيز الغزالي قال: ليت أن الله لم يكن خَلَقَنِي، وأني الساعة
أَعُورٌ، قال أبو عَنَابٍ: بئسَ ما قال؛ وددتُ والله أن الله لم يكن خَلَقَنِي وَأَتَى السَّاعَةَ أَعْمَى
مَقْطُوعُ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ.

وأتى بعضُ الشعراءِ أبا الواسعِ وَبُئُوهُ حَوْلَهُ، فاستغفاه أبو الواسعِ مِنْ إِنْشَادِ مَدِيحِهِ، فلم يزلْ
به حتى أَدِنَ لَهُ، فلما انتهى إلى قوله:

فَكَيْفَ تُنْفَى وَأَنْتَ الْيَوْمَ رَأْسُهُمْ وَحَوْلَكَ الْغُرُّ مِنْ أَبْنَائِكَ الصَّيِّدِ

قال أبو الواسعِ: ليتك تركتهم رأساً برأس.

ومدح الممرِّقِ أبو عباد بن الممرِّقِ، بِشَرِّ بْنِ أَبِي عَمْرٍو وَليْسَ هُوَ بِبَشَرٍ بِنِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ
فقال:

كَانَ يَزْعُمُ أَنْ يَشْرَأَ مُلْصَقٌ يَجْزِيهِ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ

تَنْبِيكَ قَامْتُهُ وَقَلُّهُ وَتَشَادِقُ فِيهِ وَلَوْ لَحِمِهِ أَسْحَمُ

الصريح المحض والعرق مُنكشف لمن
دلالة يتوسم
لسانك واحتباؤك زارة العُدسي عندك
الملا أجم
لأرجو أن يكون ورأ، وشائك الحسود
مقالهم المرعم

خطأ الكميت في المديح

وَمِنَ الْمَدِيحِ الْخَطَأَ الَّذِي لَمْ أَرِ قَطُّ أَحَبُّ مِنْهُ، قَوْلُ الْكَمَيْتِ بْنِ زَيْدٍ وَهُوَ يَمْدَحُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَوْ كَانَ مَدِيحَهُ لِبَنِي أُمَيَّةَ لَجَازَ أَنْ يُعَيَّبَهُمْ بِذَلِكَ بَعْضُ بَنِي هَاشِمٍ، أَوْ لَوْ مَدَحَ بِهِ بَعْضُ بَنِي هَاشِمٍ لَجَازَ أَنْ يُعْتَرِضَ عَلَيْهِ بَعْضُ بَنِي أُمَيَّةَ، أَوْ لَوْ مَدَحَ أَبَا بَلَالٍ الْخَارِجِيَّ لَجَازَ أَنْ تُعَيَّبَهُ الْعَامَّةُ، أَوْ لَوْ مَدَحَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ لَجَازَ أَنْ يُعَيَّبَهُ الْمَخَالِفُ، أَوْ لَوْ مَدَحَ الْمَهَلَّبَ لَجَازَ أَنْ يُعَيَّبَهُ أَصْحَابُ الْأَحْنَفِ.

فأما مديح النبي صلى الله عليه وسلم، فمن هذا الذي يسوءه ذلك حيث قال:

فاعتبت الشوق من فؤادي
ولاشع
السراج المنير
أحمد لا
يعدلني رغبة ولا رهبة

إلى غيره، ولو رفع إلى العيون
توارت قبوا
وقيل: أفرطت بل
قصدت ولو
عنفني القائلون أو
تلبوا
يا خير من تضمنت ولو عاب قولي
العيب
بتفضيلك اللسان فيك الضجاج
واللجب

المصطفى المحضُ نسبةٌ إنْ نص قومكُ المهذبُ في الِ النسبُ

ولو كان لم يقلْ فيه عليه السلام إلا مثلَ قوله:

وَبُورِكَ قَبْرُ أَنْتَ فِيهِ وله أهلٌ بذلك يَثْرِبُ
وَبُورِكَتُ
عَيَّبُوا بَرًّا وَحَزْمًا عَشِيَّةً وَارَاكَ الصَّفِيحُ
وَنَائِلًا المنصَّبُ

فلو كان لم يمدحْه عليه السلام إلا بهذه الأشعار التي لا

تصلح في عامة العرب لما كان ذلك بالمحمود، فكيف مع

الذي حَكينا قبل هذا؟.

غلط بعض الشعراء في المديح والفخر

ومن الأشعار الغائظة لقبيلة الشاعر - وهي الأشعار التي لو طنَّت الشعراءُ أن مَصَرَّتْهَا تَعُودُ
يُعْشَرُ ما عادتْ به، وكان الخرسُ أَهْوَنَ عليها من ذلك القول - فمن ذلك قولُ لبيدِ بنِ ربيعةَ:

كَلَابٍ كَيْفَ تُنْفِي صَبْنِينَةَ حَاضِرُ
جَعْفَرُ والأجبابِ
ابنَ عَرَوَةَ ثَمَّ لَطَوَا تحاكمتمْ إلى جوابِ
دونه
يِرْعُونَ مَنْخَرِقَ الْقَدِيدِ العزُّ أسْرَةُ حَاجِبِ
كَأَنَّهُمْ وشهابِ
مُتَظَاهِرُ حَلْقِ الْحَدِيدِ زرارة أو بني عَتَابِ
عَلَيْهِمْ
لَهُمْ عَرَفَتْ مَقْعَدُ والحقُّ يعرفهُ ذوو الألبابِ
فَضْلَهَا

ومن هذا الباب قولُ منظور بن زبَّان بن سَيَّار بن عمرو بن جابر القَرَاري، وهو أَحَدُ سادةِ عَطفان:

فجاؤوا بجمعٍ مُخزِلٍ دارمٍ إذا كان في الناسِ كأنهم

وذلك أن تميمًا لما طالَ افتخارُ قيسٍ عليها بأن شعراء تميم كانت تضربُ المثلَّ بقبائل قيس ورجالها، فعَبَّرَتْ تميمُ زماناً لا ترفعُ رؤوسها حتى أصابتْ هذين الشعْرين من هذين الشَّاعرين العظيْمي القدر، فزال عنها الدُّلُّ وانتصفت، فلو علم هذان الشاعران الكريمان ماذا يصنعان بعشائرهما لكانَ الحرسُ أحبَّ إليهما.

قال أبو عبيدة: ومن ذلك قولُ الحارث بن جِلَّة، وأنشدها الملكَ وكان به وصحٌّ وأنشده من وراء سِتر فبلغ من استحسانه القصيدة إلى أن أمرَ برْفَع السِّتر.

ولكراھتهم لدُؤِّ الأبرصِ منهم قال لبيدُ بن ربيعة، للشُّعْمان بن المنذر، في الربيع بن زياد:

أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلُ
اسْتَه مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّعَهُ

يُدْخِلُ فِيهَا إِصْبَعَيْدَ خِلْهَا حَتَّى يُوَارِي أَشْجَعَهُ
يَطْلُبُ شَيْئاً صَيَّعَهُ

قال ابنُ الأعرابيِّ: فلما أنشدَ الملكَ لبيدُ في الربيع بن

زيادٍ ما أنشد قال الربيعُ: أبيت اللعن، والله لقد نكث

أمه، قال: فقال لبيد: قد كانت لعمري يتيمة في جرك،

وأنت رببتها، فهذا بذاك، وإلا تكن فعلت ما قلت فما

أولاك بالكذب وإن كانت هي الفاعلة فإنها من نسوةٍ

لذلك فُعل، يعني بذلك أن نساء عَبَسَ فَوَاجِرُ، لأن أمه

كانت عَبَسِيَّة.

والعربيُّ يعافُ الشيءَ ويهجو به غيره، فإن ابْتُليَ بذلك فَخَّر به، ولكنه لا يفخُرُ به لنفسه مِنْ جهةٍ ما هجا به صاحبه، فافهم هذه، فإن الناس يَغْلُطُونَ على العَرَبِ ويزعُمون أنهم قد يمدحون الشيء الذي قد يهجون به، وهذا باطلٌ، فإنه ليس شيءٌ إلا وله وجهان وطرفان وطريقان، فإذا مدحوا ذكروا أحسنَ الوجهين، وإذا دَمُّوا ذكروا أقبحَ الوجهين.

والحارثُ بنُ جِلَّةَ فَخَّرَ بيكر بنِ وائلٍ على تَغْلِبِ، ثم عاتبهم عتاباً دَلَّ على أنهم لا ينتصفون منهم، فقال:

وأنا عن الأراقم أنباوخطبُ نُعَنَى به ونساءُ
يخلطونَ البريءَ منا بذي ولا ينفَعُ الخليَّ الخلاءُ
الذن
زعموا أن كلَّ منْ ضرب مَوَالِ لنا وأنا الولاء

إخواننا الاراقمَ يغلوعلينا في قولهم إحفاءُ

ثم قال:

واتركوا الطيخ والتعاشيتي عاشوا ففي التعاشي
الداءُ

واذكروا حلفَ ذي المجازِ فيه، العهودُ والكفلاءُ
ق

الجورِ والتعدي وهل ما في المهارقِ
الأهواءُ

واعلموا أننا وإياكم في
اشترطنا يومَ اختلفنا
ستواءُ

علينا جناً كندةً أن يغازيهمُ ومنا الجزاءُ
علينا جراً حنيفةً أم جمعتُ من محاربٍ غبراءُ

علينا جراً قضاةً أم علينا فيما جنوا أنداءُ
منا المضربونَ، ولا ولا جندلُ، ولا الحداءُ

جنايا بني عتيق. فمننا من غدرهم برآءُ

باطلاً شдохاً
كمائع
عن حجرةٍ لاربيض
الطبائُع

ومن المديح الذي يقُبح، قولُ أبي الحلال في مَرثِيَةِ يزيدَ بنِ مُعاويةَ، حيث يقول:

أيُّها الميتُ بخوارينا خيرُ الناسِ أجمعينا

وقال الآخر:

مدحتُ خيرَ العالمين
عَنقَشَا
يشبُّ زهراءَ تقود الأعمشا

وقال الآخر:

الذي أمسى يُسمَّى اسماً نبيهاً لم يكن تُنبِيزا

ابْتَدَرْنَا القَصَبَ
المركوزا
وَجَدْتُنِي ذا وثبةِ أبورَا

ودخل بعضُ أغثاءِ البصريين على رجل من أشرف الوجوه يُقال في نسبه، فقال:
إني مَدَحْتُكَ بشعر لم تُمدَحْ قطُّ بشعر هو أنفعُ لك منه، قال: ما أَحْوَجُنِي إلى المنفعة، ولا
سَيِّمًا كلُّ شيءٍ منه يخلدُ على الأيام، فهاتِ ما عندك فقال:

سَأَلْتُ عَنِّ أَصْلِكَ فِيمَا
تَسْعِينِ وَقَدْ تَيَّفُوا
مَضَى
فَكُلُّهُمْ يَخْبِرُنِي أَنَّهُ مُهَذَّبٌ جَوْهَرُهُ يُعْرَفُ
فَقَالَ لَهُ: قُمْ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ فَلَعَنَكَ اللَّهُ وَلَعَنَ مَنْ
سَأَلْتَ وَلَعَنَ مِنْ أَجَابِكَ.

في السُّخْفِ وَالْبَاطِلِ

وسنذكر لك باباً من السُّخْفِ، وما نتسَخَّفُ به لك، إذ كان الحق يثقلُ ولا يخفُّ إلا ببعض
الباطل.

أنشدنا أبو نُؤَاسٍ فِي التَّدْلِيكِ:

تَبَخَّلِي بِالرَّكَبِ الْمَحْلُوقِ عِنْدِي رَاحَتِي وَرِيقِي
وهذا الشعرُ مما يُقالُ إن أبا نُؤَاسٍ ولَدَهُ.
ومما يُظَنُّ أَنَّهُ ولَدَهُ قَوْلُهُ:

كَاللَّيْلَةِ فِي التَّوْفِيقِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ
فِيهِ لَهَبَ الْحَرِيقِ
وَأَنشَدَنِي ابْنُ الْخَارِكِ لِبَعْضِ الْأَعْرَبِ فِي التَّدْلِيكِ:

بَارَكَ الْإِلَهَ فِي الْأَخْرَاحِ فِيهَا عَدَمَ اللَّقَاحِ
حَيْرَ فِي السَّفَاحِ وَاللَّقَاحِ مُنَاجَاةَ بَطُونِ الرَّاحِ
وَأَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ:

تَسْأَلُنِي مَا عَتِدِي فَإِنِّي يَا بِنْتَ آلِ مَرْثَدٍ

وعنددي راحلتي رجلاي اسراتي

وأشدني بعض أصحابنا لبعض المدتيين:

أصفي هوى النفس غير حليلة لا تسومني تفقه
مُتَّب
تكون عوني على الزماكسب إذا ما أخفقت
مُرْتَفَقَه

وشعر في ذلك سمعناه على وجه الدهر، وهو قوله:

تزلت بوادٍ لا أنيس به
فاجلذ عميرة لا عار ولا

وأشدنا أبو خالد التميمي:

أنها رخصة قصيت من جلدتها تربي على
وطري السقن
أشكو إلى الله نغظا قد ألقى من الإملاق
والحزن به

وقال الذكواني يرد على الأول قوله:

جلدي عميرة فيه العار والعجز مطرح والفحش
والحوب مسبوب
وبالعراق نساء كالمها بأرخص السوم خدلات
قطف منا حيب
عميرة من ثدياء كالعاج صفرها الأكنان
حالية والطيب

قال: مثل هذا الشعر كمثل رجل قيل له: أبوك ذاك الذي مات جوعا؟ قال: فوجد شيئا فلم

يأكله؟ وقال الحرامي:

عالة وكساد سوق لا ينام ولا ينيم

مما قالوا في السر

قال ابن ميادة:

أَتْظَهْرُ مَا فِي الصَّدْرِ أَمْ وَكِتْمَانُهُ دَاءٌ لِمَنْ هُوَ
كَاتْمُهُ كَاتْمُهُ
وَإِضْمَارُهُ فِي الصَّدْرِ دَاءٌ وَإِظْهَارُهُ شَنْعٌ لِمَنْ هُوَ
وَعِلَّةٌ عَالِمُهُ

وتقول العرب: من ارتاد لسيرته موضعاً فقد أشاعه.

وأرى الأول قد أذن في واحدٍ وهو قوله:

وَسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ امْرِئٍ الثَّلَاثَةِ غَيْرُ الْخَفِيِّ

وقال الآخر فيما يوافق فيه المثل الأول:

تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا
رَأَيْتُ غُوَاةَ الرَّجَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا

وقال مسكين الدارمي:

مَا خَلِيلِي خَانَنِي فَذَاكَ وَدَاعِيهِ وَذَاكَ
وَائْتَمَنْتُهُ وَدَاعُهَا
رَدَدْتُ عَلَيْهِ وُدَّهُ مَطْلَقَةً لَا يُسْتَطَاعُ
وَتَرَكْتُهَا رَجَاؤُهَا
أَمْرٌ مَنِي الْحِيَاءِ أَعِيشْ بِأَخْلَاقٍ قَلِيلٍ
تَرَى خِدَاعُهَا
أَوْ أَخِي رَجَالًا لَسْتُ أُطَلِّعُ سِرَّ بَعْضِ غَيْرِ أَنِي
بَعْضَهُمْ جِمَاعُهَا
يَظْلَوْنَ شَتَّى فِي الْبِلَادِ صَخْرَةَ أَعْيَا الرِّجَالِ
وَسِرَّهُمْ انْصِدَاعُهَا

وقال أبو محجن التقي:

أَجُودٌ وَمَا مَالِي بَذِيءٍ أَكْتُمُ السِّرَّ فِيهِ ضَرْبُهُ
الْعُنُقُ

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: من كتم سيرة كان الخيار في يده.

وقال بعض الحكماء: لا تُطلع واحداً من سرك، إلا بقدر ما لا تجد فيه بدّاً من معاونتك، وقال

آخر: إِنَّ سِرَّكَ مِنْ دَمِكِ، فانظر أين تُرْبِقُهُ.

وقال الشاعر:

قَدَرْتُ عَلَى نَسِيَانٍ مَا الضَّلُوعُ مِنَ الْأَسْرَارِ
اشْتَمَلْتُ وَالْحَبْرِ
لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ يَنْسِي كُنْتُ مِنْ نَشْرِهَا يَوْمًا
سِرَائِرِهِ خَطِرِ

وقال الآخر:

اسْتَوَدَعْتُ سِرًّا أَحَدًا اسْتَوَدَعْتُ بِالسِّرِّ دَمَكَ

وقال قيس بن الخطيم:

صَبَّحَ الْإِخْوَانُ سِرًّا لِأَسْرَارِ الْعَشِيرِ أَمِينُ
فَإِنِّي
يَكُونُ لَهُ عِنْدِي إِذَا مَا مَكَانُ بَسْوَدَاءِ الْفُؤَادِ مَكِينُ
اِثْمِنْتُهُ

وقيل لمزبذ: يا مُزَبَذ، ما هذا الذي تحت حزنك؟ فقال: يا أحمق، فلم خباؤه؟ وقال أبو

السَّيْبِ:

السِّرُّ فِي صَمَاءٍ لِيَهْضَلُوهُ كَمَا عَايَنْتَ مِنْ سَائِرِ
بِصْخَرَةٍ الصَّخْرِ
وَلَكِنهَا قَلْبِ امْرِئٍ ذِي صَيْعَةِ الْأَسْرَارِ هَتْرًا
حَفِيظَةٍ الهتر

يَمُوتُ وَمَا مَاتَتْ كَوَيْلَتِي وَمَا يَبْلَى تَنَاهُ

فَعَلِهِ الدَّهْرِ

وقال سُحَيْمُ الْفَقْعَسِيُّ، فِي نَشْرِ مَا يُودَعُ مِنَ السِّرِّ:

أَكْتُمُ الْأَسْرَارَ لَكِنْ أَدْعُ الْأَسْرَارَ تَغْلِي عَلَيَّ
أَذِيغُهَا
قَلِيلَ الْعَقْلِ مِنْ بَاتِ الْأَسْرَارِ جَنبًا إِلَى
جَنبِ لَيْلِهِ

وقال القَرَار السُّلَمِي - وهذا الشعر في طريقِ شعْرِ سُحَيْمٍ، وإن لم يكن في معنى السرِّ -
وهو قوله:

وكتيبةٍ لبستها بكتيبةٍ
إذا التبستُ نفضتُ
بهايدي

وتركئهمُ تقصُّ الرماحُ
بين منجدلٍ وآخر
ظهورهم
مسندٍ

كانَ ينفعني مقالُ
وقتلُ دون رجالهمُ: لا
نسائهم
تَبَعِدِ

تخاذل أسلم بن زرعة وقيل لأسلم بن زُرعة إنك إن

انهزمت من أصحابِ مِرْدَاسِ بن أدِيَّة غَضِبَ عليك الأمير

عبيدُ الله بن زياد قال: يغضبُ عليَّ وأنا حيٌّ؛ أحبُّ إليَّ

من أن يرضى عني وأنا ميِّتٌ.

قال: ووليَّ دسَّيبي فخرج إليها في أصحابه، فلما شارفها

عرضتُ له الخوارجُ، وكان أكثر منهم عدداً وعُدَّة، فقال:

والله لأصافقنهم، ولأعبين أصحابين فلعلم إذا رأوا كثرتهم

انصرفوا، ولا أزال بذلك قوياً في عملي هذا، فلما رأت

الخوارج كثرة القوم نزلوا عن خيولهم فعزقبوها وقطعوا

أجفان سيوفهم، ونبذوا كل دقيقٍ كان معهم، وصبوا

أسقيتهم، فلما رأى ذلك رأى الموت الأحمر.

فأقبل عليهم فقال: عرقتم دوابكم وقطعتم أجفان
سيوفكم، ونبذتم دقيقتكم؟ خار الله لنا ولكم ثم ضرب
وجوه أصحابه وانصرف عنهم.

ضيق النظام بِحَمْلِ السِّرِّ وكان أبو إسحاق إبراهيم بن
سيار النظام، أَضِيقَ الناسَ صدرًا بِحَمْلِ سِرِّ وكان شَرَّ ما
يكون إِذَا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِ صاحبُ السِّرِّ وكان إِذَا لم يُؤَكِّدْ عَلَيْهِ
ربما نسي القِصَّةَ، فيسلمُ صاحبُ السِّرِّ.

وقال له مرةً قاسمُ التَّمَّارِ: سبحان الله ما في الأرض
أعجبُ منك، أودعتك سِرًّا فلم تصبر عن نشره يوماً
واحداً، والله لأشكوئك للناس.

فقال: يا هؤلاء، سَلُوهُ تَمَمْتُ عَلَيْهِ مرةً واحدةً، أو مرتين،
أو ثلاثاً، أو أربعاً، فلمن الذنبُ الآن؟ لم يرضَ بأن يشاركه
في الذَّنْبِ، حتى صَيَّرَ الذَّنْبَ كله لصاحب السِّرِّ.

شعر في حفظ السِّرِّ

وقال بعضُ الشعراء:

خَتَمْتُ الْفَوَادَ عَلَى سِرِّكَ ذَلِكَ الصَّحِيفَةُ بِالْخَاتَمِ
بِي إِلَى حُبِّهَا نَظْرُهُ الْفَرَاشَةُ لِلْجَاحِمِ

وقال البعيث:

تَكْ لَيْلَى حَمَلْتَنِي وَأَبِي لَيْلَى إِذَا لَا أُخُونُهَا
لُبَانَةً حَفِظْتُ لَهَا السِّرَّ الَّذِي كَانَ يَحْفَظُ الْأَسْرَارَ إِلَّا أَمِينُهَا

وقال رجلٌ من بني سعد:

مَا ضَاقَ صَدْرُكَ عَن فَافِشْتَهُ الرِّجَالُ فَمَنْ
حَدِيثٌ تَلُومٌ عَاتَبْتُ مِنْ أَفْشَى وَسَرِي عِنْدَهُ فَأَنَا الظُّلُومُ
حَدِيثِي حِينَ أَسَأَمُ حَمَلَ صَمْنَتُهُ صَدْرِي سَوْوَمُ
سَرِي وَلَسْتُ مَحْدَثًا سَرِي عَرَسِي، إِذَا خَطَرْتُ
خَلِيلًا هَمُومٌ وَأَطْوِي السَّرَّ دُونَ النَّاسِ، اسْتَوْدَعْتُ مِنْ سِرِّ
كَتُومٌ

?اعتذار شيخ

قال: وقيل لشيخ: ويحك ها هنا ناسٌ يسرق أحدهم

خمسين سنة، ويُرْزني خمسين سنةً، وَيَصْنَعُ الْعِظَائِمَ

خمسين سنة، وهو في ذلك كله مستور جميل الأمر، وأنت

إنما لُطِّتَ مِنْذُ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ، وَقَدْ شُهِرَتْ بِهِ فِي الْآفَاقِ

قال: بأبي أنت، ومن يكون سرُّه عند الصَّبيَّان أيُّ شيء
تكونُ حاله.

وصية العباس لابنه أبو الحسن، عن محمد بن القاسم
الهاشمي قال: قال العباسُ بن عبد المطلب لعبد الله
ابنه: يا بُنَيَّ أنتَ أَعْلَمُ مِنِّي، وأنا أَفْقَهُ مِنْكَ إن هذا الرجلَ
يُذْنِكُ - يعني عُمَرُ بن الخطاب - فاحفظُ عني ثلاثاً:
لا تُفْشِ له سِرّاً، ولا تَعْتَابِنَنَّ عنده أحداً، ولا يَطَّلِعَنَّ مِنْكَ
على كِذْبَةٍ.

في ذكر المُنَى

قال: سئل ابن أبي بكرة: أيُّ شيء أَدْوَمُ إِمْتاعاً؟ قال:
المُنَى. قال: وقال يزيد بن معاوية على منبره: ثلاثُ
يُخْلِقَنَّ العَقْلَ، وفيها دليل على الضَّعف: سرعةُ الجوابِ،
وطولُ التَمَتِّي والاستغراق في الضَّحْكِ.
وقال عبايَةُ الجُعْفِي: ما سرَّني بنصبي من المني حُمُرُ

النَّعْمَ .

وقال الأصمعي: قال ابن أبي الزناد: المنى والحلم
أخوان .

وقال مُعَمَّر بن عَبَّاد: الأمانى للنفس، مثلُ التُّرَّهاتِ
لِللِّسَانِ .

وقال الشاعر:

اللَّهُ أَصْدَقُ وَالْأَمَالُ هَذِي الْمَنَى فِي
كَاذِبُهُ الصَّدُورِ وَسَوَاسِ

وقال الآخر:

تَمَنَيْتُ مَالاً بِي الْمَنَى رَوْسُ أَمْوَالِ
مُغْتَبِطاً الْمَفَالِيسِ
الْمَنَى مِثُّ مَنْ هَمُّ تَذَكَّرْتُ مَا فِي دَاخِلِ
حَزَنِ الْكَيْسِ

وقال بعضُ الأعراب:

إِنْ تَكُنْ حَقَّائِكُنْ فَقَدْ عِشْنَا بِهِ رَمْنًا
أَحْسَنَ الْمُنَى رَعْدًا
أَمَانِيٍّ مِنْ سَلَمَى حَسَابِ سَقْتَنِي بِهَا سَلَمَى عَلَى
كَأَنَّمَا بَرْدًا

وقال بشار:

كَرَرْنَا أَحَادِيثَ الزَّمَانِ الَّذِي لَنَا مَحْمُودُهَا
مَضَى وَذَمِيمُهَا

وروى الأصمعي عن بعضهم أنه قال: الاحتلام أطيبت من الغشيان .

وتمنيك لشيء أوفر خطأ في اللذة من قدرتك عليه .

قال: كأنه دَهَبَ إلى أنه إذا مَلَكَ وَجَبَتْ عليه في ذلك المِلْكِ حقوقٌ، وخاف الزوالَ واحتاجَ إلى الحفظ.

وقال: وفي الحديث المأثور: ما عَظُمَتْ نعمةُ اللَّهِ على أحدٍ إلاَّ عَظُمَتْ مؤونةُ الناسِ عليه.
قال: وقيل لمزبَّد: أيسرُّك أن عندك قَتِينَةَ سَرَابٍ؟ قال: يا ابنَ أُمِّ، من يسرُّه دخولُ النارِ بالمجاز؟.

قال: وقدموا إلى أبي الحارث جُمَيْرِ جَامٍ خبيصٍ وقالوا له: أهذا أَطيبُ أم الفالودج؟ قال: لا أَقضي على غائب.

قال: وقال مَدِينِيُّ لرجل: أيسرُّك أن هذه الدار لك؟ قال: نعم، قال: وليس إلاَّ نَعَمَ فقط؟ قال: فما أقول؟ قال: تقول: نعم، وأحمَّ سَنَةَ قال: نعم، وأنا أَعُور.

قال: وقيل لمزبَّد: أيسرُّك أن هذه الجُبَّةُ لك؟ قال: نعم، وأُضْرَبُ عشرين سوطاً، قال: ولم تقول هذا؟ قال: لأنه لا يكون شيءٌ إلا بشيء.

قال: وقال عبدُ الرحمن بن أبي بَكْرَةَ: مَنْ تَمَنَّى طولَ العمرِ فليَوطِّنْ نفسه على المصائب.
يقول: إنه لا يخلو من موتٍ أخٍ، أو عمٍّ، أو ابن عمٍّ، أو صديق، أو حميم وقال المجنون:

حرجات الحيِّ حيثُ
تحملوا
وخيماتكِ اللاتي بمنعرج
اللولي
سليمٍ لا جادكن ربيعُ
بلى لم تبلهن ربوعُ
فقدتك من قلبٍ شعاعٍ نهيتك عن هذا وأنت
قطالما
فقربت لي غيرَ القريبِ،
وأشرفتُ
ثنايا ما لهنّ طلوعُ
جميعُ

أمانيّ بعض الخوارج

قال: وقال عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث: لولا أربعُ خِصالٍ ما أعطيتُ عربياً طاعة: أو ماتت أمُّ عَمْرُو - يعني أمّه - ولو نَسَبْتُ، ولو قرأتُ القرآن، ولو لم يكن رأسي صغيراً.

قال: وقدم عبدُ الملك، وكان يحبُّ الشُّعر فبعثتُ إلى الرواة، فما أتت عَلَيَّ سنةٌ حتى رويثُ الشاهدَ والمثَل، وقصُولاً بعد ذلك، وقدم مُصعبٌ وكان يحبُّ النَّسب، فدعوتُ النَّسَّابين فتعلَّمته في سنة، ثم قدِم الحجاج، وكان يُدني علي القرآن، فحفظته في سنة.

قال: وقال يزيدُ بنُ المهلب: لا أخرجُ حتى أحجَّ، وأحفظَ القرآن، وتموت أمِّي، فخرج قبل ذلك كلّه.

وقال عُبيدُ الله بنُ يحيى: كان من أصحابنا بمَرُو جماعة، فجلَّسنا ذات يومٍ نتمنَّى، فتمنَّيتُ أن أصيرَ إلى العراق من أيامي سالماً، وأن أقدمَ فأتزوج سَماعِ، ألي كَسْكَر. قال: فقديمتُ سالماً، وتزوجتُ سَماعِ، ووليتُ كَسْكَر.

خبر وشعر في نهري دجلة والفرات

قال: ووقف هشامُ بنُ عبد الملك على الفرات، ومعه عبدُ الرحمن بنُ رستم، فقال هشام: ما في الأرض نهراً خيراً من الفراتِ فقال عبد الرحمن: ما في الأرض نهراً شراً من الفرات، أوَّلُهُ لِلْمُشْرِكِينَ، وَأَخْرَهُ لِلْمَنَافِقِينَ.
وقال أبو الحسن: الفرات ودجلة رائدان لأهل العراق لا يكذبان.
قال الأصمعيّ وأبو الحسن: فهما الرائدان، وهما الرَّافدان.
وقال الفرزدق:

المؤمنين وأنت عَفُفٌ لست بالوالي
الحريص

بَعَثَتْ إِلَى الْعِرَاقِ وَرَافِقَتِي رِيًّا أَحَدَ يَدِ الْقَمِيصِ
يَكُ قَبْلَهَا رَاعِي مَخْلِطُوهُ عَلَى وَرَكِّي قُلُوصِ
تَفِيهَقَ بِالْعِرَاقِ أَبُو الْمَثُوعِ قَوْمَهُ أَكَلِ الْخَبِيصِ

قال: وبيننا غيلان بن خريشة، يسيّر معبد الله بن عامر، إذ

وَرَدَا عَلَى نَهْرٍ أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ ابْنُ عَامِرٍ: مَا أَنْفَعَ هَذَا

النهرَ لأهل هذا المصر قال غيلان: أجل أيها الأمير، والله

إنهم لَيَسْتَعْذِبُونَ مِنْهُ، وَتَفِيضُ مِيَاهُهُمْ إِلَيْهِ، وَبِتَعْلَمُ

صبيانهم فيه العَوم، وتأتيهم مِيرَتهم فيه.

فلما أن كان بعد ذلك سائر ذات يوم زياداً - وكان زيادُ

عَدُوًّا لابن عامر - فقال زياد: ما أصرَّ هذا النهرَ بأهل هذا

المصر فقال: أَجَلُ وَاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ تَنْزُّ مِنْهُ دُورُهُمْ، وَيَغْرَقُ فِيهِ صَبِيَانَهُمْ، وَيُبْعَضُونَ وَيُبَزَّعُونَ.

القول في العصافير

وسنقول باسم الله وعونه في العصفور بجملة من القول.

وعلى أننا قد ذكرنا من شأنه أطرافاً ومقطعاتٍ من القول تفرّقن في تضاعيف تلك الأصناف، وإذا طال الكلام وكثرت فنونه، صار الباب القصير من القول في غماره مُسْتَهْلَكًا، وفي حومته غَرِقًا، فلا بأس أن تكون تلك الفقرُ مجموعاتٍ، وتلك المقطعاتُ موصولاتٍ، وتلك الأطراف مستقصياتٍ مع الباقي من ذكرنا فيه؛ ليكون الباب مجتمعاً في مكانٍ واحد، فبالاجتماع تجتمع القوة، ومن الأبعاض يلتئم الكلُّ، وبالنظام تظهر المحاسن.

دعوى الإحاطة بالعلم

ولستُ أدّعي في شيء من هذه الأشكالِ الإحاطة به،
والجمعَ لكل شيء فيه، ومن عَجَزَ عن نظم الكثير، وعن
وضعه في مواضعه - كان عن بُلوغ آخره، وعن استخراج
كل شيء فيه أعجز، والتمتع أهونَ من الاستنباط، والحصدَ
أيسرُ من الحرث.

وهذا البابَ لو ضمّنه على كتابه من هو أكثرُ مني رواية
أضعافاً، وأجود مني حِفْظاً بعيداً، وكان أوسع مني علماً
وأتمَّ عزمًا، وألطفَ نظراً وأصدقَ حِسًّا، وأغوصَ على
البعيد الغامض، وأفهمَ للعويص الممتنع، وأكثرَ خاطرًا
وأصحَّ قريحةً، وأقلَّ سآمةً، وأتمَّ عنايةً، وأحسنَ عادةً مع
إفراط الشهوة، وفراغ البال، وبُعْدِ الأمل، وقوة الطمع
في تمامه، والانتفاع بثمرته، ثم مُدَّ له في العمر، ومكّنته
المقدرة - لكان قد ادّعى مُعْضِلةً، وضمينَ أمرًا معجزاً،
وقال قولاً مرغوباً عنه، متعجباً منه؛ ولكان لغواً ساقطاً،
وحارصاً بَهْرَجاً؛ ولكان ممن يفضلُ قوله على فعله،

وَوَعْدُهُ عَلَى مِقْدَارِ إِنْجَازِهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ، وَإِنْ أُضِيفَ إِلَى
الْكَمَالِ وَعُرفَ بِالْبِرَاعَةِ، وَعَمَّرَ الْعُلَمَاءُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكْمُلُ أَنْ
يُحِيطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ مَا فِي جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، أَيَّامَ الدُّنْيَا، وَلَوْ
اسْتَمَدَّ بِقُوَّةِ كُلِّ نَظَّارٍ حَكِيمٍ؛ وَاسْتَعَارَ حِفْظَ كُلِّ بَحَّاثٍ
وَإِعٍ؛ وَكُلِّ تَقَّابٍ فِي الْبِلَادِ، وَدَرَّاسَةٍ لِلْكَتَبِ.
وَمَا أَشْكَ أَنْ عِنْدَ الْوُزَرَاءِ فِي ذَلِكَ مَا لَيْسَ عِنْدَ الرِّعِيَّةِ مِنْ
الْعُلَمَاءِ، وَعِنْدَ الْخُلَفَاءِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْوُزَرَاءِ، وَعِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ
مَا لَيْسَ عِنْدَ الْخُلَفَاءِ، وَعِنْدَ الْمَلَائِكَةِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ،
وَالَّذِي عِنْدَ اللَّهِ أَكْثَرُ، وَالْخَلْقُ عَنْ بَلُوغِهِ أَعْجَزُ، وَإِنَّمَا عَلَّمَ
اللَّهُ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ خَلْقِهِ بِقَدْرِ إِحْتِمَالِ فِطْرِهِمْ، وَمِقْدَارِ
مَصْلِحَتِهِمْ.

القول في: "عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا"

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا - وَلَا
يَجُوزُ تَعْرِيفُ الْأَسْمَاءِ بِغَيْرِ الْمَعْنَى - وَقُلْتَ: وَلَوْ لَا حَاجَةٌ

الناس إلى المعاني، وإلى التعاؤن والترافُد، لَمَّا احتاجوا
إلى الأسماء، وعلى أن المعانيَ تفضلُ عن الأسماء،
والحاجاتِ تجوزِ مقاديرَ السُّمات، وتَقوت دَزَع العلامات
فمَمَّا لا اسم له خاصُّ الخاصِّ، والخاصِّياتُ كلها ليست لها
أسماءُ قائمة.

وكذلك تراكيب الألوان، والأرايح، والطعوم، ونتائجها.
وجوابي في ذلك: أن الله عزَّ وجلَّ لم يخبرنا أنه قد كان
عَلَّمَ آدَمَ كُلَّ شَيْءٍ يَعْلَمُهُ تَعَالَى، كما لا يجوز أن يُقَدِّرَهُ
على كُلِّ شَيْءٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

وإذا كان العبدُ المحدودُ الجسمِ، المحدودُ القوَى، لا يبلُغُ
صِفَةَ رَبِّهِ الَّذِي اخْتَرَعَهُ، ولا صِفَةَ خَالِقِهِ الَّذِي ابْتَدَعَهُ -

فمعلومٌ أنه إنما عَنَى بقوله: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

كُلَّهَا) عِلْمَ مصلحتهِ في دُنْيَاهِ وَاخِرَتِهِ.

وقال الله عزَّ وجلَّ: "وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ"، وقال الله

عزَّ وجلَّ: "وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ

يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِ سَبْعَةِ أَبْحُرٍ مَا تَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ"، وقال الله تعالى: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، وقال تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: "وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ"، وقال الله عز وجل: "وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ".

وهذا الباب من المعلوم، غيرُ بابِ عِلْمٍ ما يكونُ قبلَ أن يكون؛ لأنَّ بابَ كَانٍ قد يُعْلَمُ بعضُه، وبابُ يكون لا سبيل إلى معرفة شيء منه، والمخاطبةُ وَقَعَتْ على جميع المتعبِّدين، واشتملت على جميع أصناف الممتحنين، ولم تقع على أَهْلِ عَصْرِ دُونَ عَصْرِ، ولا على أَهْلِ بَلَدٍ دُونَ بَلَدٍ، ولا على جنسٍ دُونَ جنسٍ، ولا على تابعٍ دُونَ متبوعٍ ولا على آخِرٍ دُونَ أَوَّلٍ.

أجناس الطير التي تألف دور الناس

العصافير، والخطاطيف، والزراير، والخفافيش، فبين هذه وبين الناس مناسبةٌ ومُشاكلة، وإلفٌ ومحبةٌ.

والخطاطيفُ تقطع إليهم وتغزب عنهم، والعصافير لا تفارقهم، وإن وجدت داراً مبنيةً لم تسكنها حتى يسكنها إنسان، ومتى سكنتها لم تُقم فيها إذا خرج منها ذلك الإنسان، فبفراقه

تُفَارِقُ، وَبُسْكُنَاهُ تَسْكُنُ، وَهَذِهِ فَضِيلَةٌ لَهَا عَلَى الْخَطَاطِيفِ.

الْحَمَامُ لَا يَقِيمُ مَعَهُمْ فِي دُورِهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَتَّبِتُوهُ وَيَعْلَمُوهُ، وَيُرْتَبُّوْهُ حَالَهُ وَيَدْرَجُوهُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ وَحْشِيٌّ طُورَانِيٌّ، وَرَبَّمَا تَوَحَّشَ بَعْدَ الْأُنْسِ وَالْعَصَافِيرِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، فَلَهَا بِذَلِكَ فَضِيلَةٌ عَلَى الْحَمَامِ، وَعَلَى الْخُطَّافِ.

وَقَدْ يُدْرَبُ الْعَصْفُورُ وَيَتَّبَتُّ فَيَسْتَجِيبُ مِنَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ، وَيَتَّبَتُّ وَيَدْرَجُنْ، فَهُوَ مِمَّا يَتَّبَتُّ وَيُعَايِشُ النَّاسَ، مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ مَرَّةً، وَبِالتَّبَتُّ مَرَّةً، وَلَيْسَ كَذَلِكَ شَيْءٌ مِمَّا يَأْوِي إِلَى النَّاسِ مِنَ الطَّيْرِ.

وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَ مَا يَسْتَجِيبُ مِنْهَا قَدْ دَرَّبَ فَرَجَعَ مِنْ مِيلٍ، فَأَمَّا الْهَدَايَةُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ فَمِنْ الْفَرَاسِخِ الْكَثِيرَةِ.

وَحَدَّثَنِي حَمَوِيُّهَ الْخُرَيْبِيُّ وَأَبُو جَرَادِ الْهَزَارْدَرِيُّ قَالَا: إِذَا كَانَ زَمَانُ الْبِيَادِرِ لَمْ يَبِيقْ بِالْبَصْرَةِ عُصْفُورٌ إِلَّا صَارَ إِلَى الْبَسَاتِينِ، إِلَّا مَا أَقَامَ عَلَى بَيْضِهِ وَفِرَاحِهِ، وَكَذَلِكَ الْعَصَافِيرُ إِذَا حَرَجَ أَهْلُ الدَّارِ مِنَ الدَّارِ، فَإِنَّهُ لَا يَقِيمُ فِي تِلْكَ الدَّارِ عُصْفُورٌ إِلَّا عَلَى بَيْضٍ أَوْ فِرَاحٍ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا اسْتَوْحَاشَتْ، وَالتَّمَسَتْ لِأَنْفُسِهَا الْأَوْكَارَ فِي الدُّورِ الْمَعْمُورَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو يَعْقُوبَ إِسْحَاقُ الْخُرَيْمِيُّ:

بَغْدَادُ مَا تَبَّتْ مِنْ وَحْشَةٍ فِي دُورِهَا عَصَافِرُهَا

قَالَا: فَعَلَى قَدْرِ قُرْبِ الْقِبَائِلِ مِنَ الْبَسَاتِينِ سَبَقُ الْعَصَافِيرِ إِلَيْهَا، فَإِذَا جَاءَتِ الْعَصَافِيرُ الَّتِي تَلِي أَقْرَبَ الْقِبَائِلِ مِنْهَا إِلَى أَوَائِلِ الْبَسَاتِينِ فَوَجَدَتْ عَصَافِيرَ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهَا مِنْهَا قَدْ سَبَقَتْ إِلَيْهَا تَعَدَّتْهَا إِلَى الْبَسَاتِينِ الَّتِي تَلِيهَا وَكَذَلِكَ صَنِيعُ مَا بَقِيَ مِنْ عَصَافِيرِ الْقِبَائِلِ الْبَاقِيَةِ حَتَّى تَصِيرَ عَصَافِيرُ آخِرِ الْبَصْرَةِ إِلَى آخِرِ الْبَسَاتِينِ، وَذَلِكَ شَبِيهُهُ

بعشرين فَرَسَخاً، فإذا قضت حاجتها، وانقضى أمرُ البيادر
أقبلت من هناك، على أماراتٍ لها معرفةٌ، وعلامات
قائمة، حتى تصير إلى أوكارها.

ضروب الطير

والطيْرُ كله على ثلاثة أضرب: فضربٌ من بهائم الطير،
وضربٌ كسباع الطير، وضربٌ كالمشترَك المركَّب منها
جميعاً.

فالبهيمة كالحمام وأشباه الحمام، مما يَغْتَذِي الحبوبَ
والبزورَ والنبات، ولا يَغْتَذِي غير ذلك، والسبع: الذي لا
يَغْتَذِي إلا اللحم.

وقد يأكل الأسدُ الملحَ، ليس على طريق التغذية، ولكن
على طريق التَّمْلُح والتحمُّض.

ما يشارك فيه العصفور الطير والحيات

فمَّا يُشَارِكُ فِيهِ الْعَصْفُورُ بِهَائِمِ الطَّيْرِ، أَنَّهُ لَيْسَ بِذِي
مُخَلَّبٍ وَلَا مَنَسَّرٍ، أَوْ هُوَ مِمَّا إِذَا سَقَطَ عَلَى عُرْوٍ قَدَّمَ
أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ، وَأَخَّرَ الدَّابِرَةَ، وَسَبَاعَ الطَّيْرَ تَقَدَّمَ إِبْصَعَيْنِ،
وَتَوَخَّرَ إِبْصَعَيْنِ.

ومما شارك فيه السَّبْعُ أَنَّ بهائم الطير تزق فراخها،
والسَّبْعُ يُلْقِمُ فِرَاخَهَا. والفراخ على ثلاثة أضربٍ: فرخٌ
كالفرُّوج لا يُزَقُّ ولا يُلْقَمُ؛ وهو يظهر كاسباً، وفرخٌ كفرخ
الحمَّام وأشباه الحمام، فهو يُزَقُّ ولا يُلْقَمُ، وفرخٌ كفرخ
العُقاب والباري، والزَّرَقُ، والشاهين والصقر، وأشباهها
من السَّبْعِ فهو يُلْقَمُ ولا يُزَقُّ، فأشبهها العُصفورُ من هذا
الوجه.

وفيه من أخلاق السَّبْعِ: أنه يصيد الجرادة، والنمل الطيَّار،
ويأكل اللحم، ويُلْقِمُ فِرَاخَهُ اللحم، وليس في الأرض رأسٌ
أشبهه برأس حَيَّةٍ من رأس عصفور الأجناس التي تعايش
الناس والأجناس التي تعايش الناس: الكلبُ، والسَّنورُ،

والفرس، والبعير، والحمار، والبغل، والحمام، والخُطَّاف،
والزُّرْزور، والخُفَّاش، والعصفور.

أطول الحيوانات عمراً وأقصره قالوا: وليس في جميعها
أطولُ عُمرًا من البغل، ولا أقصُرُ عمراً من العصفور.
قالوا: ونظن ذلك إنما كان لقلَّةِ سِفَادِ البغل، وكثرةِ سِفَادِ
العصفور.

ويزعمون أن محمدَ بنَ سليمان أنزى البغالَ على
البغلات، كما أنزى العتاقَ على الحُجُور، والبراذينَ على
الرِّمَّاءِ، والحميرَ على الأتن، فوجد تلك الفُحُولَةَ من
البغالِ بأعيانها، أقصَرَ أعماراً من سائر الحافر، حين سَوَّى
بينها في السِّفَادِ، ووَجَدَ البغالَ تُلَقِّحَ إلقاحاً فاسداً لا يتمُّ
ولا يعيش.

وذكروا أن قِصَرَ العُمرِ لم يعرض لإناثها كما عَرَضَ
لذكورتها.

وهذا شبيهٌ بما ذكر صاحبُ المنطق في العصافير، فإنه

ذكر أن إناثها أطول أعماراً، وأن ذكورتها لا تعيش إلا سنةً واحدة.

أثر السمن في الحمل والمرأة تنقطع عن الحبل قبل أن ينقطع الرجل عن الإحبال بدَّهر، وتُفرط في السمن فتصير عاقراً، ويكون الرجل أسمنَ منها فلا يصير عاقراً، وكذلك الحجر، والرَّمَكَة، والأتان، وكذلك النخلة المطعِمة، ويسمنُ لبُّ الفُحَّال فيكون أجود لإلقاحه، وهما يختلفان كما ترى.

الأجناس الفاضلة من الحيوان

وللعصفور فضيلة أخرى، وذلك أنَّ من فضل الجنس أن تتميز ذكوره في العين من إناثه، كالرجل والمرأة، والديك والدجاجة، والفُحَّال والمُطعِمة، والتيس والصفية، والطاوس، والتُدُّج، والذَّراج وإناثها. وليس ذلك كالحجر والقرس، والرَّمَكَة والبردون، والناقة

والجمل، والغير والأتان، والأسد واللَّبَّؤَة، فإن هذه
الأجناس تُقْبَلُ نحوكَ فلا ينفصل في العين الأنثى من
الذكر، حتى تتفقد مواضع القُنْبِ والأطباء، وموضع الصَّرع
والثَّيْل، وموضع تَفْر الكلبة من القضيْب.

لأنَّ للعُصفور الذَّكَرَ لحيَّةً سوداء، وليس للحيَّة إلا للرجل
والجمل، والتيس، والذَّيْكَ، وأشباه ذلك، فهذه أيضاً فضيلةُ
للعُصفور، وذكر ابن الأعرابي أنَّ للناقة عُثُوناً كعثنون
الجمل، وأنها متى كان عُثونها أطولَ كان فيها أحمَد.

حب العصافير فراخها

وليس في الأرض طائرٌ، ولا سبُعٌ ولا بهيمةٌ، أحنى على ولدٍ، ولا أشدَّ به شِعْفاً، وعليه إشفافاً
من العصافير، فإذا أصيبت بأولادها، أو خافت عليها العطب، فليس بين شيء من الأجناس من
المساعدة، مثل الذي مع العصافير، لأن العصفور يرى الحيَّة قد أقبلت نحو جُحره وعُشِّه
ووَكره، لتأكل بيضه أو فراخه، فيصيح ويُرْتَق فلا يسمعُ صوته عُصفورٌ إلا أقبل إليه وصنَّعَ مثلَ
صنيعه، بتحرق ولوعةٍ، وقَلْقٍ، واستغاثةٍ وضُراخ، وربما أفلت الفَرخ وسقط إلى الأرض - وقد
ذهبت الحيَّة - فيجتمعن عليه، إذا كان قد تَبَّت ريشه أدنى نبات، فلا يزلن يُهَيِّجُنَه، ويَطِرُنَ
حوله، لعلمها أن ذلك يحدث للفرخ قوةً على التُّهوض فإذا نهضَ طِرَنَ حواليه ودونه، حتى
يحتسُّه بذلك العمل.

وكان الحُرَيْمِيُّ ينشد:

وَاحْتَتَّ كُلُّ بَازِلٍ دَقُونٍ رَفَعْنَ سَيْرَةَ اللَّجُونِ

وينشد:

وَاحْتَتَّ مُحْتَتَّاتُهَا الْخَدُورَا

وتقول العرب: العاشية تهيج الآبية، ولو أن إنساناً أخذ

فَرَحِي عَصْفُورٍ مِنْ وَكْرِهِ، وَوَضَعَهُمَا بِحَيْثُ يَرَاهُمَا أَبَوَاهُمَا

فِي مَنْزِلِهِ، لَوَجَدَ الْعَصْفُورَ يَتَقَحَّمُ فِي ذَلِكَ الْمَنْزَلِ، حَتَّى

يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْقَفْصِ، فَلَا يَزَالُ فِي تَعَهُدِهِ بِمَا يُعِيشُهُ

حَتَّى يَسْتَعِينِي عَنْهُ، ثُمَّ يَحْتَمِلَانِ فِي ذَلِكَ غَايَةَ التَّغْرِيرِ

وَالْخِطَارِ؛ وَذَلِكَ مِنْ فِرطِ الرَّقَّةِ عَلَى أَوْلَادِهِمَا.

ما لا يسمح بالمشي من الحيوان وأجناس الحيوان التي

لا تستطيع أن تُسمح بالمشي ضروب: منها الضبع، لأنها

خُلقت عَرَجَاءَ، فَهِيَ أَبَدًا تَحْمَعُ، قَالَ الشاعِر:

وَجَاءَتْ جِيَالُ وَأَبُو بَنِيهَا الْمَأْقِيَيْنِ بِهِ حُمَاغُ

وقال مدرك بن حصن:

الْعُتْرُ مَا تَدْرِي أَرْجُلُ الظَّلْعِ إِمَّا هَزَوْلَتْ أُمَّ
شِمَالُهَا يَمِينُهَا

والذئب أقبل شنج النسا، وإن أجت إلى المشي فكأنه يتوجى.

وكذلك الطَّبِي، شنج النَّسَا، فَهُوَ لَا يُسْمَعُ بِالْمَشِيِّ، قَالَ الشاعِر:

وَقُصْرَى شَنْجِ الْأَنْسَا نَبَّاحٍ مِنَ الشُّعْبِ

طَبِيٌّ أَشْعَبُ: إِذَا كَانَ بَعِيدًا مَا بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ، وَلَا يَسْمَعُ لَهُ نُبَاحًا، وَإِذَا أَرَادَ الْعَدُوَّ، فَإِنَّمَا هُوَ النَّقْزُ
وَالوِثْبُ، وَرَفَعَ الْقَوَائِمَ مَعًا.

وَمِنْ ذَلِكَ الْأَسَدِ فَإِنَّهُ يَمْشِي كَأَنَّهُ رَهِيصٌ، وَإِذَا مَشَى تَخَلَّعَ.

قَالَ أَبُو زَيْدٍ:

تَبْهَتَسَنَ يَمْشِي خِلْتَهُ وَعَتَّ سَوَاعِدُ مِنْهُ بَعْدَ

تَكْسِيرِ

وَمِنْ ذَلِكَ الْفَرَسُ، لَا يُسْمَعُ بِالْمَشْيِ، وَهُوَ يُوصَفُ بِسَتْجِ النِّسَاءِ.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

الْأَنْسَاءِ مِنْ غَيْرِ فَحَجَّ

وَمِنْ ذَلِكَ الْغَرَابُ، فَإِنَّهُ يَحْجَلُ كَأَنَّهُ مَقِيدٌ، قَالَ الشَّاعِرُ:

كَتَارِكٍ يَوْمًا مَشِيَّةٍ مِنْ لِأُخْرَى ففَاتَتْهُ فَأَصْبَحَ يَحْجَلُ

سَجِيَّةً

وَقَالَ الطَّرِمَّاحُ:

النِّسَاءُ أَدْقَى الْجَنَاحِ الدَّارَ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ

وَالسُّنُورُ، وَالْقَهْدُ، وَأَشْبَاهُهُمَا فِي طَرِيقِ الْأَسَدِ.

وَالْحَيَّةُ تَمْشِي، وَمِنْهَا مَا يَثِبُ، وَمِنْهَا مَا يَنْتَصِبُ وَيَقُومُ عَلَى ذَنْبِهِ.

وَالْأَفْعَى إِذَا تَهَشَّتْ أَوْ انْبَاعَتْ لِلتَّهَشِّ، لَمْ تَسْتَقِلْ بِيَدْنِهَا كُلَّهُ وَلَكِنهَا تَسْتَقِلُّ بِيَدْنِهَا الَّذِي يَلِي

الرَّأْسَ، بِحَرَكَةٍ وَتَنْشِطٍ أَسْرَعَ مِنَ اللَّفْحِ.

وَالْجَرَادَةُ تَطِيرُ وَتَمْشِي وَتَطْمُرُ، فَإِذَا صِرَتْ إِلَى الْعَصْفُورِ ذَهَبَ الْمَشْيُ الْبَيْتَةَ، وَأَكْثَرَ مَا عِنْدَ

الْبُرْغُوثِ الطُّمُورِ وَالوِثُوبِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ هَانئٍ يَصِفُ رَجُلًا يَفْلِي الْقَمَلَ وَالْبُرْغُوثَ بِأَنَامِلِهِ:

يُنْجِيهِ مِنْهُ وَثَابُهُ

طَامِرِيٌّ وَاثِبٌ

لَأَنَّ الْبُرْغُوثَ مَشَاءً وَثَابٌ.

قَالَ: وَقَوْلُ النَّاسِ: طَامِرُ بْنُ طَامِرٍ، إِنَّمَا يَرِيدُونَ

البرغوث.

والعصفور ليس يعرفُ إلا أن يجمعَ رجليه ثم يثب،
فيضعهما معاً ويرفَعهما معاً، فليس عنده إلا النَّقْرَانُ،
ولذلك سُمِّي العصفورُ نَقَّازاً.

وهو العصفور والجمع عَصَافِير، ونَقَّاز والجمع نَقَاقِير، وهو
الصَّعُو، ويزعمون أن العرب تجعلُ الخَرِّقَ والقُنْبِرَ،
والْحُمَّرَ، وأشباه ذلك كله، من العصافير، والعصفور
طَيْرَانه نَقَّازٌ أيضاً، فهو لا يُسَمِّحُ بالطيران كما لا يسمح
بالمشي.

شدة وطء العصفور

وليسَ لشيءٍ جسمُه مثلُ جسمِ العُصفورِ مراراً كثيرةً، من شدَّةِ الوطاء، وصلابةِ الوقعِ على
الأرض، إذا مشى، أو على السطح - ما للعصفور، فإنك إذا كنتَ تحت السطح الذي يمشي
عليه العصفور حسبتَ وقُعه عليه وقُعَ حَجَرٍ.
والكلبُ منعوثٌ بشدةِ الوطاء، وكذلك الخِصْيَانُ من كل شيء، والعصفور يأخذ بنصيبه من ذلك
أكثرَ من قِسْطِ جسمِه من تلك الأجسام بالأضعاف الكثيرة.
ما يجيد المشي من الحيوان والدُّبَاب من الطير الذي يجيدُ المشي، ويمشي مشياً سَبْطاً حَثِيئاً،
وحسناً مستوياً.

والقطاة مَلِيحَةٌ المِشْيَةُ، مقارِبَةُ الخَطْوِ.

وقد توصف مِشْيَةُ المِراةِ بِمِشْيَةِ القَطَاةِ، وقال الكُمَيْت:

يَمشِينَ مَشْيَ قَطَا البُطَاحِ البُطُونِ رَوَاجِحِ الأَكْفَالِ

وقال الشاعر:

قطا أو بقراتُ

يتمشِين كما تم

لأن البقرة تَبخترُ في مِشْيَتِها.

وقلت لابن دُبُوقاء: أي شيء أول النَّشاجي؟ قال: التباهر والقَرْمَطة في المشي، وقال:

دفعْتُها فتدافعَتْ تمشي القِطَاةِ إلى الغدير
وكلُّ حيوانٍ من ذواتِ الرجلين والأربع، إذا انكسرت لها
قائمة تحامَلت بالصحيحة، إلا النعامة فإنها تسقط البتَّة،

سفاد العصفور

قال: وكثرة عددِ السِّفادِ، والمبالغة في الإبطاء،

والدَّوامُ في كثرة العدد لضروبٍ من الحيوان -

فالإنسانُ يغلبُ هذه الأجناس بأن ذلك دائم منه

في جميع الأزمنة، فأما الإبطاءُ في حال السِّفادِ

فللجمل والوَرَلِ والدَّبَّانِ والخنازير، فهذه فضيلةُ

لذة لهذه الأجناس والأصناف، فأما كثرة العدَد

فللعصافير. سفاد التيس

وقد زعم أبو عبد الله العتبيّ الأبرص، وكان قاطعَ
الشهادة عند أصحابنا البصريين - أن الذي يقال له
المِشْرَطِيُّ قَرَعٌ في يومٍ واحدٍ نيفاً وثمانين قَرْعَةً.
إلا أن ذلك منه ومن مثله ينمحق؛ حتى يعودَ جافراً في
الأيام القليلة.

تيس بني جَمَّان

وبنو جَمَّان يزعمون أن تيسَ بني جَمَّان قَرَعَ وألَقَحَ بعد أن دُبِحَ، وفَحَّرُوا بذلك، فقال بعضُ
من يهجوهم:

بِنِي جَمَّانِ عَسْبُ الْمَجْدِ حَتَّى أَحْرَزَتْهُ
عَثُودِهِمُ الْأَكَارِمُ
زعم لصاحب المنطق وزعمَ صاحبُ المنطق، في كتاب
الحيوان، أن ثُوراً فيما سلف من الدهر سَفِدَ وألَقَحَ من
ساعته بعد أن حُصِيَ.

فإذا أفرطَ المديحُ وخرَجَ من المقدار، أو أفرطَ التعجبُ

وخرج من المقدار - احتاج صاحبه إلى أن يثبت بالعيان، أو بالخبر الذي لا يكذب مثله، وإلا فقد تعرّض للتكذيب. ولو جعلوا حركتهم خيراً وحكاية، وتبرؤوا عن عينه - ما ضرهم ذلك، وكان ذلك أضون لأقدارهم، وأتمّ لمروءات كتبهم.

القول في الجناح واليد والرجل

وقالوا: وكلُّ طائر جيّد الجناح، يكونُ ضعيفَ الرجلين، كالزُرْزُورِ والخُطَّافِ؛ وجناحاهما أجود من جناح العصفور، ورجل العُصفور قويّة. والجناحان هما يدا الطائر؛ لأنهم يجعلون كلَّ طائر وإنسان ذا أربع: فجناحا الطائر يداه، ويذا الإنسان جناحاه، ولذلك إن قُطعت يدُ الإنسان لم يُجد العَدُو، وكذلك إن قُطعتُ رجلُ الطائر لم يُجد الطَّيران. والدابة قد تقوم على رجلين دون يديها، والإنسان قد

يمشي على أربع، قالوا: فهُمْ في عدد الأيدي والأرجل
سواء، وفي الآلات الأربع؛ إلا أن الآلة تكونُ في مكان
بعض الأعمال أليقَ، وهو عليها أسهل، فتجذبُها طبائعها
إلى ما فيها من ذلك، كمشي الدابة على يديها، وثقل ذلك
على الإنسان.

والحمام يضربُ بجناحه الحمامَ، ويقائله به، ويدفع به عن
نفسه، فقوادمه هي أصابعه، وجناحه هو يده ورجله
كالقدم، وهي رجلٌ وإن سَمَّوها كَفًّا، حين وجدوها تكفُّ
به، كما يصنع الإنسانُ بكفه.

وكلُّ مقطوعِ اليدينِ، وكل من لم يُخلق له يدانِ فهو يصنعُ
برجليه عامَّةً ما يصنعه الوافرُ الخلق بيديه.

وكل سبُع يكون شديدَ اليدينِ فإنه يكونُ ضعيفَ الرجلينِ.
وكل شيء من ذوات الأربع، من البراثن والحوافر، فإن
أيديها أكبرُ من أرجلها، والناس أرجلهم أكبرُ من أيديهم،
وأقدامهم أكبر من أكفهم.

وجعلوا رُكَبَهُمْ في أرجلهم، وجعلوا رُكَبَ الدَّوَابِ في أيديها.

نفع العصافير وضررها

وللعصافير طبَاهِجَاتٌ وَقَلَايَا تُدْعَى الْعَصَافِيرِيَّةُ، ولها حَشَاوِي يَطْعَمُهَا الْعَوَامُّ الْمَفْلُوجُ، وَالْعَوَامُّ تَأْكُلُهَا لِلقُوَّةِ عَلَى الْجِمَاعِ، وَعِظَامُ سُوقِهَا وَأَفْخَازِهَا أَحَدٌ وَأَذْرَبٌ مِنَ الْإِبْرِ، وَهِيَ مَخُوفَةٌ عَلَى الْمَعْدَةِ وَالْأَمْعَاءِ. وَهِيَ تَخْرُبُ السُّقْفَ تَخْرِيبًا فَاحِشًا، وَتَجْتَلِبُ الْحَيَّاتِ إِلَى مَنَازِلِ النَّاسِ؛ لِحِرْصِ الْحَيَّاتِ عَلَى ابْتِلَاعِ الْعَصَافِيرِ وَفِرَاحِهَا وَبَيْضِهَا.

عمر العصفور

وَالَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ ذَكَورَتَهَا لَا تَعِيشُ إِلَّا سَنَةً، يَحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ يَعْرِفُوا النَّاسَ ذَلِكَ، وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُونَ تَعْرِيفَهُمْ؟ وَقَدْ تَكُونُ الْقُرَى بِقُرْبِ الْمَزَارِعِ وَالْبِيَادِرِ مَمْلُوءَةً عَصَافِيرًا،

ومملوءة من بَيْضها وفراخها، وهم مع ذلك لم يروا
عصفوراً قط ميتاً.

والذين يزعمون أن الذباب لا يعيش أكثر من أربعين يوماً،
وكانوا لا يكادون يرون ذبابة ميتة أعْدُر، لأنهم ذهبوا إلى
الحديث، وأصحاب الحديث لا يؤخذون بما يؤاخذ به
الفلاسفة.

والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلَّة السَّفاد،
والعصفورَ إنما قصُرَ عمره لكثرة السَّفاد وعُلمته - لو
قالوا بذلك على جهة الظنِّ والتقريب، لم يلْمهم أحد من
العلماء، والأمور المقرّبة غيرُ الأمور الموجبة، فينبغي أن
يعرفوا فصل ما بين الموجب والمقرّب، وفصل ما بين
الدليل وشبه الدليل ولعلَّ طول عمر البغل يكون للدلي
قالوا، ولشيء آخر.

وليس ينبغي لنا أن نجزم على هذه العلة فقط، إلا بعد أن

يحيط علمنا بأن عمره لم يُفْضَلْ على أعمار تلك الأجناس
إلا لهذه العلة.

بعض خصال العصفور

والعصفور لا يستقرُّ ما كان خارجاً من وكُره، حتى كأنه
في دوام الحركة صبيُّ، له صوت حديدٌ مؤذ.

وزعموا أن البُلب لا يستقر أبداً وهذا غلطٌ، لأن البُلب
إنما يَقلُّ لأنه محصورٌ في قفص، والذين عاينوا البلابلَ
والعصافير في أوكارها، وغير محصورة في الأقفاص -

يعلّمون فضلَ العصفورِ على البُلب في الحركة.

فأما صدق الحِسِّ، وشدة الحدَر، والإزكان الذي ليس عند

خبث الطير، ولا عند الغُرَاب إن عند العصفور منه ما

ليسَ عندَ جميع ما ذكرنا، لو اجتمعت قوهم، ورُكّبوا في

نصاب واحد.

من ذلك أنه يغمُّ بحدّة صوته بعضَ من يقرب منه، فيصيح

به ويُهوي بيديه إلى الأرض كأنه يريد أن يرميه بحجر فلا يراه يحفل بذلك، فإن وقعت يده على حصاة طار من قبل أن يتمكن من أخذها.

وزعم صاحب المنطق أن بين الحمار وعصفور الشوك عداوة، وقال: لأن الحمار يدخل الشجر والشوك، وربما زاحم الموضع الذي فيه وكثره فيبدد عُشّه، وربما نهق الحمار فسقط فرخ العصفور أو بيضه من جوف وكره، قال: ولذلك إذا رآه العصفور رنق فوق رأسه، وعلى عينيه، وآذاه بطيرانه وصياحه.

وربما كان العصفور أبلق، ويصاب فيه الأصبع، والجرادي، والأسود، والفيق، والأغبس، فإذا أصابوه كذلك باعوه بالثمن الكثير.

وقال أبو بدر الأسيدي: قيل لعبد الأعلى القاص: لم سمى العصفور عُصفوراً؟ قال: لأنه عصى وقر، وقيل: ولم سمى الطفثيل طفثيلاً؟ قال: لأنه طفا وشال، وقيل

له: لم سمي الكلبُ القَلْطِيُّ قَلْطِيًّا؟ قال: لأنه قلَّ وَلَطِيءٌ،
وقيل له: لم سمي الكلبُ السَّلَوقِيُّ سَلَوَقِيًّا؟ قال: لأنه
يَسْتَلُّ وَيَلْقَى، قال: وحدثنا سُفيان بن عيينة، عن عمرو بن
دينار، عن ضَهيب مولى ابن عامر، عن عبد الله بن عمرو
بن العاص، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:
ما مِنْ إنسانٍ يقتل عصفوراً أو ما فوقها بغير حقها إلا
سأله الله عنها، قيل: يا رسول الله: وما حقها؟ قال: أن
تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فترمي بها.

صياح العصافير ونحوها

ويقال: قد صدَّ العصفورُ يصدُّ صريراً، قال: ويقال للعصافير والمكاكبي والقنابر، والأخرق،
والحُمَر: قد صدَّ يصدُّ صغيراً، وقال طرفة بن العبد:

مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ لِكَ الْجُوِّ فِيبِضِي
وَاصْفِرِي
وَتَقْرِي مَا شِيتِ أَنْ تُتْقِرِي

ويقال: قد نطق العصفور، وقال كثير:

سوى ذكْرٍ مِنْهَا إِذَا الرَّوْهَبَتْ عَصَافِيرُ الصَّرِيمِ
عَرَّسُوا
النَّوَاطِقُ

ولذكر العصفور موضع آخر: وذلك أنَّ العصافير تصبُح مع الصُّبح، وقال كلثوم بن عمرو:

تَكَلَّمَ فِي الصَّبْحِ
العَصَافِيرِ

لَيْلَةً لِي بِحُورَيْنِ
سَاهِرَةً

وقال خلفُ الأحمر:

أَصَاتَتْ عَصَافِيرُهُ وَوَلَّحَتْ تَبَاشِيرُ أَرْوَاقِهِ
يَقْتَرِي أُنْفَاءً عَازِباً وَيَلْتَسُّ نَاصِرَ أَوْرَاقِهِ

وقال الوليد بنُ يزيد:

أَنْ دَنَا الصَّبْحُ بِأَصْوَاتِ الْعَصَافِيرِ

أحلام العصافير

ولها موضع آخر، وذلك أنهم يضربون المثلَ بأحلامِ العصافيرِ لأحلامِ الشُّحَفَاءِ، وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

سُفْيَانٌ مَا بَالِي كَثِيرٌ وَفِي أَحْلَامِ
وَبِالْكَمِّ عُصْفُورٍ

وقال حسانُ بنُ ثابت:

بَأْسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طَوْلِ جِسْمِ الْبَغَالِ وَأَحْلَامِ
عِظَمِ الْعَصَافِيرِ

ومن هذا الباب في معنى التَّصْغِيرِ والتَّحْقِيرِ، قولُ لبيد:

تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ عَصَافِيرٌ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ
فَإِنَّا وَالْمَسْحَرِ

المخدَّع، على قوله:

وَتُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

وقال لبيد:

عَصَافِيرٌ وَذَبَّانٌ وَدُودٌ وَأَجْرًا مِنْ مُجَلِّحَةِ الدَّيَّانِ

فكأنه يخبر عن صَعْفِ طِبَاعِ الْإِنْسَانِ.

وقال قوم: المسحَرُ، يعني كلُّ ذي سَحَرٍ، يذهب إلى الرثة؛ لقوله:

وَتُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

قولهم صريم سحر

ولذكر السحر موضع آخر، يقول الرجل لصاحبه: صرمت سحري منك، أي لست منك، وقال حُفَافُ بنُ ثُذَبة:

ابنا ثماضر أن يساؤوا منك غير صريم سحر
فكانه قال: لست كذلك منك.
وقال قيس بن الخطيم:
تقول طعيتي لما
استقلت
أي قد تركته آيساً منه.
أترك ما جمعت صريم
سحر

وأشد الآخر:

أيذهب ما جمعت صريم طليفاً أن ذا لهو العجيب
سحر
كذبتم والذي رفَعَ المعالي
يخصب الأسل
الخصيب

العصفور والضب

وإذا وصفوا شدة الحر، وصفوا كيف يوفي الجرباء على العود والجذل، وكيف تلجأ العصافير إلى جرة الصباب من شدة الحر.
وقال أبو زيد:

ساع سعى
لاحت للصابح
ليقطع شرب الجوزاء
واستكن العصفور كزها مع
الضب وأوفى في عوده

الهرباءُ
ونفى الجندبُ الحصى وأذكتُ نيرانها
بكراعي المعزأُ
سموم كأنه طقرتها الهجيرةُ
لفحُ نَار الغراء

وأنشدوا:

تجاوزتُ والعصفورُ في الصَّبِّ والشَّقْدَانُ تسمو
الجُرَّ لاجئُ صدرها
قال: الشَّقْدَانُ: الحَرَابِيُّ، قوله: تسمو أي ترتفع عَلى

رأس العُود، والواحد من الشَّقْدَانِ شَقْدَانٌ، بتحريك القاف
وفتح الشين.

عصافير النعمان

وأكرم فحلٍ كان للعَرَبِ من الإبلِ كان يسمى عصفوراً،
وتسمى أولاده عصافير النُّعمان.

وكانوا يقولون: صنعَ به الملكُ كذا وكذا، وخبَّاه بكذا وكذا،
ووهب له مائة من عصافيره.

وعصفور، ودَاعِر، وشَاغِر، وذو الكِبْلَيْنِ: فحولة إبل

النعمان.

وعصافير الرَّحْلِ واحدها عصفور.

عصفور القوَّاس

وعصفور القوَّاس إليه تصاف القسيُّ العُصفورية، وقد ذكره ابن يَسير حين دَعَا على حمام له بالشَّواهين، والصُّقورة، والسَّنابير والبنادق، فقال:

كَلَّ أَكْلَفَ بَاتَ يَدَجُّ بَغْدُوَّةٍ سَاغِبِ
لَيْلُهُ مَمَطُورِ
ضَرَمَ يَقْلِبُ طَرْفَهُ فَكَنَّ لَهُ مِنْ
مَتَأَنَسَاءً التَّقْدِيرِ
لَهْنٌ مِيَامِنًا بَكَلٌّ مَذَلِقِ مَطُورِ
وَمِيَا سِرًّا
يَنْجُ مِنْهُ شَرِيدَهُنَّ، فَايْئِيءُ فَصَارَ بِجَانِبَاتِ
الدَّوْرِ
لَمَشْمَرِينَ عَنِ السَّوَاعِدِ بَكَلٌّ رَشِيْقَةٍ التَّوْتِيرِ
خُسْرِ
الَّذِي تَشْوِي يَدَاهُ بِمَعْتَذِرٍ وَلَا مَعْدُورِ
رَمِيَّةِ
يَنْبُوعُونَ مَعَ الشَّرُوقِ كُلِّ مَعْطِيَةِ الْجَذَابِ
غَدِيَّةِ
عَطْفِ السِّيَاتِ مَوَانِعِ فَتَعِزِّي إِذَا نَسَبْتُ إِلَى
بَذَلِهَا عَصْفُورِ
يَنْفِثَنَّ عَنِ جَذْبِ الْأَكْفِِّ مِتَشَابِهَاتِ صَغْنِ
سَوَاسِيَا بِالتَّدْوِيرِ
تَجْرِي لَهَا مَهْجُ النُّفُوسِ لِنَوَاصِلِ سَلْبٍ مِنْ

وإنها إن ينى متباينٌ
متباعداً
التحسير الجوى يحسر طرف كل
سمتهنَّ إذا قصدنَ متقطراص متضمخاً
لجمعه
فيؤوب ناجيهنَّ بينَ
مجلهق
عاري الجناح من القوادم
والقرا
بعبير
ومخلوبٍ إلى
منسور
عليه بصائر التامورِ

شعر في العصفور

وقال أبو السريِّ، وهو مَعْدَانُ الأعمى المديريِّ، وهو يذكر ظهورَ الإمام، وأشراطَ خُروجه،
فقال:

زمانٍ تبيض فيه
الخفاف
وُتسقى سُلافة
الجربالِ
ويقيم العُصفورُ سِلماً مع وتحمي الذئبُ لحم
السَّخَالِ
يقول: إذا ظهر الإمامُ فأية ذلك أن تبيض الخفافيش -
وهي اليومَ تليدٌ - وتحلُّ لنا الخمرُ، وتسالِمُ الحياتُ
العصافيرَ، والذئبُ السَّخَالَ.

سجود عيسى بن عقبة ورَوْوا في طولِ سجودِ عيسى بن
عُقبة، أنه كان يطيل ذلك حتى يظنَّ العصفورُ أنه كالشيء

الذي لا يُخافُ جانبه، وحتى يظنّ العصفورُ أنه سارية،
فيسقط عليه.

وذكر عُمرُ بن الفضل، عن الأعمش، عن يزيد بن حَيَّان
قال: كان عيسى بن عقبة إذا سجد وقعت العصافيرُ على
ظهره؛ من طولِ سجوده.

وكان محمدُ بنُ طلحةَ يسجدُ حتى إن العصافيرَ لَيَسْقُطَنَّ
على ظهره ما يحسبُه إلا حائطاً.

مثل الشيخ والعصفور

وفي المثل: أنَّ شيخاً نصَّبَ للعصافيرِ قحّاً، فازتبتنَ به
وبالفخ، وضربه البرد، فكلما مشى إلى الفخِّ وقد انضمَّ
على عصفور، فقبض عليه ودقَّ جناحه، وألقاه في
وعائه، دَمعت عينُه مما كان يَصُكُّ وجهه من برد
الشُّمال، قال: فتوامرت العصافيرُ بأمره وقلن: لا بأس
عليك، فإنه شيخٌ صالحٌ رحيمٌ رقيقٌ الدَّمعة قال: فقال

عصفورٌ منها: لا تنظروا إلى دموع عينيّ، ولكن انظروا
إلى عمل يديه .

استطراد ومن أمثال العامّة للشيء تتعرّفه بغير مؤونة:
الحجرُ مَجَان، والعصفور مَجَان.

قال: ويقال عصفور وعصفورة، وأنشد قوله:

أنها عصفورةٌ لحسبهِلْوَمَةٌ تدعو عُبيداً وأزناً
شعر فيما يصوّره القَرَاع وقال في هذا المعنى جريئاً، وإن لم يكن ذكر العصفور، حيث يقول:

مازلت تحسبُ كلَّ شيءٍ تشدُّ عليكم ورجالا
بعدهم

قال يُونس: أخذَ هذا المعنى من قولِ الله: "يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوّ".

وقال الشاعر:

بلادَ اللهِ وهيَ عريّةٌ الخائفِ المطلبِ
حابل
يؤدّي إليه أن كلَّ نيتيّمها ترمي إليه بقاتل
وقال بشّارٌ في شبيه ذلك:

فؤاده كرهٌ تنزى البين لو نفعَ الحذارِ
جفتُ عيني عن التغميض جفونها عنه قصارُ
يروعه السرارُ بكلِّ أممخافة أن يكونَ به السرارُ
وقال عُبيدُ بن أبيوب: وقال أبان الأحمق:

أخفِضِ الصّوتَ إنْ تطَقَّقْتِ بِالنهارِ قبل
الكلامِ

حديث الغاضري ومن مُلِحَ أحاديثِ الأصمعيِّ، قال:
حدَّثني شيخٌ من أهل المدينة وكان عالي السِّنِّ قال: قال
الغاضري: كانت هذه الأرضُ لقومٍ ابتدؤوها وشقُّوها،
وكانت الثمرة إذا أدركتُ قال قائلهم لقيمه: اثلِّمِ الحائط،
ليصيبَ الماءُ مما فيه والمعتَّفي، ثم يقول: أُرسلُ إلى آلِ
فلان بكذا وكذا، وإلى آلِ فلان بكذا وكذا، فإذا بيعت
الثمره قال: أُرسلُ إلى فلان بكذا وكذا ودينار، وإلى فلان
بكذا وكذا، فيضج الوكيل، فيقول: ما أنت وهذا؟ لا أمَّ لك
فلما عُمرت الأرضون وأَعَنَّتْ أَقْطِعَها قومٌ سواهم، فإنَّ
أحدهم ليسدُّ حائطه، ويصعِّرُ بابَه، ثم يُدْلِجُ فيمُرُّ فيقول:
ما هذه التُّلْمَةُ؟ ويستطيف من وراء الحائط، فهو أطول
من مَعْقِلِ أبي كريز.

وإذا دخل حائطه دخل معه بقَدَّافَةٍ، فإذا رأى العصفورَ
على القنارمات، فيقع العصفورُ مَشُوباً على قُرْصٍ،
والقُرْصُ كالعصفور.

العصافير الهبيرة

وبحمص العصافير الهبيرة، وهي تطعم على رفوف،
وتكون أسمن من السماتى، وأطيب من كل طير، وهي
تهدى إلى ملوكنا، وهي قليلة هناك.

شعر في نطق العصفور

وقال الراعي:

زال يركب روقيه استتار سفاة دونها
وكلكته التاد
إذا نطق العصفور عماية الليل عنه وهو
وانكشفت معتمد

وقال الراعي:

وأصقر مجدول من القد بعينها فيلوى ويطلق
مارن
ساعدي مهريه أيخت قليلاً والعصافير
شذنية تنطق

صيد العصافير

قال: وتُصاد العصافير بأهون حيلة، وذلك أنهم يعملون لها
مصيدهً، ويجعلون لها سلةً في صورة المحبرة التي يقال

لها: اليهودية، المنكوسة الأنبوبة؛ ثم يُنزل في جوفها
عصفورٌ واحد، فتنقضُّ عليه العصافيرُ ويدخُلن عليه، وما
دخل منها فإنه لا يجد سبيلاً إلى الخروج منها، فيصيد
الرجلُ منها في اليوم الواحد المئتين وهو وادع، وهنَّ أسرعُ
إلى ذلك العصفورِ من الطيرِ إلى البوم إذا جُعِلن في
المصائد.

ومتى أخذ رجلٌ فراخ العصافير من أوكارها، فوضعها في
قفص بحيث تراها الآباءُ والأمّهات، فإنها تأتيها بالطعم
على الخطر الشديد، والخوف من الناس والسنانير، مع
شدة حذرها، ودقّة حسّها، ليس ذلك إلا لبرّها بأولادها،
وشدة حبّها لها.

في العقارب والفأر والسنانير والجرذان

نقول في العقارب والفأر والجرذان بما أمكن من القول،
وإنما ذكرنا العقاربَ مع ذكرنا للفأر، للعداوة التي بين

الفأر والعقارب، كما رأينا أن نذكر السنانير في باب ذكر
الفأر، للعداوة التي بينهما.

فإن قلت: قد عرّفنا عداوة الفأر للعقرب، فكيف تُعادي
الفأرة السنور، والفأرة لا تقاوم السنور؟ قيل: لعمري إن
جرذانَ أنطاكيةً لتُساجِلُ السنانيرَ في الحربِ التي بينهما،
وما يقوم لها ولا يقوى عليها إلا الواحد بَعْدَ الواحد، وهي
بخراسان قويّةٌ جدًّا، وربما قطعتُ أُذنَ النائم.
وفي الفأر ما إذا عضَّ قتل، أخبرني أبو يونس الشريطي
أنه عاين ذلك.

وأنا رأيتُ سنوراً عندنا ساور جُرذاً في بيت الحطب،
فأفلتَ الجُرذُ منه وقد فقا عينَ السنور.
قتال الحيوان والقتالُ يكونُ بين الدِّيكةِ، وبين الكباشِ
والكلابِ والسُّماتى والقَبج، وضروبٍ مما يقبل التَّحريشَ،
ويواثبُ عند الإغراء.

قتال الجرذان

ويزعمون أنهم لم يروا قتالاً قطُّ بينَ بهيمتين ولا سبعين
أشدَّ من قتالِ يَكُونُ بينَ جُرذِينِ، فإذا ربطَ أحدهما بطرفِ
خِيَطٍ، وشُدَّ رِجْلُ الآخرِ بالطَّرْفِ الآخرِ من الخِيَطِ، فلهما
عند ذلك من الخلبِ والحَمَشِ والعضِّ، والتَّيِّبِ والعفاسِ،
ما لا يوجد بين شئيين من ذوات العِقَارِ والهراشِ، إلا أن
ذلك ما دامَا في الرِّباطِ، فإذا انحَلَّ أو انقطع ولَّى كلُّ واحدٍ
منهما عن صاحبه، وهربَ في الأرضِ، وأخذ في خلافِ
جهته الآخرِ.

وإن جُعِلَا في إناءٍ من قواريرِ، أعني الجُرذَ والعقربِ، وإنما
ذكرت القواريرِ، لأنها لا تستر عن أعينِ الناسِ صَنِيعَهُمَا،
ولا يستطيعان الخُرُوجَ؛ لَمَلَاسةِ الحيطانِ - فالفأرة عند
ذلك تختلُّ العقربَ، فإن قبضتْ على إبرتها قرصتها، وإن
ضربها العقربُ ضرباً كثيراً فاستنقذتْ سمَّها كان ذلك من
أسبابِ حتفها.

قتال العقارب والجردان

ودخلت مرة أنا وحمّدان بن الصباح على عبيد بن
الشونيزي فإذا عنده برنيّة زجاج، فيها عشرون عقرباً
وعشرون فأرةً، فإذا هي تقتتل، فخيّل لي أن تلك الفأر قد
اعتراها ورمّ من شدة وقع اللسع، ورأيت العقارب قد
كلّت عنها وتاركتها، ولم أر إلا هذا المقدار الذي وصفت.
وحدثنا عنها عبيدٌ بأعاجيب، ولو كان عبيدٌ إسناداً لخبرت
عنه، ولكنّ موضعَ البياض من هذا الكتاب خيرٌ من جميع ما
كان لعبيد.

تدبير في الجرد

وللجرّد تدبير في الشيء يأكله أو يحسّوه، فإنه ليأتي
القارورة الصيّقة الرأس، فيحتال حتى يدخل طرف دّته
في عنقها، فكلّما ابتلّ بالدهن أخرجها فلطعه، ثم أعاده،
حتى لا يدع في القارورة شيئاً.
ورأيت من الجرّذان أعجوبةً، وذلك أن الصيادة لما

سقطت عَلَى جُرْدٍ مِنْهَا ضَخْمٍ، اجتمعن لإخراجه وسلَّ
عُنُقَهُ مِنَ الصِّيَادَةِ، فلما أعجزهنَّ ذلك قرصنَ الموضعَ
المنضمَّ عليه من جميع الجوانب، ليتسع الخرقُ فيجذبُنه،
فهجَمْتُ عَلَى نُحَاتِهِ لَوْ اعتمدْتُ بسكين عَلَى ذلك الموضع
لظننتُ أنه لم يكن يمكنني إلا شبيهُ بذلك.

وزعم بعضُ الأطباء أن السنورَ إنما يدفنُ حُرَاهُ ثم يعودُ
إلى موضعه فيشتتُه فإن كان يجدُ من ريحه بعدُ شيئاً زاد
عليه من التراب، لأنَّ الفأرةَ لطيفة الحِسِّ، جيِّدَةُ السَّمِّ،
فإذا وجدتْ تلك الرائحة عرفتها فأمعنتْ في الهربِ،
فلذلك يصنع السنورُ ما يصنع.

فأرة سيل العرم

ولا يشكُّ الناسُ في أن أرضَ سبأ وجنَّتها إنما خربتا حين
دخلهما سيلُ العرمِ - والعرم: المسناة - وأن الذي فجر
المسناة، وسبب لدخول الماء الفأرة.

والسَّيْلُ إِذَا دَخَلَ أَخْرَبَ بِقَدْرِ قَوَّتِهِ، وَقَوُّهُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ:
إِمَّا أَنْ تَدْفَعَهُ رِيحٌ فِي مَكَانٍ يَفْحُشُّ فِيهِ الرِّيحُ، وَإِمَّا أَنْ
يَكُونَ وَرَاءَهُ وَفَوْقَهُ مَاءٌ كَثِيرٌ، وَإِمَّا أَنْ يُصِيبَ حَدُورًا
عَمِيقًا.

حديث ثمامة عن الفأر

وأما حديث ثمامة فإنه قال: لم أر قطُّ أعجبَ من قتال
الفأر، كنتُ في الحبسِ وحدي، وكان في البيت الذي أنا
فيه جُحْرُ فأرٍ، يقابله جُحر آخر، فكان الجُرذ يخرج من أحد
الجُحْرين فيرقص ويتوعَّد، ويضرب بذيبه، ثم يرفع صدره
ويهزُّ رأسه، فلا يزال كذلك حتى يخرج الجرذ الذي يقابله،
فيصنع كصنيعه، فبينما هما إذ عدا أحدهما فدخَلَ جُحره،
ثم صنع الآخرُ مثلَ ذلك، فلم يزل ذلك دأبهما في الوعيد
وفي الفرار، وفي التهاجُز وفي ترك التلاقي، إلا أنني في
كل مرةٍ أظنُّ للذي يظهرُ لي من جدهما واجتهادهما،

وشدة توَعَّدَهُمَا، أَنهما سىلتقيان بشيء أهوُّهُ العَضُّ^١
والخُمْشُ، ولا والله إن التقيا قَطُّ؟ فعجبتُ من وعيدِ دائِمٍ
لا إيقاعَ معه، ومن فرارِ دائِمٍ لا ثباتَ معه، ومن هرب لا
يمنعُ من العَودة، ومن إقدامٍ لا يوجبُ الالتقاء، كيف يتوعَّدُ
صاحبه ويتوعَّده الآخر؟ وبأيِّ شيء يتوعَّده، وهما يعلمان
أَنهما لا يلتقيان أبداً؟ فإن كان قتالهما ليس هو إلا الصَّحَبُ
والنَّيِّبُ فلمَ يفرُّ كلُّ واحدٍ منهما حتى يدخل جحره؟ وإن
كان غير ذلك فأَيُّ شيء يمنعهما من الصَّدْمة؟ وهذا
أعجبُ.

أطول الحيوان ذمَاءً وأقصره وتقول العرب: الضبُّ أطولُ
شيء دَمَاءً.

ولا أعلمُ في الأرض شيئاً أقصرَ دَمَاءً، ولا أضعفَ مُتَّةً ولا
أجدرَ أن يقتله اليسير من الفأر.

لعِبُ السَّنورِ بالفأرِ

وبلغ من تحزُّزِهِ واحتياطه، أنه يسكن السقوف، فربما
فاجأه السُّنَّور وهو يريد أن يعبر إلى بيته والسُّنَّور في
الأرض والفأرة في السَّقْف، ولو شاءت أن تدخل بيتها لم
يكن للسُّنَّور عليها سبيل، فتتحير، فيقول السُّنَّور بيده
كالمشير بيساره: ارجع، فإذا رجعت أشار بيمينه: أن عُدْ
فيعود، وإنما يطلب أن تَعِيا أو تَزَلَق أو يُدَارَ بها، ولا يفعل
ذلك بها ثلاث مرَّات، حتى تسقط إلى الأرض، فيثب عليها،
فإذا وثب عليها لعبَ بها ساعةً ثم أكلها، وربما خلى
سبيلها، وأظهر التغافل عنها فتمعن في الهرب، فإذا ظننت
أنها نجت وثبَ عليها وثبة فأخذها، فلا يزال كذلك كالذي
يحبُّ أن يسخر من صاحبه، وأن يخدعه، وأن يأخذَهُ أقوى
ما يكون طمعاً في السَّلامة، وأن يُورثه الحسرة والأسفَ،
وأن يلدَّ بتنغيصه وتعذيبه.

وقد يفعل مثل ذلك العقابُ بالآرنب، ويفعل مثل ذلك
السُّنَّورُ بالعقرب.

أكل الجردان واليرابيع والضفادع

وقال أبو زيد: دخلتُ على رُؤبةَ هو يَمْلُ جرداناً، فإذا نضجت أخرجها من الجمر فأكلها، فقلت له: أتأكل الجردان؟ قال: هي خيرٌ من اليرابيع والضباب، إنها عندكم تأكل التمر والجبن والسويق والخبز، وتحسُّ الزيت والسمن.
وقد كان ناسٌ من أهل سيف البحر من شقِّ فارس يأكلون الفأر والضفادع، ممقورةً ومملوحة، وكانوا يسمونها: جَنكُ جَنكُ ووالِ ووالِ.
وقال أوسُ بنُ حجر:

لَحَيْتَهُمْ لَحَى الْعَصَا
فَطَرِدْتَهُمْ
سِنَّةٌ جِرْدَانُهَا لَمْ تَحَلِّمْ
يقال: تَحَلَّمَ الصَّيْبِيُّ: إذا بدأ في السَّمَنِ؛ فإذا زاد على
المقدار قيل قد صَبَّبَ، أي سَمِنَ سِمْنًا متناهيًا.

مثل وشعر في الجرد

ويقال: أَسْرَقَ من رَبَابَةٍ، والرَّبابَةُ: الفأرة، ويقال: أَسْرَقَ من جُرْدٍ.
وقال أنس بن أبي إياس لحارثة بن بدر حين وليَ أرض سُرَّق:

بن بدر قد وليت
تولايَةً
تميمًا بالغنى إنَّ
للغنى
جميعَ الناسِ إما
مكذبٌ
يقولون أقوالا ولا
يعلمونها
جرذاً فيها تخونُ
وتسرقُ
لساناً به المرء الهيوبهُ
ينطق
يقول بما تهوى وإما
مصدقُ
قيل هاتوا حققوا لم
يحققوا

تحقرنُ يا حارِ شيئاً فحظكَ من ملكِ العراقيين
أصبتَه
سرقتُ
فلما بلغتُ حارثةَ بنَ بدرٍ قال: لا يعمى عليك الرُّشد.

طلب كثرة الجردان

قال: ووقفت عجوْرُ عَلى قيس بن سعد،
فقال: أشكو إليك قلة الجردان، قال: ما أَلَفَ
ما سألتِ لأملانَ بيتك جرداناً، تذكر أن بيتها قفُرُ
من الأدم والمأدوم، فأكثر لها يا غلام من ذلك،
قال: وسمعت قاصّاً مدينيّاً يقول في دعائه:
اللهم أكثر جرداننا وأقل صبياننا. فزع بعض
الناس من الفأر

وبين الفأر وبين طباع كثير من الناس منافرة، حتى إن
بعضهم لو وطئ على ثعبان، أو رُمي بثعبان - لكان الذي
يدخله من المكروه والوحشة والفرع، أيسر مما يدخله
من الفأرة لو رُمي بها، أو وطئ عليها.

وخبّرني رجالٌ من آل زائدة بن مقسم، أن سليمان
الأزرق دُعِيَ لحيّة شَنْعَاءٍ قد صارت في دارهم، فدخلتُ
في جُحر، وأنه اغتصبها نفسها حتى قبضَ على ما ألفى
منها، ثم أدارها على رأسه كما يُصنَع بالمِخْرَاق، وأهوى بها
إلى الأرض ليضربها بها، فابتَدَرَتْ من حلُقها فأرة كانت
ازْدَرَدَتْهَا، فلما رأى الفأرة هَرَبَ وصرخ صرخة، قالوا:
فأخذ مشايخُنَا الغِلْمَانَ بإخراج الفأرة وتلك الحيّة الشنعاء
إلى مجلس الحيِّ ليعجّبوهم من إنسانٍ قَتَلَ هذه وفرَّ من
هذه.

علة نتن الحيات

وسألتُ بعضَ الحوَّائين ممن يأكلُ الأفاعيَ فما دونها،
فقلتُ: ما بالُ الحيات مُنتنة الجلود والجُروم؟ قال: أمَّا
الأفاعي فإنَّها ليست بمنتنة، لأنها لا تأكل الفأر، وأمَّا
الحيَّاتُ عامة فإنَّها تطلبُ الفأرَ طلباً شديداً، وربما رأيتُ

الحيّة وما يكونُ غلظها إلا مثل غلظ إبهام الكبير، ثم أجدها
قد ابتلعت الجُرْدَ أَعْلَظَ من الدَّرَاعِ، فأنكرَ نَتَنَ الحَيَّاتِ إلا
من هذا الوجه، ولم أر الذي قال قولاً.

رجز في الفأر

ودخل أعرابيُّ بعضَ الأمصار، فلقِيَ من الجِرْدانِ جَهْدًا، فرجز بها ودعا عليها، فقال:

يعجلُ الرحمنُ بالعقالِ عماراتِ البيتِ بالخرابِ
يُعجِّلَنَ إلى الثيابِ العيونِ وقصِ الرقابِ
مستتبعاتِ خلفَةَ الأذنانِ مداري الحصنِ
السَّلابِ

ثم دعا عليهنَّ بالسَّتُورِ فقال:

أَهْوَى لهنَّ أَنَمْرُ الإهابِ منه رثُ السَّدْقِ حديدُ النَّابِ
بُرْثِنَ بِالْحِرَابِ

التشبيه بالجردان

وُوصِفَ عضلُ الحَقَّارِ والماتِحِ والذي يَعْمَلُ في المعادنِ، فَتُسَبَّهُ بالجُرْدانِ، إِذَا تَفَلَّقَ لحمه عن

صلابة، وصارَ زَيْمًا، قال الرَّاجِزُ:

أَعَدَدْتُ لِلوَرْدِ إِذَا الوِرْدُ جَرُّورًا وَجُلًّا خُرْخُرُ
حَفَرُ
ومَاتِحًا لا يَنْشِي إِذَا احْتَجَزَ جوفَ جليده إِذَا احْتَقَرُ
كُلُّ عَضو جُرْدَيْنِ أَوْ

والخُرْزُ: ذكر الأرانب و اليرابيع.

أنواع الفأر

والزَّبَابُ، والخُلْدُ، واليرابيع، والجرذان، كله فأر، ويقال لولد اليرابيع دِرْص وأدراص، والخُلْدُ أعمى، لا يزال كذلك، والزَّبَابُ أَصْمٌ، لا يزال كذلك، وأنشد:

زَبَابٌ حَائِرٌ تَسْمَعُ الْأَدَانُ رَعْدًا
هكذا أنشدونا.

شعر وخبر في الفأر

وأنشد الأصمعي لمزرد بن ضرار، في تشبيه الجرع في حُلوق الإبل بجثمان الزَّبَابِ - وهو الشكل الذي وصفناه - فقال في وصف ضيف له سقاه، فوصف جَرَّعه:

فقلتُ له اشرب لو وجطَوَالِ الذري من مفرهاتٍ
بهازراً خناجر
ولكنما صادفتَ ذوداً لمثلكَ يأتي للقري غير
منيحة عاذر
فأهوى له الكفين وامتدجرع كأثباج الزبابِ
حلقه لازنابِر

وقال أعرابيٌّ وهو يطنزُ بغريم له، ويذكر قرضُ الفأر الصَّكَّاءَ، عند فراره منه: الزم الصَّكَّ لا

يقْرِضه الفأر تهزُّوا به:

أهونُ عليّ بسيار جعلتُ ضراراً دون
وصفوته سيار
التابعي ناشراً عندي السوق بين قطين غير
صحيفته أبرار
جاءوا إليّ غضاباً يلغطون شفى إراتهم أنْ غابَ
معاً أنصاري
أبوا جهرةً إلا أجمعتُ مكرأ بهم في غير

مُلازِمَتِي
وَقَلْتُ إِنِّي سَيَأْتِينِي غَدًا مَوْعِدَكُمْ دَارِ ابْنِ
جَلْبِي هَبَارِ
أَوْاعِدْهُمْ إِلَّا لِأَرْبِهِمْ فَيُخْرِجُنِي نَقْضِي
وَأَمْرَارِي
جَلْبُثُ إِلَيْهِمْ غَيْرُ تَخْدِي بِرَحْلِي وَسَيْفٍ جَفْنُهُ
رَاحِلَةٌ عَارِي
الْقَضَاءُ سَيَأْتِي دُونَ فَاطُو الصَّحِيفَةِ وَاحْفَظْهَا
زَمْنٌ الْفَارِ
وَصَفْقَةٌ لَا يُقَالُ الرَّوْعُ عَثُ فِيهَا وَقَوْعُ
تَاجِرُهَا الْكَلْبُ فِي النَّارِ
وَالْعَرَبُ تَعِيبُ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ ضَيِّقَ الْفَمِ، أَوْ كَانَ دَقِيقَ

الْخَطْمِ، يَشْبَهُونَ ذَلِكَ بِفَمِ الْفَأْرَةِ، وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ
الطَّبِيبِ: يَشْبَهُونَ ذَلِكَ بِفَمِ الْفَأْرَةِ. وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ
الطَّبِيبِ:

مَعَ أَنْكَ يَوْمَ الْوَرْدِ ذَوْضَخْمُ الْجَزَارَةِ بِالسَّلْمِينِ
لَغَطٍ وَكَأُ
تَكْفِي الْوَلِيدَةَ فِي النَّادِي حَلْبُ فَإِنَّكَ حَلَابُ
مُؤْتَزِرًا وَصَرَاؤُ
كُنْتُ أَوْلَ ضَبِّ صَابٍ فَأَمْرَعُ وَاسْتَرَخْتُ بِهِ
تَلْعَتُهُ
الَّذِي لَا نَرْجِي نَيْلُهُ النَّدَى، وَغَدَاةَ الرَّوْعِ

بَنِيكَ عِبَادًا فَأُورَةُ شَجْهًا فِي الْجُحْرِ
وَحَدِيمَةً مُحَفَاؤُ

شعر أبي الشمقمق في الفأر والسنور

وقال أبو الشمقمق في الفأر والسنور:

ولقد قلتُ حين أقفر جراب الدقيقِ
بيتي والفخارَه
ولقد كان آخلاً غميصاً خيرهٌ كثير
قفرة العماره
فأرى الفأر قد تحببنا ذاتٍ منه بدار
بيتي الإمامه
ودعا بالرحيل ذبانٌ مقصوفةٍ إلى
بيتي طياره
وأقام السنورُ منه موعيش فيه أذى
شدة الجو ومرارَه
قلتُ لما رأيتهُ كئيباً، في الجوف
ناكس الرأ حراره
صبراً فأنت من رآته عيناى قطُّ
خير سنَّ بحاره
: لا صبر لي، وكيفيوتٍ قفر كجوفِ
مقامي الحماره
قلتُ: سر راشداً إلى مخصبٍ رحله عظيم
بيت جار التجاره
العنكبوتُ تغزلُ في
وحبِّي الكوزِ
والقرقاره
وأصابَ الجحامُ كلبى
كلبى، وكلبى
فأضحى عياره

وقال أيضاً:

ولقد قلتُ حين كما تجحر الكلابُ

أجحرنى البرُّ ثعاله
بيتٍ من فيه إلا النوى
الغضارةِ قفروالمخاله
عطلتهُ الجرذان موطار الذبابُ نحو
الخير زُباله
بات منه إلى كلِّ لم يرتجین منه
خصبٍ بلاله
وأقام السنورُ فقیمأل الله ذا العلا
بشرٍ والجلاله
یری فأرةً، فلنمكساً رأسهُ لطول
شيئاً الملاله
قلت لما رأيتهُ ناكسكئيباً يمشي على
الرأس حاله
قلتُ صبراً يا نازُ رأسٍ وعللته بحسن
السنا مقاله
: لا صبر لي، وكيف قفار كمثل بيد
مقامي تباله
أرى فيه فأرةً ومشى في البيت
أنغض الرأس مشى خياله
قلت: سر راشداً فخارتعدُ كربج
الله البقاله
ما سمعت أئنا نعيم من عيشةٍ
بخير ومناله
فائتنا راشداً ولا من جاز رحلتنا في
تعدونا ضلاله
لي قولة: عليك سلامٌ
لعب منه ولا ببطاله
ولي كأنه شيخٌ سوءأخرجوه من محبس

وقال أيضاً:

بكفاله

الفأزُّ ببَيْتِي رَفَقَةً من بعد
رَفَقَهُ
حلقاً بعد قطارٍ نزلوا بالبیت
صَفَقَهُ
عرس رأس بيتي صاعداً في رأس
نبقه سيفه سيفٌ جديدٌ
شقه من ضلعٍ جاءنا يطرق
سلقه بالليل
الباب دقه
دخل البيت جهاراً يدع في البيت
وَلَقَهُ
وتترسُّ برغيفٍ ووصفٌ نازويه
صَفَقَهُ
صفقة أبصرث منها في
سوادِ العين زرقه
مثل ابنِ عرسٍ أغبشُ تعلوه بلقه

وقال أيضاً:

الفأزُّ برجلي وسراويلاتٍ سوء
وَسْرَاوِيلَاتٍ سُوءٍ
درجوا حولي بزفن ساعةً ثمت جازوا
وَبِضْرِبٍ بِالْدِفَافِ
هوايَ في خلافِ
أهلي في لحافي نقرأ استي وباتوا
لَعَقُوا اسْتِي وَقَالُوا
مِسْكَ بَسْلَافِ صفعوا نازويه حتى
اسْتَهَلَّتْ بِالرُّعَافِ

أحاديث في الفأرة والهرة

يُرْوَى عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: خَمْسٌ يُورِثَنَّ النِّسْيَانَ: أَكْلُ التَّفَاحِ، وَسُورُ الْفَأْرَةِ، وَالْحِجَامَةُ فِي النَّقْرَةِ، وَنَبْدُ الْقَمْلَةِ، وَالْبَوْلُ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ.

وَابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزَّبِيرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "إِذَا رَقَدْتَ فَأَغْلِقْ بَابَكَ، وَخَمِّرْ إِنْاءَكَ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ عَلَقًا وَلَا يَكْشِفُ إِنْاءً، وَلَا يَحِلُّ وَكَاءً، وَإِنَّ الْفَأْرَةَ الْفُؤَيْسِقَةَ تَحْرِّقُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ".

قَالُوا: فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّنَائِرِ: "إِنَّهُنَّ مِنَ الطَّوَّافَاتِ عَلَيْكُمْ"، وَفِي تَفْرِيقِهِ بَيْنَ سُورِ السَّنَّورِ وَسُورِ الْكَلْبِ - دَلِيلٌ عَلَى حُبِّهِ لَاتِّخَاذِهِنَّ، وَلَيْسَ لَاتِّخَاذَهُنَّ وَجْهٌ إِلَّا إِفْتَاءَ الْفَأْرِ وَقِتْلَ الْجُرْدَانِ، فَكَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَحَبَّ اسْتِحْيَاءَ السَّنَائِرِ، فَقَدْ أَحَبَّ إِهْلَاكَ الْفَأْرِ.

وعن نافع، عن ابن عُمر، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم
قال: عُذِبَتِ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ سَجَنَتْهَا - ويقال: رَبَطَتْهَا - فلم
تطعمها ولم تسقها، ولم تُرْسِلْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ.
وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه
وسلم قال: دَخَلَتِ امْرَأَةٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ النَّارَ فِي هَرَّةٍ
رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تُصِيبُ مِنْ
خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ فَأَدْخَلَتِ النَّارَ، كَلِمَا أَقْبَلَتْ
نَهَشَتْهَا، وَكَلِمَا أَدْبَرَتْ نَهَشَتْهَا.

قال: وَذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَاحِبَ الْمِحْجَنِ
يَجُرُّ قُضْبَهُ فِي النَّارِ حَتَّى قَالَ: وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ
الْهَرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ.

وصف السنور بصفة الأسد

قال ابن يسير في صفة السنور - فوصفه بصفة الأسد، إلا ما وصفه به من التميمير، فإن
السنور يوصف بصفة الأسد، إذا أرادوا به الصورة والأعضاء، والوثوب والتخلُّع في المشي، ألا
إن في السناير السود والثمر والبُلُق، والخلنجية، وليس في ألوان الأسد من ذلك شيء، إلا

كما ترؤنَ في النوادر: من الفأرة البيضاء، والفاخِة البيضاء، والورشان الأبيض، والقرس الأبيض - فقال ابن يسير في دعائه على حمام ذلك الجار حين انتهى إلى ذكر السنور:

وَخُبُعْتِنِ فِي مَشِيهِ خَطَفَ الْمُؤَخَّرَ كَامِلِ
مَتْبَهِنَسِ التَّصْدِيرِ
أَعِيرَ مَفْرَ أَعْضَفَ كَلَّ أَعْصَلَ كَالسِّنَانِ
ضَيْغَمِ هَضُورِ
مَتَّسِرِبِلِ ثَوْبَ الدُّجَى أَوْثَبْتَ عَلَى مَتْنِيهِ مَتَّسِرِبِلِ
غَبْشَةَ بِالتَّنْمِيرِ
يَخْتَصُّ كُلَّ سَلِيلِ سَابِقِ مَحْضِ النَّجَارِ مَهْذِبِ يَخْتَصُّ
مَخْبُورِ

فزع الناقة من الهر وإذا وصفوا الناقة بأنها رُواع شديدة التفُّع، لقرط نشاطها ومَرَجَهَا، وصفوها بأن هَرًّا قد تَيَّبَ في دَقِّهَا، وأكثر ما يذكرون في ذلك الهَرُّ؛ لأنه يجمعُ العَضَّ بالناَب، والخمَشَنَ بالمخالب، وليس كل سُبُعٍ كذلك.

وقال ضابئ بن الحارث:

بَادِمَاءَ حُرْجُوجٍ تَرَى تَحْتَ تَهَاوِيلَ هَرًّا وَتَهَاوِيلَ أَخِيَلَا
عَزْرَهَا وَقَدِ أَوْسُ بْنُ حَجْرٍ:

هَرًّا جَنْبًا تَحْتَ وَالتَّفَّ دِيكُ بَرَجَلَيْهَا وَخَنْزِيرُ
مَعْرِضِهَا وَقَالَ عَنْتَرَةَ:

وَكَأَنَّمَا يَنَأَى بِجَانِبِ دَفِّهِ حَشِيَّتِي مِنْ هَزِجِ الْعَشِيِّ
مُؤْوَمِ غَضَبِي اتَّقَاهَا بِالْيَدَيْنِ
جَنْبِي كَمَا عَطَفَتْ لِي وَبِالْفَمِ
وَالْفِيلُ يَفْرَعُ مِنَ السُّورِ فِرْعًا شَدِيدًا.

السنور في الهجاء

ومما يقع في باب الهجاء، للسنور، قول عبد الله بن عمرو بن الوليد، في أمّ سعيد بنت خالد:

السَّنَوْرُ فِي تَفْسِي لِعِزْلَانِ الْخَمَائِلِ وَالْبِرَاقِ
بَأَهْلٍ
فَطَلَّقَهَا فَلَسْتُ لَهَا بِأَهْلٍ
الضِّدَاقِ
أَعْطَيْتَ هِنْدًا فِي

الرجم بالسنانير

قال صاحب الكلب: قالوا: ولما مات القصبى - وكان من موالي بني ربيعة بن حنظلة، وهو عمرو القصبى، ومات بالبصرة - رُجم بالسنانير الميِّتة، قال: وقد صنعوا شبيهاً بذلك بخالد بن طليق، حين زعم أهله أن ذلك كان عن تدبير محمد بن سليمان.

وقالوا: ولم نر الناس رَمَوْا أحداً بالكلاب الميِّتة، والكلابُ أكثر من السنانير حيّة وميِّتة، فليس ذلك إلا لأن السنانير أحقرُ عندهم وأنتن.

استطرد لغوي قال: ويقال للجرذان العِضْلان، وأولاد الفأرِ أدراص، والواحد دِرْص، وكذلك أولاد اليرابيع، يقال: أدراص ودُرُوص، وقال أوسُ بن حَجْر:

أبو ليلى طُفيل بن بمنعرج السُّوبان لو يتقصَّع

قال: واليرابيع ضربٌ من الفأر، قال: ويقال: نَقَّ اليربوع ينقُّ تنقيفاً إذا عمل النافق، وهي إحدى مجارحه، ومحافره، وهي النافق، والقاصع، والدَّاماء، والراهطاء، وقال الشاعر:

أُمُّ الرُّدَيْنِ وَإِنْ أَدَلَّيْعَلْمَةَ بِأَخْلَاقِ الكِرَامِ
الشَّيْطَانُ قَصَّعَ فِي تَنْقِنَاهُ بِالْحَبْلِ التُّوَامِ
قَفَاهَا

فإذا طَلِبَ من إحدى هذه الحفائر نافع، أي فخرج

النَّافِقَاءِ، وَإِنْ طَلِبَ من النافقَاءِ قَصَّعَ، ويقال: أنفقته

إنفاقاً: إذا صاح به حتى يخرج، وتَفِقَ هو: إذا خَرَجَ من

النافقَاءِ.

احتيال اليربوع

وفي احتيال اليرابيع بالنافقَاءِ، والقاصعَاءِ، والدَّامَاءِ والرَّاهطاءِ، وفي جَمْعِهَا الترابَ على نفسِ باب الجُحْرِ، وفي تقدمها بالحيلة والحِرَاسَة، وفي تغليطها لمن أَرَادَهَا، والتَّوْرِيَةَ بشيءٍ عن شيءٍ، وفي معرفتها باب الخديعة، وكيف تُوهِمُ عَدُوَّهَا خلاف ما هي عليه، ثم في وطنها على زَمَعَاتِهَا، في السهولة وفي الأرض اللينة، كي لا يعرف أثرها الذي يفتنُّه، وفي استعمالها واستعمال بعض ما يقاربها في الحيلة التَّوْبِيرُ - والتَّوْبِيرُ: الوطء على مآخِرِ أَكْفِهَا - العجبُ العجيب.

أنفاق الزباء وزعم أبو عقيل بن دُرْسْت، وشَدَّادُ الحارثي، وحسين الزهري أن الزباء الروميَّة إنما عملت تلك الأنفاق التي ذكرها الشاعرُ فقال:

لَهَا عَلَى الْأَنْفَاقِ عَمْرٌو تَشْعُرُ بَأَنَّ لَهَا كَمِينًا

على تدبير اليرابيع في محافيرها هذه، ومخارجها التي أعدتها ومدخلها، وعلى قدر ما يفجؤها من الأمر.

وأن أهل ثبّت والرُّوم، إنما استخرجوا الاحتيال بالأنفاق والمطامير والمخارق على تدبير اليرابيع.

اشتقاق المنافق وإنما سمى الله عز وجل الكافر في باطنه المورّي بالإيمان، والمستتر بخلاف ما يُسّر - بالمنافق، على النافقاء والقاصعاء، وعلى تدبير اليربوع في التورية بشيء عن شيء، قال الشاعر:

الشیطانُ قَصَع في تنفّناه بالحَبْل التُّوَامِ قَفَاها

وهذا الاسم لم يكن في الجاهلية لمن عمل بهذا العمل، ولكن الله عز وجل اشتق لهم هذا الاسم من هذا الأصل.

كلمات إسلامية وقد علمنا أن قولهم لمن لم يُحجّ: صرورة، ولمن أدرك الجاهلية والإسلام: مخصرم، قولهم وتسميتهم لكتاب الله: قرآناً فرقاناً، وتسميتهم للتمسّح بالتراب: التيمّم، وتسميتهم للقاذف ب فاسق - أن ذلك لم يكن في الجاهلية.

وإذا كان للنابغة أن يتدئ الأسماء على الاشتقاق من أصل اللغة، كقوله:

والتُّوَيْ كالحَوْض بالمظلومة الجَدِّ

وحتى اجتمعت العرب على تصويبه، وعلى اتباع أثره، وعلى أنها لغة عربية - فالله الذي له أصل اللغة أحقُّ بذلك.

شعر شَمَاح في الرَّموع وذكر شَمَاحُ بنُ ضرار الرَّموع، وكيف تطأ الأرنبُ على رَمَعاتها لتغالط الكلاب وجميع ما يطالبها - فذكر بديناً شأن العير والعانة، فقال:

ما استاقهنَّ صرَبنَ منه القُدوع مكان الرُّمَح من أنف

جَعَلتْ صَعَائِنهنَّ تَبْدُوقَدَ كان نالَ بلا شفيع
مُدَلَّاتٍ يُرَدْنَ النَّايَ منه بَعينِ مُرْتَقِبٍ تَبُوعِ

ثم أخذ في صفة العُقَاب، وصار إلى صفة الأرنب فقال:

مُتَوَتِّهِنَّ مَوْلِيَاتٍ عِصِيَّ جُنَاحِ طَالِبَةٍ لَمُوعِ
ما تريت إذا غريض اللحم عن
استفادت ضرم جزوع

ثم قال:

تنفكُّ بين عويرضاتٍ برأسٍ عكرشةٍ زموعِ
تطارِدُ سيد صاراتٍ، ويوماً خزانٍ قارتاتن الجوعِ
ثعالِبُ الشرفينِ منها لاذ الغريمُ من التبيعِ
الغزُّ في قطنٍ، نماها فرخين في وكر رفيعِ
قطعاً من الأناشٍ فيها جمهنَّ كالخشلِ النزيعِ

والزموع: التي تمشي على رَمَعَاتِها: مآخِرِ رِجْلِهَا قال أبو المفضل: توَبَّرَ بيديها، وتمشَى عَلَى رَمَعَاتِهَا عَلَى رِجْلِهَا، وهي مواضع الثَّنِّ من الدوابِّ، والرَّمَعُ المَعْلَقُ خلفَ الطَّلْفِ من الشاةِ والطبي والثور، قال: وكل ذلك تَوْبِيرٌ، وهو أن تطأ عَلَى مآخِرِ قوائمها، كي لا يعرف أثرها إنسانٌ ولا كلب.

وذكر أنها تطارِدُ ذئباً مرَّةً، وُحْزَرَأَ مرَّةً، وهو الذَّكَرُ من الأرانب؛ والعِكرِشةُ: الأثى، والخِزْنِقُ: ولدها، فإذا قلت أرنب، أو عُقاب فليس إلا التأنيث، هذه العُقاب، وهذه الأرانب، إلا أن تقول: خَزَر.

وقطن: جَبَلٌ معروف، والأحناش: الحيات، وأحناش الأرض: الضبُّ، والقنفذ، واليربوع، وهي أيضاً حشرات الأرض، فجعل الحية حنثاً على قولهم: قد آذَنِي دوابُّ رأسي: يعنون القمل؛ وعلى قوله تعالى: "مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ". قال أبو المفضل العنبري: ما أراد إلا الحيات بأعيانها في هذا الموضع، فإن العقبان أسرع إلى أكل الحيات، من الحيات إلى أكل الفأر. وبدلُّ على أنه إنما أراد رؤوس الحيات بأعيانها، قوله:

قطعاً من الأحناشِ جَمَاجِمُهُنَّ كالخشلِ النزيعِ

لأن أَرُوسَ الحياتِ سخيْفَةً، قليلة اللَّحْمِ والعظامِ، فلذلك شَبَّهها بِالْحَسَلِ النزيعِ، والخشلِ:
المُقْلِ السخيفِ اليابسِ الخفيفِ.
شعر فيه ذكر المقل والحتيِّ قال خلف الأحمر:

سقى حجاجنا نوء الثريا ما كان من مطل
وتخل
جمعوا النعالَ فأحروها^{وا} دونها باباً بقفل
أهديت فاكهةً وشو^{عشر} دجاجٍ بعثوا بنعلِ
ومسواكينِ طولهما ذراع^{عشر} من رديِّ المقلِ
وتخل
أهديتُ ذاك
ليحملوني
تعلُ فدقَّ الله رجلي
أناسُ تائهونَ، لهم رواءُ سماؤهم من غير
انتسبوا ففرعُ من ولكنَّ الفعالَ فعالُ عكلي
قريش
والحتيِّ، المقلُّ على وجهه، وقال أبو ذؤيب:
درِّي إن أطعمتُ قِرْفَ الحتيِّ وعندِي البُرُّ
نازلهم مكنوز

للسنور فضيلة على جميع أصناف الحيوان ما

خلا الإنسان

وإذا قال القائل: فلانٌ وضعَ كتاباً في أصنافِ الحيوانِ - فليس يدخل فيها الملائكةُ والجنُّ،
وعلى هذا كلام الناس.
وللحيوان موضع آخر، وهو قول الله عزَّ وجلَّ في كتابه: "وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ".
قد علمنا أن العُجمَ من السُّباعِ والبهائمِ، كلما قُرِبت من مُشاكلةِ الناسِ كان أشرف لها
والإنسان هو الفصيح وهو الناطق.

إطلاق الناطق على الحيوان وقد يشتقون لسائر الحيوان الذي يُصَوِّتُ وبصيح، اسم الناطق إذا قرنوه في الذكر إلى الصامت، ولهذا الفرق أعطوه هذه المشاكلة، وهذا الاشتقاق، فإذا تهيأ من لسان بعضها من الحروف مقدراً يَفْضَلُ به عَلَى مقادير الأصناف الباقية، كان أولى بهذا الاسم عندهم، فلما تهيأ للقطاة ثلاثة أحرف قاف، وطاء، وألف، وكان ذلك هو صوتها، سَمَّوها بصوتها، ثم زعموا أنها صادقة في تسميتها نفسها قطا، قال الكيميت:

كالناطقات الصادقا الواسقات من الدخائر

وقال الآخر وذكّر القطاة:

وصادقة قد خَبَّرَتْ ما طُرُوقاً وياقي الليل في
بعثتها الأرض مُسَدِّفُ

فجعلها مُخْبِرَة، وجعل خبرها صدقا، حين زعمت أنها

قطا؛ وإنه كانت القطاة لم تَرْمُ ذلك.

والعرب تتوسع في كلامها، وبأي شيء تفاهم الناس فهو

بيان، إلا أن بعضه أحسن من بعض، والذي تهيأ للشاة

قولها: ما، ولذلك قال ذو الرُّمة:

يرفعُ الصَّوْتُ إلا ما تخَوَّنَه
مَبْغُومُ يَنايه باسم الماء

وقال أبو عبَّاد النميريّ لخرَّبَقِ العُميري، وكان يتعشَّقه ورآه قد اشترى أُصْحِنَة، فقال:

ذابح الماء ماه فعلت فعل الجفاه

رَجِمَتْ مِنَ المِو خريبق شاه

والصبيان هم الذين يسمون الشاة: ما، كأنهم سموها

بالذي سمعوه منها، حين جهلوا اسمها.

وقيل لصبي يلعب على بابهم: من أبوك يا غلام؟ وكان
اسم أبيه كلباً- فقال: وَوْ وَوْ.

وزعم صاحبُ المنطق، أن كل طائر عريض اللسان،
والإفصاح بحروف الكلام منه أوجد.

ولابن آوى صياح يشبهُ صياح الصبيان، وكذلك الخنزير،
وقد تهيأ للكلب مثلُ: عَفْ عَفْ، وَوْ وَوْ، وأشباه ذلك،

وتهيأ للغراب القاف، وقد تهيأ للهزار دَسْتان - وهو

العندليب - ألوانٌ آخر، وقد تهيأ للبيغاء من الحروف أكثر،

فإذا صرّت إلى السنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروفِ

العددُ الكثير، ومتى أحببت أن تعرفَ ذلك فتسمّع تجاؤبَ

السنانيرِ، وتوَعَّدَ بعضها لبعض في جوف الليل، ثم احصِ

ما تسمعه وتتبعه، وتوقفْ عنده، فإنك ترى من عدد

الحروف ما لو كان لها من الحاجات والعقولِ

والاستطاعات؛ ثم ألقها لكانت لغةً سالحةً الموضع،

متوسطة الحال، العلة في صعوبة بعض اللغات واللغاتِ

إنما تشتدُّ وتعسُرُ عَلَى المتكلم بها؛ عَلَى قَدْر جهله
بأماكنها التي وُضعت فيها، وَعَلَى قَدْر كثرةِ العددِ وَقَلَّتِه،
وَعَلَى قَدْر مخرجها، وَخَفَّتِهَا وَسَلَسَهَا، وَثَقَلَهَا وَتَعَقَّدَهَا فِي
أَنْفُسِهَا، كَفَرَقَ مَا بَيْنَ الزَّنْجِي وَالخُوزِي فَإِنَّ الرَّجُلَ
يَتَنَخَّسُ فِي بَيْعِ الزَّنْجِ وَابْتِيَاعِهِمْ شَهْرًا وَاحِدًا فَيَتَكَلَّمُ بِعَامَّةِ
كَلَامِهِمْ، وَيَبَايِعُ الخُوزَ، وَيَجَاوِزُهُمْ زَمَانًا فَلَا يَتَعَلَّقُ مِنْهُمْ
بَطَائِلَ.

والجملة: أَنَّ مِنْ أَعْوَنِ الْأَسْبَابِ عَلَى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ فِرطُ
الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ، وَعَلَى قَدْرِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا فِي الْمَعَامَلَةِ
يَكُونُ الْبُلُوغُ فِيهَا، وَالتَّقْصِيرُ عَنْهَا.
مناسبة الهر للإنسان والسنور يناسب الإنسان في أمور:
منها أنه يعطس، ومنها أنه يتثأب، ومنها أنه يتمطى
ويغسل وجهه وعينيه بلعابه، وتلطع الهرُّ وِبرَ جلدِ ولدها
بعد الكبر، وفي الصغر، حتى يصير كأن الدهان تجري في
جلده.

ما يتهياً للغربان من الحروف ويتهياً لبعض الغربان من الحروف والحكاية ما لا يعشيره البغاء.

نفع الفأر

وزعمت الأطباء أن خُرءَ الفأر يُسقاؤه صاحبُ الأسر فيُطَلَّق عن بوله، والأسر هو حُصر البول ولكن لا يسمَّى بذلك، وهو الأسر بالألف، دون الياء. ويصيب الصبيَّ الحُصر فيحتمل من خُرء الفأر فيُطَلَّق عنه، فقد تهياً في خرء الفأر دواءان لدايين قاتلين مَجْهَزين، ولذلك قيل لأعرابيِّ قد اجتمعَتْ فيه أوجاعُ شداد: أَيَّ شيءٍ تشتكى؟ قال: أمَّا الذي يعمدني فحُصْرُ وأُسْر.

استطراد لغوي

يقال: حَتَّى الثور يَحْنِي حَنْيًّا، وواحد الأحناء حَنْيُّ كما ترى. ويقال: حَزَق الطائر، وَدَرَق، وَمَزَق، وَرَزَق.

قال ابن الأعرابي: لا يكون النَّجْوُ جَعْرًا حتى يكون يابساً.

ويقال: وَتَمَّ الدُّبَابُ، واسم نجوه: الونيم، وقال الشاعر:

وَتَمَّ الدُّبَابُ عَلَيْهِ حَتَّى وَنِيمُهُ نَقَطَ المِدَادِ

وهو ونيم الدُّبَابِ، وَغَرَّةُ الطَّائِرِ، وصوم النَّعَامِ، وَرَوثُ الحِمَارِ وبعر البعير والشاة والطبي،

وَخَثِي البقر.

وقال الرُّبَيْرُ: مَنْ أَهْدَى لَنَا مِكَتَلًا مِنْ عُرَّةٍ أَهْدَيْتَنَا لَهُ مِكَتَلًا مِنْ تَمْرٍ.

قال: العُرَّةُ اسْمٌ لجميع ما يكونُ من جميع الحيوان، ولذا قال الزبيرُ ما قال.

قال: ويقال: رَمَصَتِ الدجاجة، وذرفت، وسَلَحَتِ، فرذا صاروا إلى الإنسان والفأرة قالوا: خرد

الإنسان وُخِرَ الفأرة، ويقال خروءة الفأرة أدخلوا الهاء، فيه، كما قالوا ذكورة للذُّكران، وقد

يُستعار ذلك لغير الإنسان والفأرة، قالت دَحْتَنُوس بنتُ لقيط بن زُرارة، في يوم شِعْبِ جَبَلَةَ:

بنو أسدٍ خرو الطَّير عن أربابها

فلذلك يقال لبني أسد: خروء الطير، وقيل لهم: عبيد

العَصَا.

بيت قاله صاحبهم بشر بن أبي خازم، قالها لأوس بن

حارثة:

العَصَا لَمْ يَتَّقُوا سِوَى سَيْبِ سَعْدَى إِنَّ

سَيْبِكَ وَاسِعٌ

بذمةٍ

ميسم الشعراء

فيحُبُّ على العاقل بعد أن يعرف ميسم الشُّعْر مَصْرَّتَهُ، أن يَتَّقِي لسانَ أَحْسَنِ الشُّعْرَاءِ

وأجملهم شِعْرًا بِشِطْرٍ ماله؛ بل بما أمكَن من ذلك، فأما العربيُّ أو المولى الرَّأوية، فلو خرَّج

إلى الشعراء من جميع ملكه لما عَنَّقَهُ.

والذي لا يكثرث لوفع يَبال الشعر، كما قال الباخري:

لِي أَرَى النَّاسَ يَأْخُذُونَ وَيَسْتَمْتَعُونَ بِالنَّشَبِ
وَيُعْطَوْنَ

وَأَنْتَ مِثْلُ الْحِمَارِ أَبْهَتْهُمُكَ جِرَاحَاتِ أَلْسِنِ
الْعَرَبِ

ولأمر ما قال حذيفة لأخيه، والرماح شوارع في صدره:
إياك والكلام المأثور.

وهذا مذهب قرعت فيه العرب جميع الأمم، وهو مذهب
جامع لأسباب الخير.

استطراد لغوي

قال: ويقال لموضع الغائط: الخلاء، والمذهب، والمخرج، والكنيف والحش، والمرحاض،
والمرفق.
وكل ذلك كناية واشتقاق، وهذا أيضاً يدلك على شدة هربهم من الدناءة والفُسولة، والفحش
والقذع.

قال: وعن اليزيدي: رج الرجل، من الرجيع.
وخبرني أبو العاص عن يونس، قال: ليس الرجيع إلا رجيع القول والسفر والجرة، قال الله
تعالى: "والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ" وقال الهذلي وهو المتنخل:

أبيض كالرَّجْعِ رسوبٌ إذا ثاخ في مُحْتَقَلٍ يَحْتَلِي
وفي الحديث: فلما قَدِمْنَا الشَّامَ وجدنا مرافقهم قد

اسْتُقْبِلَ بها القِبْلة، فكنا ننحرف ونستغفر الله،

شعر ابن عبدل في الفأرة والسنور

وقال ابن عَبْدَل في الفأرة والسُّور:

طلحةَ الجوادِ أغثني بسجالي من سيبك
المقسوم
نفسِي فدتك نفسِي فليسُ قد علمتَ ذاك
عديم
تطوعُ لنا بسلفِ دقيقٍ إن فعلتَ ذاك عظيمُ
علمتُم فلا تعامس عني قضى الله في طعام
اليتيم
أراد: لا تعامسوا، فاكتفى بالضمّة من الواو، وأنشد:

أنَّ الأطباءَ كان
حولي
مع الأطباءِ الأساء
لي غيرُ جرةٍ وأصوكتابٍ منمنمٍ كالوشوم
وكساءٍ أبيعُه برغيفٍ رقعنا خرّوقه بأديمٍ
وإكافٍ أعارنيه نَشيطٌ لحافٌ لكلِّ ضيفٍ كريمٍ
مما يبيعُ ضُهيْبُ الشيخِ رمحه ما يقومُ
حلا فقد ذكرْتُ
أصيبي
ولحافي حتى يغورَ النجومُ
بيت عليه نصفُ
رغيفٍ
قسمُ عليهم معلومُ
منه موليا فأر بيتي كان ساكناً ما يريمُ
: هذا صومُ النصارى تليخُوا شيوخكم في
فحلوا
السمومُ
ضحكُ الفأرِ ثم قلن
جميعاً
الحقُّ كلَّ يومٍ تصومُ
: إن البراء قد قامَ
ال
بإذنٍ وأنتَ فينا
ذميمُ
حملوا زادهم على
وقراد مخيس مزمومُ
خنفسات

ضفدعُ عليه إكافلموه بعد النفار الرسيمُ
خطموا أنفه بقطعة حبلقومي لأنفه المخطومُ
تصبوا منجنيقهم حولَ لقومي لبيتي المهدمُ
بيتي

في الغباء سمُّ فوق بيتنا بقدمُ
بُرَيْص

: بيتُ الجرينِ مجمعُ قدماً لجمعكم
صدق معلوم

: لولا سنورتاهُ مسكناً تحتَ تمره
احتفرنا المركوم

تُلاقِ سنورتاهُ فستأوانا وجمعنا كالهزيمُ
عششَ العنكبوت في قعر من رزيتي لعظيم

ليتني قد غمرت تدني العنكبوت فيه يعومُ
حتى

لا يغيثه الدهر إلا فوق رأسه مركوم
مخرجاً كفه ينادي أغثني فإنني

ذباباً مظلوم
ذرني فلن أطيع نبيذ يشمه
المزكوم

وقال في الفأر والسنور:

قتال سنورنا وأعهدهُ كان عضباً مقوهاً لسنا
أصبحت عندنا جنازته لطنطت واشترى لها كفتاً
جمعنا صحابتي وغدوا كريبُ يبكي وقام لنا
عجوزٍ حلو شمائله كانت لجرذان بيتنا شحنا

كلُّ حدياء ذاتٍ جرذٍ ذي شوارب أرنا
خشخشة

سقياً لسنورة فجعتُ بكهانت لميثاء حقبَةً سَكْنَا

ضروب الفأر

قال: والفأر ضروب: فمنها الجُرذَان والفأر المعروفان،

وهما كالجواميس والبقر، وكالبُخْت والعِراب، ومنها

الزباب، ومنها الخُلْدُ، واليرابيع شكلٌ من الفأر، اسم ولدٍ

اليربوعِ دِرص، مثل ولد الفأر.

ومن الفأر فأرةُ المِسك، وهي دويبةٌ تكونُ في ناحية تُبَّت،

تصادُ لنوافجها وسُرِّرها، فإذا اصطادها صائدٌ عَصَب سُرَّتْها

بعصاب شديد، وسُرَّتْها مدلاة، فيجتمع فيها دمها فإذا

أحْكَم ذل ذبحها.

وما أكثر من يأكلها - فإذا ماتت قوّر السرة التي كان

عصَبها له والفأرة حَيَّة، ثم دفنها في الشعير حتى يستحيلَ

ذلك الدمُ المحتقِنُ هناك، الجامدُ بعد موتها، مِسكاً ذَكِيّاً،

بعد أن كان ذلك الدمُّ لا يُرام تَنّاً.

قال: وفي البيوت أيضاً قد يوجد فأرٌ مما يقال له: فأر

المسك، وهي جردانٌ سودٌ ليس عندها إلا تلك الرائحة
اللازمةُ له.

قال: وفي الجردان جنسٌ لها عبثٌ بالعقود والشُّنوف،
والدراهم والدنانير، على شبيهه بالذي عليه خُلِقَ العَقَعَقُ؛
إلا أن هذه الجردان تفرح بالدنانير والدراهم، وبخشخاش
الحلي، وذلك أنها تخرجُها من حجورها في بعض الزمان،
فتلعب عليها وحواليها، ثم تنقلها واحداً واحداً، حتى تُعيدها
عن آخرها إلى موضعها.

فزعم الشَّرْقِيُّ بْنُ الْقُطَامِيِّ - وقد رَوَوْهُ عن شَوْكَرٍ أَنَّ
رجلاً من أهل الشام اطلَّع على جُرْدٍ يُخْرَجُ من جُحْرِهِ
ديناراً ديناراً، فلما رآه قد أخرج مالاً صالحاً استخَفَّهُ
الجِرْصُ، فهمَّ أن يأخُذَهُ، ثم أدركه الحَزْمُ، وفتح له الرزقُ
المقسوم باباً من الفطنة، فقال: الرَّأْيِيُّ أَنَّ أَمْسِيكَ عَنْ
أَخْذِهِ مَا دَامَ يَخْرُجُ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ يُدْخِلُ فَعِنْدَ أَوَّلِ دِينَارٍ يَغِيْبُهُ
وَيُعِيدُهُ إِلَى مَكَانِهِ أَثْبُ عَلَيْهِ، فَأَجْتَرَفُ الْمَالَ.

قال: ففعلتُ و وعدتُ إلى موضعي الذي كنتُ أراه منه،
فبينما هو يُخْرَجُ إذ ترك الإخراج، ثم جعل يرقصُ ويثبُّ إلى
الهواء، ويذهبُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً ساعة، ثم أخذ ديناراً فولَّى
به، فأدخله الجُحر، فلما رأيتُ ذلك قمْتُ إلى الدنانير
فأخذتها، فلما عادَ ليأخذَ ديناراً آخر فلم يجد الدنانير أقبِل
يثبُّ في الهواء، ثم يضربُ بنفسه الأرضَ، حتى مات.
وهذا الحديثُ من أحاديثِ النساءِ وأشباه النساءِ.

باب آخر يدعونه للفأر

وهو الذي ينظر فيه أصحاب الفِراسة في قرض الفأر،
كما ينظر بعضهم في الخيلان، وفي الأكتاف، وفي أسرار
الكفِّ: ويزعمون أنّ أبا جعفر المنصور نزلَ في بعض
القُرَى، فقرض الفأرُ مِسْحاً له كان يجلسُ عليه، فبعث به
لِإِرْقَاءٍ، فقال لهم الرِّقَاءُ: إنّ هنا أهل بيتٍ يَعْرِفون بقرضِ
الفأر ما ينال صاحب المتاعِ من خير أو شر، فلا عليكم أن

تعرضوه عليهم قبل أن تصلحوه، فبعث المنصورُ إلى شيخهم، فلما وقعت عينُه على موضعِ القرضِ وثبَ وقام قائماً ثم قال: مَنْ صاحبُ هذا المِسْحِ؟ فقال المنصورُ: أنا، فقام ثم قال: السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةَ الله وبركاته والله لَتَلِيَنَّ الخِلافةَ أو أكون جاهلاً أو كذاباً. ذكر هذا الحديثَ عمرو بن مَجْمَعِ السَّكُونِي الصَّرِيمِي وقد قَصَى على بعض البلدان.

فأرة المسك

وسألت بعضَ العطارين من أصحابنا المعتزلة عن فأرة المسك فقال: ليس بالفأرة، وهو بالخِشْفِ أشبه، ثم قصَّ عَلِيٌّ شَأْنَ المسك وكيف يُصْطَنَعُ، وقال، لولا أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد تطَيَّبَ بالمِسْكِ لَمَا تطَيَّبَتْ به، فَأَمَّا الزبَادُ فليس مما يقرب ثيابي منه شيء. قلت له: وكيف يرتضع الجدِّي من لبنِ خنزيرة فلا يحرم لحمه؟

قال: لأنَّ ذلك اللبن استحال لحمًا، وخرج من تلك الطبيعة، ومن تلك الصورة، ومن ذلك الاسم، وكذلك لحومُ الجلالة، فالمسكُ غيرُ الدَّم، والحلُّ غير الخمر، والجوهرُ ليس يحرم بعينه، وإنما يحرم للأعراض والعِلل، فلا تَقَرَّرُ منه عند تذكرِ الدَّم الحقيقين؛ فإنه ليس به، وقد تتحوَّل النار هواءً، والهواءُ ماءً، فيصير الشبه الذي بين الماء والنار بعيداً جداً.

بيت الفأر

والجِرْدَانُ لا تحفرُ بيوتها على قارعةٍ طريقٍ، وتجتنبُ الخفض؛ لمكان المطر، وتجتنبُ الجَوَادَّ؛ لأن الحوافر تهدمُ عليها بيوتها، فإذا أخرجها وقع حافر فرس، مع هذا الصَّنيع، دلَّ ذلك على شدة الجري والوقع، وقال امرؤ القيس يصفُ فرسه:

فللسوطِ أهبوبٌ وللزجرِ منه وقعُ أهوجِ
وللرجلِ درةٌ منعِبُ
فأدرك، لم يعرقِ مناطُ كخُدُروفِ الوليدِ
عذارِهِ المثقبِ
الفأرِ في مستعكدِ جدِّ الصحراءِ من شدِّ
الأرضِ لاجئاً مَرَكِبِ

خفاهنَّ: أظهرهنَّ، وقرأ بعضهم: "إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَحْفِيهَا"، بفتح الألف؛ أي أظهرها، وقال

امرؤ القيس:

تَدْفِنُوا الداءَ لا نَحْفِهِ تَبِعْتُوا الحَرْبَ لا نَقْعِدِ

وقال أعرابيٌّ: إن بني عامرٍ جَعَلْتَنِي على حنْدِيرَةٍ أَعْيُنُهَا، تريد أن تختفيَ دمي.

استطرد لغوي وقال أبو عبيدة: أربعة أحرف تهمزها عُقِيل من بين جميع العرب، تقول: فأرة، ومُؤَسَى، وجُوْنَة، وحوْت.

فأصناف ما يقع عليه اسمُ الفأرة: فأرة البيش، وفأرة البيت، وفأرة المسك، وفأرة الإبل، وفي فأرة المسك يقول حُمَيْدُ الأرقط:

مَمْطَوْرَةٌ خالَطَ مِنْها النَّشْرُجُ شُقَّقَ عَنْه الْفَأْرُ

وفي فأرة الإبل قال الشاعر:

فأرة مسك في بدا من ضياء الصُّبح
مبااتها تبشيرٌ

وهذا شبيهة بالذي قال الراعي - وليس به :-

بناثُ القَفْرِ عند لَبانِهِ بأَجَقَفَ من أنقاءِ ثَوْصِحَ

القِطارَ حَرَّكَتْ في مسكٍ في مُعَرَّسِ
قافلٍ

الأصمعي وأبو مَهْدِيَةَ قال الأصمعيُّ: قلت لأبي مَهْدِيَةَ:

كيف تقول: لا طيبَ إلا المسكُ؟ قال: فأين أنت من

العنبر؟ قال: فقلت: لا طيب إلا المسك والعنبر، قال:

فأين البان؟ فقلتُ: لا طيب إلا المسك والعنبر والبان،

قال: فأين أنت عن أدهان بحجر؟ قال: فقلت: لا طيب إلا

المسك، والعنبر، والبان، قال: فأين أنت عن أدهان

بحجر؟ قال: فقلت: لا طيب إلا المسك، والعنبر، والبان،

وأدهان بحجر، قال: فأين فأرة الإبل صادرة؟ قال
الأصمعي: وفأرة الإبل.

فأرة البيش والسمندل

وفأرة البيش دويبة تغتذي السُّموم فلا تضرها، والبيش
سم، وحكمه حُكم الطائر الذي يقال له: سَمَنْدَل؛ فإنه
يسقط في النار فلا يحترق ريشه.

ما لا يقبل الاحتراق وُتبت عن أمير المؤمنين المأمون أنه
قال: لو أُخِذَ الطُّحْلَبُ فجفف في الظل، ثم أسقط في
النيران لم يحترق.

ولولا ما عاينوا من شأن الطلق والعود الذي يُجاء به من
كجز لاشتد إنكارهم.

وزعم ابن أبي حرب أن قيساً راهن على أن الصليب الذي
في عنقه من خشب، أنه لا يحترق؛ لأنه من العود الذي
كان صلب عليه المسيح، وأنه كان يفتن بذلك ناساً من

أهل النظر، حتى فطن له بعض المتكلمين، فأتاهم بقطعة
عودٍ يكون بكرمان، فكان أبقى على النار من صليبه.

مساوي السنابير

قال صاحب الكلب: والسنور لصُّ لئيم، وشِرُّه خُوون،
فمن ذلك أن صاحب المنزل يرمي إليه ببعض الطعام،
فيحتمله احتمال المُرِيب، واللصُّ المغير، حتى يُولج به
خَلْفَ حُبِّ أو راقود، أو عِدْلٍ أو حطب، ثم لا يأكله إلا وهو
يتلفَّت يميناً وشمالاً، كالذي يخافُ أن يُسَلَبَ ما أُعطي، أو
يُعْتَرَّ على سَرِيقته فيعاقب، ثم ليس في الأرض خِبْثَةٌ إلا
وهو يأكلها، مثل الخنافس والجِعلان، وبناتِ وِردان،
والأوزاغ، والحَيَّاتِ، والعقاربِ، والفأر، وكلُّ نتن وكل
خبْثَةٌ، وكلُّ مستقْدَر. وهذه الأنعامُ تدخل الغيض، فتجتنبُ
مواضع السمومِ بطبائعها، وتتخطاها ولا تلتفت لِقْتها،
وربما أشكل الشيءُ على البعير، فيمتحِنُه بالشِّمة

الواحدة، فلا تغلط الإبلُ إلا في البيش وحده، ولا تغلط
الخيَلُ إلا في الدَّفلى وحده.

والسنانيِرُ تموت عن أكل الأوزاغ والحيّات والعقارب، وما
لا يحصى عدده من هذه الحشرات، فهذا يدلُّ على جهل
بمصلحةِ المعاش، وعلى حسِّ غليظٍ وشَرِّه شديدٍ.
هَيَّجَ الحيوان قالوا: وكل أنثى من جميع الحيوان، ما خلا
المرأة، فلا بدَّ لها من هَيَّج في زمان معلوم، ثم لا يُعرف
ذلك منها وفيها إلا بالدلائل والآثار، أو ببعض المعاينة.
وإنَّ السنانير، إذا هجن للسَّفاد، آذَيْن بصياحهنَّ أهلَ
القبائل ليلاً ونهاراً، بشيء ظاهر قاهر عليّ، لا يعتريهن
قَترَةٌ ولا مَلالَةٌ ولا سامة، فربَّ رَجُلٍ حُرٍّ شديدِ العيرة،
وهو جالسٌ مع نساءه وهُنَّ يتردّدن على مثل هذه الهيئة،
ويصرُخُن في طلب السَّفاد، فكم من حرة قد خجلت،
وحُرٌّ قد انتقضت طبيعته.

وليس لشيء من فحولتها مثلُ ذلك، فكل جنس في

العالم من الحيوان فذكورته أظهر هيجاً، إلا السنانير.
وليس لشيء من فحولة الأجناس مثل الذي للجمل من
الإزباد، وهجران الرّعي، وترك الماء، حتى تنضمّ أياطله،
ويتورّم رأسه، ويكون كذلك الأيام الكثيرة، وهو في ذلك
الوقت لو حُمّل على ظهره - مع امتناعه شهراً من
الطعام - ثلاثة أضعافِ حِمْلِهِ لِحَمَلِهَا.

المكي وإسماعيل بن غزوان ونظر المكيّ إلى جمل قد
أزبد وتلغم، وطار على رأسه منه كشقق البرس، وقد زمّ
بأنفه، وهو يهدر ويقبب، لا يعقل شيئاً إلا ما هو فيه،
فقال لإسماعيل بن غزوان: والله لوددت أن أهل البصرة
رأوني يوماً واحداً إلى الليل على هذه الصفة، وأنّي
خرجت من قليل مالي وكثيره فقال له إسماعيل: وأي
شيء لك في ذلك؟ قال: كنت والله لا أصبح حتى يوافي
داري جميع نساء أهل البصرة، وجواريك فيهنّ فلا أبدأ إلا
بهنّ قال إسماعيل: إنك والله ما سبقتنني إلا إلى القول،

وأما النية والأمنيّة فأنا والله أتمنّى هذا منذ أنا صبيّ.
حال بعض الحيوان عند معاينة الأنثى وللحمار والفرس
عند معاينة الحجر والأتان هَيْجٌ وصياحٌ، وقلق وطلب،
والجملُ يقيم على تلك الصّفة عاين أو لم يعاين، ثم يُدنى
من هذه الذُّكورة إنأثها فلا تسمحُ بالإمكان إلا بعد أن
تسوّى وتُدأرى.

مقارنة بين السنور والكلب

قالوا: والسنانير إذا انتقل أربابها من دارٍ إلى دارٍ، كان
وطئها أحبَّ إليها منهم، وإن أثبتت أعيانهم، فإن هم
حوّلوها فأنكرت الدار لم تقمِ على معرفتهم، فرما هربت
من دارهم الحادثة ولم تعرف دارهم الأولى، فتبقى
متردّدة: إما وحشية، وإما مأخوذة، وإما مقتولة.
والكلب يخلّي الدار، ويذهب مع أهل الدار، والحمام في
ذلك كالسنور.

اختلاف أثمان السنور

قال صاحب الكلب: السنور يسوى في صغره درهماً، فإذا كبر لم ينسوّ شيئاً، وقال العممي:

فيما قد أتيت من سفاهاً وما قد ردت فيه
الخنا بإفراط كسنور عبد الله بيع
بأفراط صغيراً فلما شبَّ بيع
بغيره بقيراط بدزهم

وصاحب هذا الشعر، لو عبّر مع امرئ القيس بن حجر

والنابغة الدُّبَيَّاني، وزهير ابن أبي سُلمى، ثم مع جرير

والفرزدق، والراعي والأخطل، ثم مع بشار وابن هَرَمَة،

وابن أبي عُيينة، ويحيى بن نوفل وأبي يعقوب الأعور، ألف

سنة - لما قال بيتاً واحداً مرضياً أبداً.

وقد يضاف هذا الشعر إلى بشار، وهو باطل.

خُلاق الحيوان وزعم لي مَنْ لا أَرُدُّ خبره، أن الخُلاق قد

يَعرض للسنانير، كما يَعرض للخنازير والحمير.

وزعم لي بعضُ أهلِ النظر، أنّ الرّنج أشبهوا الحمير في

كلِّ شيء، حتى في الخُلاق؛ فإنه ليس على ظهرها زنجيٌّ

إلا وهو خَلقيٌّ.

وقد غلطا، ليس عليها زنجيُّ عليه مَؤونة من أن يُتاك،
وليس هذا تأويلَ الخُلاق، وتأويلُ الخُلاق أن يكون هو
الطالب.

والنبيذ يهتِكُ سترَ الحَلَقِيّ، وينقُضُ عِزْمَ المتجَمِّل، وهم
يشربون النبيذ أبدأً، وسوءُ الاحتمال له، وسرعة السكر
إليهم عامٌّ فيهم. وعندنا منهم أممٌ، فلو كان هذا المعنى
حقاً لكان علمه ظاهراً، فخبَّرني صاحبنا هذا أن في منزل
أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكِندي هَرين ذكرين
عظيمين، يكومُ أحدهما الآخر، وذلك كثيراً ما يكون، وأن
المنكوحَ لا يمانعُ الناكحَ، ولا يلتمسُ منه مثلَ الذي يبذله
له.

أكل الهرة أولادها

قالوا: والهرة تأكل أولادها، فكفاك بهذه الخصلة لُوماً وشَرهاً، وعُقوقاً وغلطاً قلب! وقال
السَّيد الحميريّ - وذكر مَسيرَ عائشة، رضي الله تعالى عنها، إلى البصرة مع طلحة والزُّبير،
حينَ شَهِدَتْ ما لم يشهَدَا، وأقدمت على ما نكصا عنه:

جاءت مع الأشقيين في تُرْجي إلى البصرة أجنادها

هَوْدَجٍ فِي فِعْلِهَا هِرَّةٌ أَنْ تَأْكَلَ أَوْلَادَهَا
ولبئس ما قال في أمِّ المؤمنين وبنْتِ الصِّدِّيقِ وقد كان
قادرًا على أن يوفِّرَ على عليٍّ - رضي الله عنه - فضله،
من غير أن يشتمَّ الحَوَارِيَّينَ، وَأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، ولو أراد
الحقَّ لسار فيها وفي ذكرها سيرةَ علي بن أبي طالب، فلا
هو جعل عليًّا قدوةً، ولا هو رعَى للنبيِّ صلى الله عليه
وسلم حرمةً.

وذكورة سنانير الجيران تأكلُ أَوْلَادَ الهرة، ما دُمْنَ صغاراً
أو فوقَ الصغار شيئاً، وتقتلها وتطلبها أشدَّ الطلب،
والأمهات تحرُّسها منها وتقاتلُ دوتها، مع عجزها عن
الذكورة.

الألوان الأصيلة في الحيوان قال أبو إسحاق: السنور الذي
هو السنور، هو المنمَّر، وهو الأنمر، وهو الذي يُقال له:
البقاليِّ، وذلك لكثرة اتخاذ البقالين لها، من بين سائر
السنانير، لأنها أصيد للفأر.

قال: وجميع ألوان السنابير إنما هي كالشيات الداخلة على اللون.

قال: وكذلك الحمار، إنما هو الأخضر، والألوان الأخر داخلة عليه.

قال: فأما الأسد فليست بذات شيات، ولا تعدو لوناً واحداً، ويكون ذلك اللون متقارباً غير متفاوت.

أحوال إناث السنابير وذكرها

قال: ومن فضيلة ما في السنابير، أنها تصع في السنة مرتين وكذلك الماعزة في القرى، إلا ما داس الحب.

قال: ويحدث لإناث السنابير من القوة والشجاعة إذا كامها الفحل وهرب منها عند الفراغ فلو لحقته قطعته.

ويحدث للذكر استخذاءً، كما يحدث للذئب القوي إذا ناله الخدش اليسير، ويحدث للضعيف من الجراءة عليه حتى يثب عليه فيأكله؛ فلا يمتنع منه، كما قال الشاعر:

وكنت كذئب السوء لمابصاحبه يوماً أحال على
دماً دم

ويحدث مثل ذلك للجرذ إذا خصي، من الحرد على سائر
الجرذان، حتى يثب فيقطعها، وتهرب منه ضعفاً عنه.

وسائر الحيوان إنما يعتره الضعف عن أمثاله إذا خصي

وترك أمثاله على حالها.

قول زَرَادِشْت فِي الْفَأْرِ وَالرُّدُّ عَلَيْهِ ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى قَوْلِ
زَرَادِشْت فِي الْفَأْرِ.

زعم زَرَادِشْتُ أَنَّ الْفَأْرَةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَنَّ السُّوْرَ مِنْ
خَلْقِ الشَّيْطَانِ، فَقِيلَ لِلْمَجُوسِ: يَنْبَغِي عَلَيَّ أَصْلَ قَوْلِكُمْ
أَنَّ يَكُونُ الشَّيْءُ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ خَيْرًا كُلَّهُ وَنَفْعًا كُلَّهُ،
وَمَرْفُوعًا كُلَّهُ، وَيَكُونُ مَا خَلَقَ الشَّيْطَانُ عَلَيَّ خِلَافَ ذَلِكَ،
وَنَحْنُ نَجِدُ عَيَانًا أَنَّ الَّذِي قَلْتُمْ بِهِ خَطَأً، رَأَيْنَا النَّاسَ كُلَّهُمْ
يُرُونَ أَنَّ الْفَأْرَ بَلَاءٌ ابْتَلَوْا بِهِ، فَلَمْ يَجِدُوا بَدَأً مِنَ الْإِحْتِيَالِ
لِصَرْفِ مُضَرَّتِهِ، كَالدَّاءِ النَّازِلِ الَّذِي يَلْتَمِسُ لَهُ الشِّفَاءَ، ثُمَّ
وَجَدْنَاهُمْ قَدْ أَقَامُوا السَّنَانِيرَ مَقَامَ التَّدَاوِيِّ وَالتَّعَالِجِ،
وَأَقَامُوا الْفَأْرَ مَقَامَ الدَّاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَأَمَرَ بِالتَّدَاوِيِّ
مِنْهُ، فَاجْتَلَبُوا لِذَلِكَ السَّنَانِيرَ وَبَنَاتِ عِرْسٍ، ثُمَّ نَصَبُوا لَهَا
أَلْوَانَ الصِّيَادَاتِ، وَصَنَعُوا لَهَا أَلْوَانَ السُّمُومِ وَالمَعْجُونَاتِ
الَّتِي إِذَا أَكَلَتْ مِنْهَا مَاتَتْ، وَاسْتَفْرَهُوا السَّنَانِيرَ وَاخْتَارُوا

الصيادات.

واجتَبوا السَّنور دون ابن عرس، لأن ابن عرسٍ يعمل في الفأر والطير كعمل الذئب بالغنم، فأول ما يصنع بالفريسة أن يذبحها، ثم لا يأكلها إلا في القَرط، والسَّور يقتل ثم يأكل، فالفار من السنورِ أشدُّ فَرَعاً، وهو الذي قوبل به طباعها وطباعه.

وكما أن الذي يأكل الدجاج كثير، وأن الذي جُعِلَ بإزائه ابن آوى، وكما أن الذي يأكل الغنم كثير، والذي جُعِلَ بإزائها الذئب.

والأسد أقوى منه على النعجة، والنعجة من الذئب أشد فَرَقاً. والحَيَّاتُ تُطالِبُ الفأرَ والجِرذان، وهي من السنورِ أشد فَرَعاً.

وإن كان في الجِرذان ما يُساوي السنور فإنها منه أشد فَرَعاً.

فإن كنتم إنما جعلتموه من خلق الشيطان لأكله صينفاً

واحداً من خلق الله - فالأصناف التي يأكلها من خلق
الشيطان أكثر.

وزعم زَرَادُشْتُ أَنَّ السَّنَّورَ لَوْ بَالَ فِي الْبَحْرِ، لَقَتَلَ عَشْرَةَ
آلَافِ سَمَكَةٍ.

فَإِنْ كَانَ إِنَّمَا اسْتَبْصَرَ فِي ذِمَّةِ فِي قَتْلِ السَّمَكِ فَالسَّمَكُ
أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ خَلْقِ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّ السَّمَكَ يَأْكُلُ
بَعْضَهُ بَعْضًا، وَالذَّكَرُ يَتَّبِعُ الْأُنْثَى فِي زَمَانِ طَرْحِ الْبَيْضِ،
فَكَلَّمَا قَذَفَتْ بِهِ التَّهْمَةَ، وَإِنْ غَرِقَ إِنْسَانٌ فِي الْمَاءِ، بَحْرًا
كَانَ أَوْ وَادِيًّا، أَوْ بَعْضُ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ - فَالسَّمَكُ أُسْرِعُ إِلَى
أَكْلِهِ مِنَ الصُّبَاعِ وَالنَّسُورِ إِلَى الْجَيْفِ.

وَعَلَى أَنَّ اعْتِلَالَهُ عَلَى السَّنُورِ، وَقَوْلُهُ: لَوْ بَالَ فِي الْبَحْرِ
قَتَلَ عَشْرَةَ آلَافِ سَمَكَةٍ، فَمَا يَقُولُ فِيمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْجُرْدَ
لَوْ بَالَ فِي الْبَحْرِ قَتَلَ مِائَةَ أَلْفِ سَمَكَةٍ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَبِينُ
مِنْهُ؟ وَهَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ كَسَرَ هَذَا الْقَوْلَ الظَّاهِرَ الْكَسْرَ،
الْمَكْشُوفَ الْمُوقَّعَ أَنْ يَفْرَحَ؟ وَهَلْ تَقْرَأُ الْجَمَاعَةُ وَالْأُمَّمُ بِأَنَّ

في الفأر شيئاً من المرافق؟ وهل يُمازجُ مصرَّتَها شيءٌ
من الخير وإن قلَّ؟ أو ليست الفأرُ والجِرذانُ هي التي
تأكلُ كُتُبَ الله تعالى، وكتبَ العِلْمِ، وكتبَ الحساب؛
وتقرضُ الثِّيَابَ الثمينةَ، وتطلبُ سِرَّ نوى القطنِ، وتُفسدُ
بذلك اللُّحْفَ والدَّواويجَ والجبابِ، والأقبية والخفاتينِ،
وتحسُّو الأدهانَ، فإن عجزتْ أفواهُها أخرجتْها بأذناها؟ أو
ليست التي تنقبُ السُّلالَ وتقرضُ الأوكيةَ وتأكلُ الجُرْبَ
حتى يُعلَّقَ المتاعُ في الهواءِ إذا أمكنَ تعليقُهُ؟.
وتجلبُ إلى البيوتِ الحيّاتِ؛ للعداوة التي بينها وبين
الحيّاتِ، و لحِرْصِ الحيّاتِ على أكلها، فتكون سبباً في
اجتماعها في منازلهم، وإذا كُثرن قتلن النفوسَ.
وقال ابن أبي العجوز: لولا مكان الفأر لما أقامت الحيّاتُ
في بيوت الناس، إلا ما لا بال به من الإقامة.
وتقتل الفسيل والنخل، وتهلك العلفَ والزرع، وربما
أهلكن القَرَاحَ كله وحملن شعير الكدس وبُرّه.

أو ليس معلوماً من أخلاقها اجتذابُ فتائل المصاييح رغبةً
في تلك الأدهان، حتى ربما جذبَتْها جهلاً وفي أطرافها
الأخر الشُّرج تستوقد فتحرق بذلك القبائل الكثيرة، بما
فيها من الناس والأموال والحيوان؟.

وهي بعدُ آكل للبيض وأصناف الفِراخ من الحيات لها.
فكيف لم تكن من هذه الجهة من خَلْق الشيطان؟.
هذا، وبين طباعها وطِباع الإنسانِ مُنافرةً شديدةً، ووَخْشَةً
مُفْرِطَةً، وهي لاتأنسُ بالناس وإن طالَتْ معاشتها لهم
والسِّتْوَرُ أنسُ الخلق بهم.

وكيف تأنس بهم وهم لا يُقلعون عن قتلها ما لم تقلع هي
عن مَسَاءَتِهِمْ؟ فلو كنَّ مما يؤكل لكان في ذلك بعض
المرفق، فكيف وإنما لثُلقي في الطريق ميّتة، فما يعرض
لها الكلبُ الجائع.

فالأمم كلها على التفادي منها واتخاذ السنابير لها.
وَزَرَادُشْت بهذا العقل دعا الناس إلى نكاح الأمهات، وإلى

التوضؤ بالبول، وإلى التوكيل في نيك المُغيبات، وإلى إقامة سُورٍ للسُّنْبِ، وصاحب الحائض والنفساء.

علة نجاح زرادشت ولولا أَنَّهُ صادف دهرًا في غاية الفسادِ، وأُمَّةً في غاية البُعد من الحرية ومن العَيْرَة والألفة، ومن التقرُّز والتنظف، لما تمَّ له هذا الأمر. وقد زعم ناسٌ أن ذلك إنما كان وإنما تمَّ لأنه بدأ بالملك؛ فدعاه على قدر ما عَرَف من طباعه وشهوته وحُلُقِه، فكان الملكُ هو الذي حَمَلَ على ذلك رَعِيَّتَه.

والذي قال هذا القولَ ليس يعرف من الأمور إلا بقدر ما باينَ به العامة؛ لأنه لا يجوز أن يكون الملكُ حملَ العامة على ذلك، إلا بعد أن يكون زَرَادَشْتُ أَلْفَى على ذلك الفسادِ أَجْنَادَ الملكِ، ولم يكن الملكُ ليقوى على العامة بأجناده، وبعشرة أضعاف أجناده، إلا أن يكون في العامة عالمٌ من الناس، يكونون أعواناً للأجناد على سائر الرعية. وعلى أن الملوكَ ليس لها في مثل هذه الأمور عِلَّةٌ تدعو

إلى المخاطرة بملكها، وإنما غاية الملوك كل شيء لا بد
للملوك منه، فأما ما فضل عن ذلك فإنها لا تخاطر بأصول
المُلْك تطلُب الفضول، إلا من كان مُلكه في نصاب إمامة،
وإمامته في نصاب نُبوَّة، فإنه يتَّبَع كلُّ شيء توجبه
الشريعة، وإن كان ذلك سبيلَ الرأي؛ لأن الذي شرع
الشريعة أَعْلَمُ بغيب تلك المصلحة، وقد ينبغي أن يكون
ذلك الزمان كان أفسدَ زمان، وأولئك الأهل كانوا شرِّ
أهل، ولذلك لم تر قطُّ ذا دين تحوّل إلى المجوسية عن
دينه، ولم يكن ذلك المذهب إلا في شِقِّهم وصُقْعهم من
فارسَ والجبالِ وخراسان، وهذه كلها فارسية.
أثر البيئة في العقيدة فإن تعجّبت من استسقاطي لعقلِ
كِسْرَى أبرويز وآبائه، وأحبّائه وقرايينه وكتّابه وأطبائه،
وحكمائه وأساورته - فإني أقول في ذلك قولاً تعرف به
أني ليس إلى العصبية ذهبت.

اعلم أنني لم أعنِ بذلك القولِ الذين وُلدوا بعدُ على هذه

المقالة، ونشؤوا على هذه الدِّيانة، وعُدُّوا بهذه التَّحلة،
وَرُبُّوا جميعاً على هذه الملة؛ فقد عَلِمْنَا جميعاً أن عقولَ
اليونانيةِ فوقَ الدِّيانةِ بالدهريةِ والاستبصارِ في عبادةِ
البروجِ والكواكبِ؛ وعقولَ الهندِ فوقَ الديانةِ بطاعةِ البُدِّ.
وعبادةِ البِدَدَةِ، وعقولَ العربِ فوقَ الدِّيانةِ بعبادةِ الأصنامِ
والخشبِ المنجورِ، والحجرِ المنصوبِ، والصخرةِ
المنحوتةِ.

فداءِ المنشأِ والتقليدِ، داءٌ لا يُحسِنُ علاجَه جالِيئوسٌ ولا
غيرُه من الأطباءِ، وتعظيمُ الكبراءِ، وتقليدُ الأسلافِ، وإلْفُ
دينِ الآباءِ، والأنسُ بما لا يعرفون غيرَه، يحتاجُ إلى علاجٍ
شديدٍ، والكلامُ في هذا يطولُ.

فإن آثرت أن تتعجب، حتى دعاك التعجُّبُ إلى ذكر أبرويز
- فاذكر ساداتِ قُريشِ، فإنهم فوق كسرى وآل كسرى.

دفاع صاحب السنور

وقال المحتجُّ للسنانير: قد قالوا: أبر من هرة وأعق من صبّ، وهذا قول الذين عاينوها تأكلُ
أولادها، وزعموا أن ذلك من شدة الحبِّ لها، وقال بعضهم: إنما يعتربها ذلك من جنونٍ يعتربها
عند الولادة، وجوعٍ يذهبُ معه علمها بفرقٍ ما بين جرائها وجِراء غيرها من الأجناس، ولأنها
متى أُشيعتْ أو أطعمت شيطَرَ شيعها لم تعرض لأولادها، والرد على الأمم أمثالها عملٌ
مسخوط، والعربُ لا تتعصب للسنور على الضبِّ؛ فَيُتوهَّم عليها في ذلك خلافُ الحقِّ، وإنما
هذا منكم على جهة قولكم في السنور إذا تجت لنجوه ثم ستره، ثم عاودَ ذلك المكان فشتمه
فإذا وجد رائحةً زاد عليه من التراب، فقلتم: ليس الكرمَ وستر القبيح أراد، وإنما أراد تأنيس
الفأر، فنحنُ لا تدعُ ظاهر صنيعة الذي لا حُكم له إلا الجميل لِمَا يدّعي مُدّعٍ من تصاريفِ
الضمير، وعلى أن الذي قَلتموه إن كان حقًّا فالذي أعطيتموه من فضيلة التدبير أكثر مما
سلّتموه من فضيلة الحياء.

العيون التي تسرح بالليل قال: والعيون التي تُسرح باللي: عيون الأسد، والأفاعي؛ والسنانير،
والثُمور.

والأسدُ سُجِرَ العيون، وعيون السنانير منها زُرُق، ومنها ذهبية، كعيون أحرار الطير وعِتاقها،
وعيونُ الأفاعي بين الزُّرُق والذهبية، وقال حسان بنُ ثابت:

كَأَنَّ السَّمْنَ فِي نُجُومِ الثَّرِيَا أَوْ عُيُونِ
حَجَرَاتِهِ
الصَّيُونِ: السَّنُور.

تحقيق في الألوان وإذا قال الناس: ثوب أزرق فإنهم يذهبون إلى لون واحد، وإذا وصفوا بذلك
العينَ وَقَعَ على لونين؛ لأن البازي يسمى أزرق وكذلك العقاب، والزُّرُقُ، وكل شيء ذهبيُّ
العين، فإذا قالوا: سنور أزرق لم يُدَر، أذهبوا إلى ألوان الثياب أم إلى ألوان عيون البزاة.
وقد قال صُحَّارُ العبدِيّ حين قال له معاوية: يا أزرق قال: البازي أزرق، وأنشد:

عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ سُكَلَتِكَذَاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ سُكَلُ
عَيْونِهَا

والذهب قد يقال له أصفر، ويقال له أحمر.

وقال بعض بني مَرْوَانَ لبعض ولد متمم بن ثوبرة: يا أحمر قال: الذهب أحمر، فلذلك زعم أن

عِثاقُ الطيرِ سُكْلُ عيونها.

وقال الأخطل:

زالت القنلى تمورٌ يدجلةً حتى ماءٌ رجلة
دماؤهم أشكلُ
فالشكلة عندهم تقع على الصفرة والحمرة إذا خالطا
غيرهما.

الزرق العيون من العرب فمن الزرق من الناس صُحارُ
العبدِيُّ، وعبدُ الرحمن ابْنُه، وداؤد بن مَتَمِّم بن نويرة،
والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ومرون بن
محمد بن مروان، وسعيد بن قيس الهمداني، وزرقاءُ
اليمامة، وهي عَنَز، من بنات لُقمان بن عادِيا.
ومن الزُّرُق ممن كانوا يتشاءمون به: قيس بن زهير،
وكان أزرق وكان بكرًا وابن بَكْرين، وكانت البسوسُ
زَرْقَاءَ وبكرًا بنت بَكْرين، ولها حديث لا أحقُّه.
وكانت الزُّبَاءُ زرقاء، والزُّرُق العيون، من بني قَيس بن
ثعلبة، منهم المرفِشان، وغيرهما.

الحمير الحماليق من العرب والحمزُ الحماليق، من بني

شيبان، وكان النعمان أزرق، أقشَرَ، أحمر العينين، أحمر
الحماليق، وفيه يقول أبو قُرودة حين نهى ابن عمار عن
مناذمته:

نهيتُ ابنَ عمارٍ وقلتُ آمننْ أحمرَ العينينِ
والشعره
الملوك متى تنزلُ بنارك من نيرانهم
بساحتهم شرره
جفنة كإزاء الحوض قومنطقاً مثل وشي اليمنة
هدموا الحبرة

شعر في الزرق وقال عبد الله بن همام السلولي:

يكوننَّ مالُ الله مأكلةً أزرق من همدان
مكتجِل

وقال آخر:

زرق عيناك يا ابنَ كلِّ صبيٍّ من اللؤمِ
مكغير أزرق

وفي باب آخر يقول زهير:

وردن الماء زرقاً وصعن عصي الحاضر
جمامه المتخيم

معارف في حمرة العين وقال يونس: لم أر قرينياً قط أحمر عروق العينين إلا كان سيِّداً
شجاعاً.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان أشكل العينين ضليع الفم.

في الدعاء على الفأر

قال: ونزل أبو الرُّغل الجرمي بعض قرى أنطاكية فلقي من جردانها شراً، فدعا عليها
بالسنابير فقال:

ربُّ شُعْتِ بَرِي الإسَاوْمُنْزِلَ الحُكْمِ فِي طه
 أوجههم وحاميم
 لشيخ ثوي بالشام النصير بعيدِ الدار
 مُعْتَرِباً مهموم
 تَكْتَفُهُ قَرِيْبَاتُ الخَطْقَوْقِصُ الرِّقَابِ لِطِيْفَاتُ
 الخراطيم
 حجنُ المخالب والأنياب الرقابِ رحيباً
 شابةً الحيازيمِ
 لهنَّ فما تنفكُ من ذِيَالَةِ مِقَاءِ عُلْجُومِ
 قنص
 أبيتَ وزادي غيرَ النزِيلِ ولا كَرزِي
 منعكم بمعكوم

وأنشدني ابنُ أبي كريمة، ليزيدَ بنِ نَاجِيَةِ السَّعْدِي: سعدِ بنِ بكر، وكان لقيَ من الفأرجهداً،
 فدعا عليهنَّ بالسنانير، فقال:

أزهير مالك لا يهملك ما أخزى إله محمد أصحابي

العيون، صغيرة الحناديس يعتورن
 آذانها جرابي
 الأنوفِ لريحِ كلِّ يلحظنَ لحظِ مروعِ
 قفيةٍ مرتابِ
 الجباب تدرعتُ صُعلُ الرُّؤوسِ طويلاً
 أبدانها الأذنانِ
 سُخَّتِ المخالب والأنيابِ الخصورِ رَحِيْبَةِ
 والشوى الأقرابِ
 أسقى الإلهُ بلادهنَّ النَّشَاصِ بعيدةٍ
 سحائباً الأطنابِ
 ترمي بعبسٍ كالليوثِ الجلودُ مدارعِ
 تسرَبَلتُ السنجابِ

الرَّقَابِ لَطِيفَةَ الجِبَاهِ رَهِيفَةَ
أَعْجَازُهَا الأَنْيَابِ
مُتَبَهِّنَسَاتٍ لِلطَّرَادِ كَأَنَّهَا بِيْشَةَ أُدْمَجْتَ
بِخَضَابِ
وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ تَوْلِيدِ ابْنِ أَبِي كَرِيمَةَ،

معارف في السنور

والسُّنُورُ ثاقِبُ البصرِ بالليل، وكذلك الفأرة سوداءُ العينين، وهي في ذلك ثاقبة البصر.
والسُّنُورُ ضعيفُ الهامة، وهامته من مَقَاتِلِهِ، ولا يستطيعُ أنْ يذوقَ الطعامَ الحارَّ والحامضَ.

مقارنة بين السُّنُورِ والكلبِ

قال: وللسنور فضيلةٌ أخرى: أنه كثيرُ الأسماءِ القائمةِ بأنفسها، غير المشتقات، ولا أنها تجمع الصفاتِ والأعمالَ، بل هي أسماءٌ قائمةٌ، من ذلك: القطُّ، والهَرُّ، والصَّيُونُ، والسُّنُورُ.

وليس للكلب اسمٌ سِوَى الكلبِ، ولا للديك اسمٌ إلا الديك.

وليس للأسد اسمٌ إلا الأسد اللَّيْث، وأمَّا الضيغم،
والخنابس، والرِّئبالُ، وغيرها - فليست بمقطوعة،
والباقي ليست بأسماءٍ مقطوعةٍ؛ ولا تصلح في كل مكان.
وكذلك الخمر، فإذا قالوا: قهوة، ومدامَةٌ، وسُلاف،
وَحَنْدَرِيْسٌ وأشباه ذلك، فإنما تلك أسماءٌ مشتركة،
وكذلك السيف، وليس هذه الأسماءُ عند العامة كذلك.
قال: وعلى السُّنور من المحبة، ولا سيما من مَحَبَّةِ
النِّساء، ومعه من الإلف والأنس والدُّنُو، والمضاجعةِ
والنوم في اللَّحاف الواحد - ما ليس مع الكلب، ولا مع
الحمام، ولا مع الدَّجاج، ولا مع شيء مما يعايش الناس.
هذا، ومنها الوحشي والأهليُّ فلولا قُوَّةُ حَبِّهِ للناس لما
كان في هذا المعنى أكثر من الكلابِ، والكلاب كلُّها أهلية.
قالوا: وليس بعجيبٍ إن يكون الكلبُ طيِّبَ الفم؛ لكثرةِ
ريقه، ولُبُعد قرابته ومشاكَلته للأسد، وإنما العجبُ في
طيِّبِ فم السُّنور، وكأنه في الشُّبه من أشبال الأسد.

ومن يُقَبَّلُ أفواه السنانير وأجراءها من الخرائد وربّات
الجبال، والمخدّرات، والمطهّمات، والقينات أكثر من أن
يُحصى لهنّ عدد، وكلهنّ يخبرن عن أفواهها بالطيب
والسلامة مما عليه أفواه السباع، وأفواه ذوات الجرّة من
الأنعام.

وما رأينا وضيفة قطُّ ولا رفيعة، قَبَلت فَمَ كلبٍ أو ديكٍ، وما
كان ذلك من حارس قطُّ، ولا من كلابٍ، ولا من مكّلبٍ، ولا
من مُهَارِشٍ.

والسنور يُخَصَّب، وتُصاعُ له الشنوف والأفرطة، وتُتحف
ويدلّل.

ومن رأى السنور كيف يَخْتِلُ العُصفورَ، مع حَذَرِ العُصفورِ،
وسُرعة طيرانه - على أن جهته في الصيدِ جهة الفهد
والأسد، ومن رآه كيف يرتفعُ بوَثْبته إلى الجرادَة في حال
طيرانها - علم أنه أسرَعُ من الجرادَة.

وله إهابٌ فضفاضٌ، وقميصٌ من جلده واسعٌ، يموج فيه

بدُّهُ، وهو مما يَضِيع لسَعَةِ إِبْطِيهِ، ولو شاءَ إنسان أن يَعْقِدَ
صُلْبَهُ، وَيُنْثِيَ أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ، كما يُنْثَى المِخْرَاقُ، وكما
يُنْثَى قَضِيبُ الخَيْرَانِ لَفَعَلٍ.

ويوصفُ الفَرَسُ بأنه رَهْلُ اللَّبَانِ، رَحِيبُ الإِهَابِ، واسع
الآبَاطِ، وعيب الحمار للكَرَّازَةِ التي في يديه، وفي منكبَيْهِ،
وانضمامهما إلى إِبْطِيهِ، وَضِيقُ جَلْدِهِ، وإنما يَعْدُو بِعُنُقِهِ.

التجارة في السنابير

قالوا: وللسنور تجارٌ وباعة، ودلالون، وناسٌ يعرفون
بذلك، ولها رَاضَةٌ.

وقال السَّنْدِيُّ بن شاهك: ما أعياني أحدٌ من أهل
الأسواق: من التجار، ومن الباعة والصّاع، كما أعياني
أصحابُ السنابير، يأخذون السنور الذي يأكل الفِراخ
والحمام، ويواثب أقفاص الفواخت والوراشين والدّباسي
والشّفانين، يودخلونه في دَنٍّ، ويشدُّون رأسه، ثم

يدُخِرْجونه على الأرض حتى يَشْغَلَهُ الدَّوَارُ، ثم يدخِـلونه
في قفص فيه الفِراخُ والحمام، فإذا رآه المشتري رأى
شيئاً عجيباً، وظنَّ أنه قد ظفر بحاجته، فإذا مضى به إلى
البيت مَضَى بشيطانٍ، فيجْمع عليه بليّتين إحداهما أَكْلُ
طيوره وطيور الجيران، والثانية أنه إذا صَرِيَ عليها لم
يطلبُ سواها.

ومررتُ يوماً وأنا أريدُ منزلَ المكيِّ بالأساورة وإذا امرأة
قد تعلّقت برجل وهي تقول: بيني وبينك صاحبُ المسلحة
فإنك دلّلتني على سنّورٍ، وزعمت أنه لا يقربُ الفراخ، ولا
يكشفُ القدور، ولا يدنو من الحيوان، وزعمت أنك أبصر
الناس بسنور، فأعطيتك على بصرك و دلالتك دانقاً؛ فلما
مضيتُ به إلى البيت مضيتُ بشيطان قد والله أهلكَ
الجيرانَ بعد أن فرغَ منا، ونحنُ منذ خمسة أيامٍ نحتال في
أخذه، وها هو ذا قد جئتكَ به فرُدَّ عَلَيَّ دانقي، وخذ ثمنه
من الذي باعني، ولا والله إن تُبصرُ من السنابير قليلاً ولا

كثيراً.

قال الدلال: انظروا بأيّ شيء تستقيلني؟ ولا والله إنّ في
ناحيتنا فتى هو أبصرُ بسنور منّي، وذلك من من سيدي
ومولاي.

فقلتُ للدّلال: ولا والله إنّ في هذه الناحية فتى هو أشكر
لله منك.

أكل السنابير

وناس يأكلون السنابير ويستطيبونها، وليس يأكل الكلب
أحدٌ إلا في الفُرط.
والعامّة تزعم أن من أكل السنّور الأسود لم يعمل فيه
السحر، والكلب لا يؤكل.
أكل الديك والديك خبيث اللحم عَضله، إلا أن يُخصى، وتلك
حيلة لأهل حمص وليست عندنا فيه حيلة، وقال جَحشويه:

صبري عن مثلِ
جُمجمة الهَرّ تشي
بمُسبَطٍ متين
يَخفى عليك حين أنها عُدَّةٌ لِداءِ
دفينِ

سكينة التابوت قالوا: وزعم بعض أهل الكتاب، وبعض أصحاب التفسير، أن السَّكِينَةَ التي كانت في تابوت موسى كانت رأس هِرٍّ.

استطرد لغوي قالوا: وقلتم في الاشتقاق من اسم الكلب: كليب، وكلاب، ومَكْلَبَة، ومُكَالِب، وأصاب القوم كُلبَة الزمان، مثل هُلبَة، وهي الشدَّة. والكلابُ واحِدُها كَلْب، وتجمع على كلاب وأكلب وكليب، كما يجمع البُختُ بَخيتاً وأبُختاً. والكلَّابُ بتشغيل اللام: صاحب الكلاب، والمُكَلَّبُ، بتشغيل اللام وضمِّ الميم: الذي يعلم الكِلَابَ الصَّيْدَ، وقال طُفيلُ العَنَوِيِّ:

تُبَارِي مَرَاحِيهَا الرَّجَاجَ كَأَنَّهَا
صَبْرَاءُ أَحَسَّتْ تَبَاءً مِنْ
مَكْلَبِ

وقال الآخر:

خُوصٌ تَرَاخُ إِلَى الصُّدَاحِ إِذَا
الصُّرَاءِ تَرَاخُ لِلْكَلَّابِ

والكَلْبُ: داء يقع في الإبل، فيقال كليت الإبلُ تَكَلَّبُ كَلْباً، وأكلب القوم: إذا وقع في إبلهم الكَلْبُ، ويقال كَلِب الكلبُ واستكلب: إذا صرِيَ وتعوَّدَ أكلَ الناس، ويقال للرجل إذا عصَّه

الكلبُ الكلبُ: قد كُلبَ الرَّجُلُ.

ويقال: إن الرَّجَلَ الكلبَ يَعَضُّ إنساناً آخر، فيأتون رجلاً شريفاً، فيقطُرُ لهم من دَمِ إصبَعه، فيسْفُون ذلك الكلبَ فيبرأ، وقال الكُميت:

أحلامكم لسِقامِ الجهلِ دِماؤكم يُشقى بها
شافيةٌ الكلبُ

قالوا: فقد يقولون للسنور هِرٌّ، وللأنثى هِرَّة، ويقال من ذلك هَرَّ الكلبُ يهَرُّ هَريراً، وتسمَّى المرأةُ بهرَّة، ويكنى الرَّجُلُ أبا هِرٍّ، وأبا هُريرة، وقال الأعشى:

هُريرةٌ إنَّ الركبَ تُطيقُ وداعاً أيها
مُرتجِلُ الرجلُ

وقال امرؤ القيس:

لهرٌّ والرَّبابِ وفَرَّتَهوَلَميس قبلَ تفرُّقِ الأيامِ

وقال ابن أحمَر:

امراً القيسِ على عَهْدِهِ إِرْثٍ ما كان بناه حُجْرُ
عليه الملكِ أطنابها رَتَوَاتُهُ وطِرْفُ طَمِرٍ
بهنْدٍ فوقَ أنماطِها وفَرَّتَتِي تَسْعَى عليه وهِرٌّ
أطباءُ الهرةِ وحملها قال: وللهرةِ ثمانية أطباء: أربعةٌ

تقابلُ أربعة، أوْلَهِنَّ بين الإبطِ والصَّدْرِ، وآخِرُهُنَّ عد
الرُّفْعِ، وتحملُ خمسين يوماً، وتضع جِراها عُمياً، وليس
بين تفقيحها وتفقيح جِراءِ الكلابِ إلا اليَسير.

إِثارُ الهرةِ والديكِ والهَرَّةُ من الخلقِ الذي يُوْثِرُ على
نفسه، ولها فضيلةٌ في ذلك على الدِّيكِ الذي له الفضيلةُ
في ذلك على جميعِ الحيوانِ، إلا أن الديكِ لا يفعل ذلك

بالدجاج إلا مادام شاباً، ولا يفعل ذلك بأولاده، ولا يعرفهم؛ وإنما يفعل ذلك بالدجاجِ عَلَى غير الزَّوْجِ، وَعَلَى غير القصد إلى واحدة يقصد إليها بالهوى. والهَرَّةُ يُلقى إليها الشيء الطيبُ وهي جائعة، فتدعو أولادها، وقد استغنين عن اللبن، وأَطَقْنَ الأكل والتقمُّم والتكسُّب، نعم حتى ربما فعلت ذلك بهنَّ وهنَّ في العينِ شبيهاتُ بها في العِظْم؛ فلا تزالُ ممسكة عن تلك الشحمة على جُوعها، ومع شره السنابير، حتى يُقْبِلَ ولدُها فيأكله.

ورجلٌ من أصحابنا ائتمنوه على مال، فشدَّ عليه فأخذه، فلما لامه بعضُ نصحاءه قال: يطرحون اللحم قُدَّام السنورِ فإذا أكله ضربوه.

فصَرَبَ شَرَّة السنور مثلاً لنفسه.

والهَرَّةُ ربما رموا إليها بقطعة اللحم، فتقصدُ نحوها حتى تقف عليها، فإذا أقبلَ ولدها تجافتُ عنها، وربما قبضتُ

عليها بأسنانها فرمت بها إليه بعد شمِّ الرائحة، ودَّوق
الطعم.

نقل الهرة أولادها والهرة تنقل أولادها في المواضع، من
الخوف عليها، ولا سبيل لها في حملها إلا بفيها، وهي
تعرف دِقَّةَ أطْرَافِ أنيابها، ودَّرَبِ أسنانها، فلها بتلك
الأنياب الجِدَادُ ضربٌ من القبض عليها، والعَضُّ لها،
بمقدار تبلغُ به الحاجة، ولا تؤثِّرُ فيها ولا تؤذيها.
مخالب الهرة والأسد فأما كُفُّها والمخالبُ المعقَّفة
الجِدَادُ التي فيها، فإنها مصونة في أكمامها، فمتى وقعت
كُفُّها على وجه الأرض صارت في صَوْنٍ، ومتى أرادت
استعمالها نَشَرَتْها وافرة، غير مكلومةٍ ولا مثلومة، كما
وصف أبو زُبَيْدٍ كَفَّ الأسد فقال:

بُحْجِنُ كَالْمَحَاجِنِ فِي قِصَّةِ الْأَرْضِ الدَّخِيسِ
قُنُوبِ

أنياب الأفاعي كذلك مخالبها ومخالب الأسد، وأنياب الأفاعي، وقد قال الرَّاجِزُ، وهو جاهليٌّ:

دنا من رأس تَصْنُفَظَّاهُ بين الشُّرَاكِ
وَالْقَدَمِ

بِمِدْرَبٍ أَخْرَجَهُ مِنْ جَوْفِ

زعم بعض المفسرين في السناير والخنازير

وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل؛ لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تَأَذَّوْا بكثرة الفأر وشكوا إلى نوح ذلك سألَ رَبَّهُ الْفَرَجَ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطسَ، فلما عطس خرج من منخره زوج سنانير: ذكر وأنثى، خرج الذَّكَرُ من المنخر الأيمن، والأنثى من المنخر الأيسر، فكفياهم مَوُّونَةُ الْجُرْدَانِ، ولما تَأَذَّوْا بري نَجَّوهُمَا شكوا ذلك إلى نوح، وشكا ذلك إلى رَبِّهِ، فأمره أن يأمر الفيل فليسلحَ، فَسَلَحَ زَوْجَ خَنَازِيرٍ فَكفياهم مَوُّونَةُ رَائِحَةِ النَّجْوِ.

وهذا الحديثُ نافعٌ عند العوَّامِّ، وعند بعض القُصَّاصِ.

إنكار تخلُّق الحيوان من غير الحيوان فقد أنكر ناسٌ أن

يكون الفأر تخلَّق في أرحام إناثها من أصلاب ذكورتها
ومن أرحام بعض الأرضين كطينة القاطول؛ فإن أهلها
زعموا أنهم ربما رأوا الفأرة لم يتمَّ خُلُقها بعدُ، وإن عينيها
لتبصَّان، ثم لا يريمون حتى يتمَّ خَلقها وتشتدَّ حركتها.
وقالوا: لا يجوز لشيء خُلِقَ من الحيوان أن يُخلق من غير
الحيوان، ولا يجوز أن يكونَ شيءٌ له في العالم أصلٌ أن
يؤلَّف الناسُ أشياءً تستحيل إلى مثل هذا الأصل، فأنكروا
من هذا الوجه تحويل الشبهِ ذهباً، والزَّبيق فضة.
وقد علمنا أن للنُّوشادُر في العالم أصلاً موجوداً، وقد
يصعَّدون الشَّعر ويدبُّرونه حتى يستحيل كحجر النوشادُر،
ولا يغادر منه شيئاً في عَمَلٍ ولا بَدَن.
وقد يدبُّرون الرَّماد والقلِّي فيستحيل حجارة سوداً إذا
عُمل منها أرحاءٌ كان لها في الرِّبع فضيلة.
قالوا: وللمردَّارَسَنج في العالم أصلٌ قائم، والرصاص
يُدبَّر فيستحيل مُرداسنجا، وللرصاص في العالم أصل

قائم، فيدبّرون المرءاسنج فيستحيل رصاصاً.
وللتوتياء أصل قائم، فيدبرون أقليميا التُّحاس فتستحيل
توتياء.

وكذلك المينا، له أصل قائم، وقد عمّله الناس.
وكذلك الحجارة السُّود للطحين وغير ذلك.
فأما قولهم: لا يجوز أن يكون شيء من الحيوان يُخلق من
ذكر وأنثى - فيجىء من غير ذكر وأنثى - فقد قلنا في
جميع ذلك في صدر كتابنا هذا بما أمكننا.
معارف في الحيات وقال: الحيات كلها تعوم، إلا الأفاعي،
فإنها لايعوم منها إلا الجبليات.

قال: والحيّة إن رأت حيّة ميتة لم تأكلها، ولا تأكلُ الفأر ولا
الجرذانَ الميتة، ولا العصافير الميتة، مع حرص الحية
عليها، ولا تأكل إلا لحمَ الشيء الحيّ، إلا أن يُدخلَ الحوَّاءُ
في حلوقها اللحمَ إدخالاً، فأما من تلقاء نفسها فإن
وجدته، وهي جائعة لم تأكله.

فينبغي أن يكون صاحبُ المنطقِ إنما عَنَى بقوله: أخبثُ ما تكون ذواتُ السمومِ إذا أكلَ بعضها بعضاً لابتلاعِ دون كل شيءٍ، وهم لا يعرفون ذلك في الحياتِ إلا للأسود، فإنه ربما كان مع الأفاعي في جُونة، فيجوع فيبتلعها، وذلك إذا أخذها من قِبَلِ رؤوسها، وإن رام ذلك من جهة الرأس فعضته الأفعى قتلته.

وزعموا أن الحيةَ لا تَصَّاعِدُ في الحائطِ الأملس ولا في غير الأملس، وإنما يقول ذلك أصحابُ المخاريق والذين يستخرجون الحياتِ بزعمهم من السقوف، ويشمون أرايخَ أبدانها من أطرافِ القَصَبِ، إذا مَسَّحوها في ترابيع البيوت.

قالوا: وقد تصعد الحياتُ في الدَّرَجِ وأشباه الدَّرَجِ؛ لتطلبَ بيوتَ العصافير، والفأرِ، والخطاطيفِ، والزَّرَازيرِ، والخفافيشِ، وتتحامى في السُّفُوفِ.

في العقرب

وسنذكر تمامَ القول في العُقرَب؛ إذ كنا قد ذكرنا من
شأنها شيئاً في باب القول في الفأر. ولمَّا قيل ليحيى بن
خالد، النازل في مُرْبَعَة الأحنف - وزعموا أنهم لم يروا
رجلاً لم يختلف إلى البيمارستانات ولا رجلاً مسلماً ليس
بنصرانيٍّ ولا رجلاً لم ينصب نفسه للتكسب بالطب كان
أطبَّ منه - فلما قيل له: إن القينيِّ قال: أنا مثلُ العُقرَب
أضُرُّ ولا أنفع قال: ما أقلَّ علمه بالله عزَّ وجلَّ؛ لعمري
إنها لتنفع إذا سُقِّ بِطنها ثم سُدَّ على موضع اللِّسعة، فإنها
حينئذٍ تنفع منفعةً بينةً.

نفع العُقرَب

والعُقرَبُ تُجعل في جوف فَخَّارٍ مشدودِ الرَّأس مطيِّنِ
الجوانبِ، ثم يوضع الفخَّارُ في تَبُّورٍ، فإذا صارت العُقرَبُ
رماداً سُقي من ذلك الرَّمادِ مَنْ به الحصاة مقدارَ نصفِ
دانق.

وقال حُنين: وقد يُسقى منه الدانق وأكثر، فيفتتُ الحِصاةَ من غير أن يضرَّ بشيءٍ من الأعضاء والأخلاق، وخيرُ الدواء ما قَصَدَ إلى العَصُو السقيم، وسَلِمَتُ عليه الأعضاء الصحيحة.

وقال يحيى: وقد تَلَسَّعُ أصحابَ ضروبٍ من الحُمَميات العقاربُ فيُفِيضُونَ، وتَلَسَّعَ الأفاعيَ فتموت، ومنها ما يلسع بعضها بعضاً فيموت الملسوع، فهي من هذا الوجه تكفي الناسَ مؤونةً عظيمةً، وتُلَقَى العقربُ في الدَّهْن وتُتْرَكُ فيه، حتى يأخذ الدهن منها ويمتصُّ ويجتذبُ قواها كلها بعد الموت، فيكونُ ذلك الدهنُ يفرِّقُ الأورام الغلاط، وقد عَرَفَ ذلك حُنين.

بعض أعاجيب العقرب

ومن أعاجيبها أنها لا تسبُحُ، ولا تتحركُ إذا أُلقيت في الماء كيف كان الماءُ: ساكناً أو جارياً، والعقرب تطلبُ الإنسان

وتقصد نحوه، فإذا قصدَ نحوها فرَّثَ وهربت وتقصدُ أيضاً
نحو الإنسان، فإذا ضربته هربت، هربَ مَنْ قد أساء،
وتعلم أنها مطلوبة.

والزنابير تطالبُ من تعرَّض لها وتقصد لِعَينه، ولا تكادُ
تعرض للكافِّ عنها.

فصل ما بين المودَّة والمسالمة في الحيوان وبين
العقارب وبين الخنافس مودة، والمودَّة غيرُ المسالمة.
والمسالمة: أن يكون كل واحد من الجنسين لا يعرض
للآخر بخير ولا شر، بعد أن يكون كل واحد منهما مقرَّباً
لصاحبه.

والعداوة أن يعرض كل واحد منهما لصاحبه بالشرِّ والأذى
والقتل، ليس من جهةٍ أن أحدهما طعامٌ لصاحبه.
والأسدُ ليس يثبُّ على الإنسان والحمار والبقرة والشاة
من جهة العداوة، وإنما يثبُّ عليه من طريق طلبِ
المطعم، ولو مرَّ به وهو غيرُ جائعٍ لم يعرض له الأسد،

والنمر على غير ذلك، ولكن قد يقال: إن بين الببر والأسد
مُسالمة.

والمودة: كما يكون بين العقارب والخنافس، فإن بعضها
يتألف بعضاً، وليست تلك بمسالمة، وكما بين الحيات
والوزغ، فإنها تساقى السم وتراق، وكما بين ضروب من
العقارب وأسود صالح.

والأسود ربما جاع في جونة الخواء فأكل الأفعى وربما
عصته الأفعى فقتلته.

علاقة الرائحة بالطعم وريح العقارب إذا شويت مثل ریح
الجراد.

وما زلت أظن أن الطعم أبداً يتبع الرائحة، حتى حقق ذلك
عندي بعض من يأكلها مشوية ونية، أنه ليس بينها وبين
الجراد الأعرابي السمين فرق.

رؤية الخرق الذي في إبرة العقرب

وزعم لي بختيشوع بن جبريل، أنه عاين الخرق الذي في
إبرة العقرب، وإن كان صادقاً كما قال، فما في الأرض
أحدٌ بصراً منه، وإنه لبعيدٌ، وما هو بمستنكر.
من أعاجيب العقرب وفي العقارب أعجوبةٌ أخرى؛ لأنه
يقال: إنها مائة الطَّبَّاع، وإنها من ذوات الدَّزْوِ والإنسال
وكثرة الولد، كما يعتري ذلك السَّمَكِ والصَّبِّ والخنزيرة،
في كثرة الخناييص.

موت العقرب بعد الولادة

قال: ومع ذلك إن حَتَفَهَا في أولادها، وإن أولادها إذا بَلَعْنَ وحاَنَ وقتُ الولادة، أكلن جلدَ
بطنها من داخل، حتى إذا خَرَفَتْهُ خَرَجْنَ منه وماتت الأُمُّ.
وقد يطأ الإنسانُ على العقرب وهي ميتة، فتغترز إبرتها في رجله، فيلقى الجهدَ الجاهدَ؛ وربما
أمَرَصَتْ، وربما قتلت.

قال: وفي أشعار اللُّغز قيلَ في أكل أولاد العقرب بطنَ الأُمِّ، وأنَّ عَطَبَهَا في أولادها:

وحاملة لا يكْمُلُ الدَّهْرَ تموتُ ويبقى حملها حينَ
حملها
وليس هذا شيئاً.
تَعَطَبُ

خَبَّرَنِي من أثق بعقله، وأسكنُ إلى خبره، أنه أرى

العقرب عياناً وأولادها يخرجن من فيها، وذكر عدداً كثيراً،
وأنها صغارٌ بيضٌ على ظهورها نقطٌ سودٌ، وأنها تحمل
أولادها على ظهرها، وأنه عاين ذلك مرةً أخرى، فقلت: إن
كانت العقرب تلد من فيها فأخلق بها أن يكون تلاقحها من
حيث تلد أولادها.

العقارب القاتلة

والعقاربُ القاتلةُ تكون في موضعين: بِشَهْرَ زُورٍ، وقرى
الأهواز، إلا أن القواتلَ التي بالأهواز جرّارات، لم نذكر
عقاربَ نصيبين، لأن أصلها - فيما لا يشكُّون فيه - من
شَهْرَ زُورٍ حين حُوصِرَ أهلها ورُموا بالمجانيق، وبكيزان
محشوة من عقارب شَهْرَ زُورٍ، حتّى توالدت هناك،
فأعطى القومُ بأيديهم.

لغز في العقرب

ومن اللُّغز فيها في غير هذا الجنس:

بكرة مضبورة
مقمطرة
مسرة كبر أن تُنال فتَمرضا
بأشوسَ منها حين جاء لتقتل نفساً أو تصيب
فتُمرضا
دنا نادي أوابا بنعم
إذا نال الغريفة أو قَصَا
غيرها

استخراج العقارب بالجراد والكراث

قال: والعقارب تُسْتَخْرَجُ من بيوتها بالجراد: تُشَدُّ

الجرادة في طرف عود، ثم تُدْخَلُ الجُحْرَ، فإذا عاينتها
تعلقتُ بها، فإذا أُخرج العُودُ خرجت العقربُ وهي متعلقة
بالجرادة.

فأما إبراهيم بن هانيء فأخبرني أنه كان يُدْخِلُ في جُحْرِها
خُوطَ كَرَّاثٍ، فلا يبقى منها عقربٌ إلا تبعته.

السنة الحيات والأفاعي السنة الحيات كلها سودٌ، والسنة
الأفاعي حُمْرٌ، إلا أنها مشقوقة.

جَرَّارات الأهواز وسنذكر عقارب الشتاء وعُقيرب الجِرِّ،
وكلَّ شيء من هذا الباب، ولكننا نبدأ بذكر جَرَّارات

الأهواز.

ذكروا أَنَّ أَقْتَلَهَا عَقَارُبُ عَسْكَرِ مُكْرَمٍ، وَأَنَّهَا مَتَى صَرَبَتْ
رَجُلًا فَظَنَّ أَنَّ تِلْكَ الْعِضَّةَ عِضَّةُ نَمْلَةٍ، أَوْ وَخَزَةٌ شَوْكَةٌ،
فَنَالَ مِنَ اللَّحْمِ تَضَاعَفَ مَا بِهِ.

وربما باتت مع الرجل في إزاره فلم تضربه.
وهي لا تدبُّ على كل شيء له عَفْرٌ، ولا تدبُّ على
المُسْوَحِ، وما أكثر ما تأوي في أصول الآجُرِّ الذي قد أُخْرِجَ
من الأتاتين ونصَّد في الأنابير.

وكان أهل العسكر يرون أن من أصلح ما يُعالج به موضع
اللسعة أن يُحَجَّم، وكان الحَجَّام لا يرضى إلا بدنانير
ودنانير، لأن ثناياه ربما تَصَلَّتْ، وجلد وجهه ربما تَبَطَّطَ من
السِّمِّ الذي يرتفع إلى فيه، بمصَّته وجذْبته من أذنان
المحاجم، حتى عمدوا بعد ذلك إلى شيء من قُطْنٍ،
فحشَّوْا به تلك الأنبوبة، فإذا جذب بمصَّته فارتفع إليه من
بخار الدَّمِ أجزاءً من ذلك السم، تعلقت بالقطن، ولم تنفُذْ

إلى فيه، والقطن ليس مما يدفع قوّة المص، ثم وقعوا
بعد ذلك على حشيشةٍ فوجدوا فيها الشفاء.

من أعاجيب العقرب ومن أعاجيب ما في العقرب أنا
وجدنا عقارب القاطول يموتُ بعضُها عن لسع بعض، ثم لا
يموتُ عن لسعها شيء غير العقارب.

ونجدُ العقربَ تلسعُ إنساناً فيموت الإنسان، وتسلع آخر
فتموت هي، فدلَّ ذلك على أنها كما تعطي تأخذ، وأن
للناس أيضاً سُموماً عجيبة، ولذلك صار بعضهم إذا عضَّ
قتل.

ومن أعاجيبها أنها تضرب الطست أو القمقم فتخرقه،
وربما ضربته فتثبُّت فيه إبرتها ثم تنصل حتى تبين منها.
العنبر وأثره في الطيور والبال والعنبر يقذفه البحر إلى
عبريه، فلا يأكل منه شيء إلا مات، ولا ينقره طائر بمنقار
إلا نصل فيه منقاره، فإذا وضع رجله نصلت أظفاره، فإن
كان قد أكل منه قتله ما أكل، وإن لم يكن أكل فإنه ميت

لا محالة، لأنه إذا بقي بغير منقار، ولم يكن للطائر شيء
يأكل به مات.

والبخريون والعطائرون يُخبروننا أنهم ربما وجدوا فيه
المنقار والظفر، وإنَّ البال ليأكلُ منه اليسيرَ فيموت.
والبالُ: سمكة ربما كان طولها أكثر من خمسين ذراعاً.

أعاجيب لسع العقرب

ومن أعاجيب العقارب أنها تلسع الأفعى فتموتُ الأفعى
ولا تموت هي، وتلسع بعض الناس، فتموتُ هي، ولا ينال
الملسوع منها من المكروه قليل ولا كثير، ويزعم العوامُّ
أن ذلك إنما يكونُ لمن لسعتُ أمّه عقربٌ وهو حَمَلٌ في
بطنها.

وقد لسعت عقربٌ رجلاً مفلوجاً، فذهبَ عنه الفالجُ،
وقصةُ هذا المفلوج معروفة، وقد عرفها صليبا وغيره من
الأطباء.

ومن العقارب طياراٌ وجراراٌ، ومعققات، وخصرٌ،
وحمزٌ.

اختلاف السموم، واختلاف علاجها وتختلف سمومُ
العقارب بأسباب: منها اختلاف أجناسها، كالجرّارة
وغيرها، ومنها اختلافُ التُّرب كقَرَق ما بين جرّاراتِ
عقارب شهرزور وعسكر مُكْرَم.

وتختلف مَصْرَّة سمومها على قدر طباع الملسوع،
ويختلف قدر سمومها على قَدْر مواضع اللسعة، وعلى
قدر اختلاف ما بين النهار والليل وعلى قدر ما صادفت
عليه الملسوع من غذائه، ومن تفتُّح منافسه، وعلى قدر
ما تُصادف عليه العقرب من الحَبَلِ وغير الحَبَلِ وعلى قدر
لَسَعَتِها في أوّل الليل عند خروجها من جُحرها بعد أقامت
فيه شتوتها، وأشدُّ من ذلك أن تلسع أوّل ما تخرج من
جُحرها بعد أن أقامت فيه يومها.

قال ماسرّجويه: فلذلك اختلفت وجوه العلاج، فصار

صَرَبُ من العلاج يفيق عنه إنسانٌ ولا يُصلحُ أمر الآخر.
لسعة الزنبور وخبرني ثمامة عن أمير المؤمنين المأمون
أنه قال: قال لي بختيشوع ابن جبريل وسلّمويه، وابن
ماسويه: إن الذبابَ إذا دُلكَ به موضعُ لسعةِ الزنبور سكنَ
فلسعني زنبور فحككتُ على موضعه أكثر من عشرين
ذبابة فما سكنَ إلا في قدر الزمان الذي كان يسكن فيه
من غير علاج، فلم يبق في يدي منهم إلا أن يقولوا: كان
هذا الزنبور حنقًا قاضيًا، ولولا هذا العلاج لقتلك.
حُجُّ الأَطِيبَاءِ وكذلك هم إذا سَقَوْا دواءً فضرَّ، أو قطعوا
عِرْقًا فضرَّ، قالوا: أنت مع هذا العلاج الصَّوابِ تجدُ ما تجد
فلولا ذلك العلاج كنت الساعة في نار جهنم.
وقيل لي - وقرأت في كتاب الحيوان - إنَّ رِيحَ السَّدَابِ
يشتدُّ على الحيات، فألقيتُ على وجوه الأفاعي جُرَزَ
السَّدَابِ فما كان عندها إلا كسائر البَقُلِ.
فلو قلت لهم في هذا شيئًا قالوا: الحيات غير الأفاعي،

وهذا باطلٌ، الأفاعي نوع من الحيات، وكلهم قد عمّ ولم يخص.

ما يَدَّخِر من الحيوان وجميع الحشرات والأحناش، وجميع العقاربِ وهذه الدَّبَابَات التي تعضُّ وتلسع، التي تكْمُن في الشتاء لا تأكلُ شيئاً في تلك الأشهر ولا تشرب، وكذا كل شيء من الهمَج والحشرات مما لا يتحرَّك في الشتاء إلا النملَ والدَّرَّ والنحل، فإنها قد ادخرت ما يكفيها، وليست غيرها مما تثبتُ حياته مع تركِ الطعام.

حرص العقارب والحيات على أكل الجراد

وللعقرب ثمانى أرجل وهي حريصة على أكل الجراد، وكذلك الحيات، وما أكثر ما تلدغ وتنهش صاحب الجراد. أثر المُرَضِع في الرضيع ومن عجيب سمِّ الأفاعي ما خبرني به بعضُ من يخبرُ شأن الأفاعي قال: كنت بالبادية ورأيت ناقة ترتعُ، وفصيلها يرتضعُ من أخلافها، إذ نهشت

الناقة على مشافرها أفعى، فبقيت واقفة سادرة،
والفصيل يرتضع، فبينا هو يرتضع إذ خر ميتاً.
فكان موته قبل موت أمه من العجب، وكان مرور السم
في تلك الساعة القصيرة أعجب، وكان ما صار من فضول
سمها في لبن الصرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجباً
آخر.

والمرأة المرضع تشربُ النبيذَ فيسكر عن لبنها الرضيع
وتشربُ دواء المشي فيعتري الرضيع الخلفة فلذلك يختار
الحكماء لأولادهم الظئر البريئة من الأدوية: في عقلها،
وفي بدنها.

وتوهموا أن اللبن إنما جع في الفصيل لقراة اللبن والدّم،
فصار ذلك السمُّ أسرع إليه منه إلى أمه، ولعل ضعف
الفصيل قد أعان أيضاً على ذلك.

قصتان في من لسعته العقرب

قال أبو عُبيدة: لسعت أعرابياً عقرباً بالبصرة، فخيفَ عليه فاشتدَّ جرُّهُ، فقالَ بعضُ الناس: ليس شيءٌ خيراً له من أن تُغسلَ له خصيةُ زنجي عَرِق - وكانت ليلةَ غَمَقَة - فلما سقوه قطباً، ف قيل له: طعم ماذا تجد؟ قال: طعمُ قَرْبَةٍ جديدة.

وخبرنى محمد وعليُّ ابنا بشير، أن ظئراً لسليمان بن رِيَاش لسعتها عقربٌ فملأت الدنيا صُراخاً، فقال سليمان: اطلبوا لها هذه العقرب، فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان، فقالت العجوز: قد برئت، وقد سكنَ وجعي، ولا حاجة لي إلى هذا العلاج، قال: فأتوه بعقرب لا والله إن يُدرى: أهى تلك أم غيرها؟ فأمر بها فأمسكت فقالت: أنشدك بالله واللبن فأبى وأرسلها عليها، فلسعتها فُعْشِيَّ عليها ومرَّضتُ زماناً وتساقط شعر رأسها، ف قيل لسليمان في ذلك فقال: يا مجانين لا

والله إن رددَّ عليَّ رُوحها إلا اللسعةُ الثانية، ولولا هِيَ لقد
كانت ماتت.

في القملِ والصُّوَابِ

وسنقول في القملِ والصُّوَابِ ما وجدنا تمكِينًا مِنَ القولِ،
إن شاء الله تعالى.

ذكروا عن إياسِ بن معاوية، أنه زعم أن الصُّبَّانِ ذكورةُ
القملِ والقملِ إناثها، وأن القملَ من الشكلِ الذي تكون
إناثه أعظمَ من ذكورته.

وذكروا عنه أنه قال: وكذلك الزَّرَّارِقَةُ والبُرَّازَةُ، فجعل
البُرَّازَةَ في الإناث.

وليس فيما قال شيء من الصوابِ التَّسَدِيدِ، وقد خبَّرناكم
عن حكايته في الشُّبُّوطِ، حين جعله كالْبِغْلِ، وجعلَه
مخلوقاً من بينِ البُئِيِّ والزَّجْرِ.

والقمل يعتري مِنَ العَرَقِ والوسَخِ، إذا علاهما ثوبٌ، أو ريشٌ، أو شعر، حتى يكون لذلك المكانِ عَفَنٌ وُحْمومٌ.

أثر لون الشعر في لون القملة

والقملة تكون في رأس الأَسْوَدِ سوداء، ورأس الأَبْيَضِ الشعر بيضاء، وتكون خفيفة اللون، وكالحَبَلِ الأَبْرَقِ إذا كانت في رأس الأَشْمَطِ، وإذا كانت في رأس الخاضب بالحمرة كانت حمراء، وإن كان الخاضب ناصلاً الخضاب كان في ولونها سُكْلَةً، إلا أن يستولي على الشعر التُّصُول فتعود بيضاء.

وهذا شيءٌ يعتري القملَ، كما تعتري الخضرَةُ دَوَدَ البَقْلِ، وجرادَه وذبابه، وكلُّ شيءٍ يعيش فيه، أثر البيئَة في الحيوان وليس ذلك بأعجب من حَرَّةِ بن سُلَيْمٍ، فإن من طباع تلك الحرّة أن تُسَوِّدَ كل شيءٍ يكونُ فيها: من إنسان، أو فَرَسٍ، أو حِمَارٍ، أو شاةٍ، أو بعيرٍ، أو طائرٍ، أو

حيّة.

ولم نسمع ببلدة أقوى في هذا المعنى من بلاد الترك،
فإنها تصوّر إبلهم خيلهم، وجميع ما يعيش فيها، على
صورة التُّرك.

تولد القمل

والقمل يعرضُ لثياب كلِّ الناس إذا عرض لها الوسخُ
والعرق، والخموم، إلا ثيابَ المجدِّمين فإنهم لا يَقمَلون.
وإذا قَمِلَ إنسانٌ وأفرط عليه ذلك، زأبق رأسه إن كنَّ في
رأسه أو جسده، وإن كنَّ في ثيابه، فمَوَّتَنَ.
وقال أبو قطيفة لأصحابه: أتدرون ما يذُرُّ القمل قالوا: لا،
قال: ذاك والله من قلة عنايةكم بما يصلحُ أبدانكم يذُرُّ
القملَ الفُساء.

فأما ثمامة فحدثني عن يحيى بن خالد البرمكي، أن
شيئين يُورثان القمل: أحدهما الإكثار من الثَّين اليابس،

والآخر بخار اللُّبَان إذا أُلقِيَ على المِجْمَرَة .
وربما كان الإنسان قَمِيل الطَّبَاع ، وإن تَنظَّف وتَعَطَّر وَبَدَّل
الثِيَاب ، كما عَرَضَ لعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن
العَوَّام ، اسْتَأْذَنَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في
لباس الحرير فأذن لهما فيه ؛ ولولا أنهم كانا في حَدِّ
ضرورة لَمَّا أذِنَ لهما فيه ، مع ما قد جاء في ذلك من
التشديد .

فلما كان في خلافة عمر ، رأى عمر على بعض بني
المغيرة من أخواله ، قميصَ حريرٍ ، فَعَلَّاه بِالذُّرَّةِ ، فقال
المغيرِيُّ : أو ليس عبد الرحمن بنُ عوفٍ يلبسُ الحريرَ ؟
قال : وأنت مثل عبد الرحمن ؛ لا أمَّ لك .
الاحتيال للبراغيث واحتاج أصحابنا إلى التسلُّم من عضِّ
البراغيث ، أيامَ كُنَّا بدمشق ، ودخلنا أنطاكيَّة ، فاحتالوا
لبراغيثها بِالْأَسِرَّةِ فلم ينتفعوا بذلك ؛ لأن براغيثهم تمشي .
وبراغيثهم نوعان : الأَجَلُّ البَقِّ ، إنما سَمَّوا ذلك الجنس

على شبيهه بما حكى لي ثمامة عن يحيى بن خالد
البرمكي، فإن يحيى زعم أن البراغيث من الخلق الذي
يعرض له الطيران فيستحيل بقاء، كما يعرض الطيران
للنمل، وكما يعرض الطيران للدعاميص؛ فإن الدعاميص
إذا انسلخت صارت قَراشاً. فكان أصحابنا قد لَقُوا من تلك
البراغيث جَهْدًا، وكانت لها بليّة أخرى: وذلك أن الذي
تُسهره البراغيث لا يستريح إلا أن يقتلها بالعزك والقتل،
وإلى أن يقبض عليها فيرمي بها إلى الأرض من فوق
سريره فيرى أنهنَّ إذا صِرْنَ عشرينَ كان أهون عليه من
أنْ يَكُنَّ إحدى وعشرين، فكان الرجلُ إذا رام ذلك من
واحدة منها نثتْ يده وكانوا مُلوكاً، ومثل هذا شديدٌ على
مثلهم، فما زالوا في جهد منها حتى لِبِسُوا قُمصَ الحرير
الصَّينيِّ، وجعلوها طويلة الأردان والأبدان فناموا
مستريحين.

خروج القمل من جسم الإنسان

وخبّرني كم شئت من أطباء الناس وأصحاب التجارب،
منهم من يقشعر من الكذب، ويتقزز منه أنهم رأوا القمل
عياناً وهو يخرج من جلد الإنسان، فإذا كان الإنسان قميلاً
كان قمله مستطيلاً، في شبيهه بخلقة الديدان الصغار
البيض.

ويذكر أن مثل ذلك قد كان عرضاً لأيوّب النبي، صلى الله
عليه وسلم، حين كان امْتُحِنَ بتلك الأوجاع حتى سُمِّيَ:
المبتلى.

وخبّرني شيخٌ من بني ليث، أنه اعتراه جَرَبٌ، وأنه تطلّى
بالمَرْتَكِ والدُّهْنِ، ثم دخل الحمّام فرأى قملاً كثيراً، يخرج
من تلك الجُلب والقروح.

وخبّرني أبو موسى العباسيُّ صديقنا أنه كان له غلامٌ
بمصر، وكان الغلام ربما أخذه إبرة ففتح بها فتحةً في
بعض جسده، في الجلد، فلا يلبث أن يطلع من تحت الجلد
في القيح قملة.

قمل الحيوان

والقمل يُسرَعُ إلى الدَّجَاجِ والحمام، إذا لم يَغْتَسِلَ يَكُنْ نَظِيفَ البَيتِ، وهو يَعرِضُ للقرَدِ، ويتولَّدُ من وَسَخِ جلد الأَسِيرِ وما في رَأْسِهِ من الوَسَخِ، ولذلك كانوا يَضُجُّونَ ويقولون: أَكَلْنَا القِدُّ والقمل.

تليد الشعر وكانوا يلبِّدون شعورهم، وذلك العمل هو التليد، والحاجُّ الملبَّد هو هذا، وقال الشاعر:

رَبِّ رَبِّ الرَاقِصَاتِ بِالقَوْمِ بَينَ مِئى وَبَينَ
عَشيَّةٍ
رُحْفِ الرِّوَاكِ قَد انقَضتْ
يَحْمِلَنَّ كَلَّ مَلَبَّدِ مَأْجُورِ
مُنَاتِهِمْ

وقال عبد الله بن العجلان النهدي:

وما مارَ بالفَرِيقِ وَقَلَّ قَرَّ بِالْجَلْهَتَيْنِ من سَرَبِ
جماعة من القطا وغيره، واحدها سُرْبَةٌ وعبر بها هاهنا عن الحجاج.

شَعْرٍ كَالغَلِيلِ يُلبَدُ بالِ وما مارَ من دمِ سَرَبِ
والعِترِ عِترِ النَّسيكِ يَخفرُ لِحِلِّ الإِحرامِ والنُّصْبِ

وقال أمية بن أبي الصلت:

شاحينَ أَباطُهُمُ لم يَنزِعُوا يَسَلُوا لَهُم قَملاً
وصِئباتاً

ويروى: لم يقرَّبوا تَقَنًّا قال الله عزَّ وجلَّ: "ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ" وما أقل ما دَكَرُوا التَّفَثَ في الأشعار.

والتليد: أن يأخذ شيئاً من خِطْمِيٍّ وآسٍ وَسِدْرٍ، وشيئاً من صَمَغٍ فيجعله في أصول شعره وعلي رأسه، كي يتليد شعره ولا يَغرِقَ ويدخله الغبار، ويخَمُّ فيقَمَلُ.

وكانوا يكرهون تسريح الشعر وقتل القمل، فكان ذلك العمل يقلُّ معه القمل.

وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجْرَةَ: هل آذاك هَوَامٌّ رأسيك؟ تعبير هوازن

وأسدٌ بأكل القُرّة وقال ابنُ الكلبِيّ: عُيِّرَتْ هَوَازُنٌ وسُدُّ بأكل القُرّة، وهما بنو القملة، وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بيَمَى وضع كل رجل منه على رأسِهِ قُبْضَةً من دقيق، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط ذلك الشَّعْرُ مع ذلك الدقيق، ويجعلون الدقيق صدقةً، فكان ناسٌ من الصُّركاء وفيهم ناسٌ من قيس وأسد، يأخذون ذلك الشعر بدقيقه، فيرمُون بالشعر، وينتفعون بالدقيق.

وأنشد لمعاوية بن أبي معاوية الجرمي، في هجائهم:

تر جَرماً أنجَدْتُ الشعر في قصِّ الملبِّدِ
وأبوكم شارِعُ
قرّةٌ جاءت يقولُ أصسوي القمل إنني من
هَوَازِنَ ضارِعُ

شعر في هجو القملين

وقال بعض العُقيليّين، ومَرَّ بأبي العلاء العُقيليّ وهو يتفلّى، فقال:

مررت به مررت متصيِّد في شَرْقَةٍ مَقْرورِ
بقانص حولَ أبي العلاء
بين مقتول وبين عقيِر مصارِعُ
وكأنهنَّ لدي حُبُون وتوأمٌ سمسِمِ
قميصه مقشورِ
صَرَج الأنامل من دماء على أخرى العدوِّ
قتيلها

وقال الحسنُ بنُ هانئ، في أيوبَ، وقد ذهب عني

نسبُه، وطالما رأيتَه في المسجد:

يأُ عنه مصادُه فمصادُ أيوبِ ثيابه

تَكْفِيهِ فِيهَا نَظْرَهُ فَتَعَلُّ مِنْ عَلَقِ جِرَابِهِ
رُبَّ مُحْتَرَسٍ بَخْبِ الدَّرَزِ تَكْنُفُهُ صُؤَابُهُ
فَاشِي النِّكَايَةِ غَيْرَ مَعْلُومِ دَبِّ انْسِيَابُهُ
طَامِرِي وَاثِبٍ يَنْجِيهِ عَنْهُ وَثَابُهُ

الطامري: البرغوث، ثم قال:

أَهْوَى لَهُ بِمَذْلِقِ
الْعَرَبِينَ إِصْبَعُهُ
نِصَابُهُ
دُرُّكَ مِنْ أَخِي قَنْصِ أَصَابِعُهُ كِلَابُهُ

أحاديث وأخبار في القمل

وفي الحديث أن أكل التفاح، وسُورَ الفأر، وتَبَدَّ القملة
يورث النسيان.

وفي حديث آخر أن الذي ينبذ القملة لا يُكْفَى الهمُّ.
والعامة تزعم أن لبس النعال السود يورث الغمَّ
والنسيان.

وتناول أعرابيُّ قملة دَبَّتْ عَلَى عُنُقِهِ، ففدَعَهَا ثم قتلها بين
باطنِ إبهامه وسَبَّابته، ف قيل له: ما تصنع ويلك بحضرة
الأمير؟ فقال: بأبي أنت وأمي: وهل بقي منها إلا
خِرْشاؤها؟ يعني جلدتها وقشرتها وكل وعاءٍ فهو خِرْشاء.

المأمون وسعيد بن جابر وحدثني إبراهيم بن هانىء، قال:
حدثني سعيد بن جابر، قال: لما كادت الأجناد تحيط ببغداد
من جوانبها، قال لنا المخلوع: لو خرجنا هكذا قُطِرْتُبَلْ عَلَى
دوابنا، ثم رجعنا من فورنا، كان لنا في ذلك نُشْرَةٌ، قال:
فلما صرنا هناك هجمنا عَلَى موضعِ خَمَّارِينَ، فرأى أَناسًا
قد تطافروا من بعض تلك الحانات، فسأل عنهم، فإذا هم
أصحابُ قِمَارٍ وَتَزْدٍ وَنَبِيذٍ، فبعث في آثارهم فَرُدُّوا وَقَالَ
لنا: أَشْتَهِي أَن أسمع حديثَهم، وأرى مجلسهم وقِمَارَهم،
قال: فدخلنا إِلَى موضعِهم، فإذا تَحْتَ النَّرْدِ قِطْعَةٌ لِبَدٍ،
وإذا فصوص النَّرْدِ من طين، بعضُه مَسْوَدٌ وبعضُه مَتْرُوكٌ،
وإذا الكعبان من عُرْوَةٍ كوزٍ مَحْكَكَةٍ، وإذا بعضُهم يَتَكَيُّ
عَلَى دَنْ خَالٍ وَتَحْتَهُم بَوَارٍ قَدْ تَنَسَّرَتْ، قال: فبينما هو
يضحك منهم إذ رأيت قملة تدب عَلَى ذيله، فَتَغَفَّلْتُه
وَأَخَذْتُهَا فَرَأَنِي وَقَدْ تَنَاوَلْتُ شَيْئًا، فقال لي: أَي شَيْءٍ
تَنَاوَلْتَ؟ فَقُلْتُ: دُوَيْبَّةٌ دَبَّتْ عَلَى ذِيكَ مِنْ ثِيَابِ هَؤُلَاءِ،

قال: وأيُّ دابة هي؟ قلت: قملة، قال: أرنيها؛ فقد والله سمعت بها.

قال: فتعجبتُ يومئذ من المقادير كيف ترفع رجالاً في السماء، وتحطُّ آخرين في الثرى.

معارف وخبر في القمل

قال: والقردُ يتفلى، فإذا أصاب قملةً رمى بها إلى فيه. ونساء العوامِّ يعجبهنَّ صوتُ قضع القمل على الأظفار. ورأيت مرةً أنا وجعفر بن سعيد، بقالا في العتيقة وإذا امرأته جالسةٌ بين يديه، وزوجها يحدثها وهي تفلِّي جيبها وقد جمعت بين باطن إبهامها وسبابتها عدَّة قمل، فوضعتها على ظفر إبهامها الأيسر، ثم قلبت عليها ظفرها الأيمن فشدختها به، فسمعتُ لها فرقةً، فقلت لجعفر: فما منعها أن تصعها بين حجرين؟ قال: لها لذةٌ في هذه الفرقة، والمباشرة أبلغُ عندها في اللذة، فقلت: فما تكره مكانَ زوجها؟ قال: لولا أن زوجها يُعجبُ بذلك لنهاها. شعر لابن ميادة وقال ابن مَيَّادة:

وسقتني سقاة المجد ملرشيية أطرافها في
ظالم الكواكب
بأعلى ذي النخيل يسرون أعياراً شداد
نسية المناكب
يشلن بأستاهِ عليهنَّ شال بالأذنان سمر
دسمة العقارب

في البرغوث

والبرغوث أسودٌ أحدثُ تَرَاء، من الخلق الذي لا يمشي
صِرفاً.

وبما قال بعضهم: دبيبها من تحتي أشدُّ عَلَيَّ مِنْ عَضِّهَا.
وليس ذلك بدبيب، وكيف يمكنه الدَّيْبُ وهو مُلَزَقٌ عَلَيَّ
التُّطْع بجلد جنب النائم؟ ولكنَّ البرغوثَ خبيثٌ، فمتى أرادَ
الإنسان أن ينقلب من جنب إلى جنب، انقلب البرغوث
واستلقى عَلَيَّ ظهره، ورفع قوائمه فدغدغه بها، فيظنُّ
من لا علم عنده أنه إنما يمشي تحت جنبه. وقد ذكرنا من
شأنه في مواضع، ولو كان الباب يكبر حتى يكون لك
مجموعاً ولم تعرفه تكلفت لك جمعه.

شعر في البرغوث

وقال بعضُ الأعراب:

البراغيث عَناني باركَ اللهُ في ليل
وأُنصِني البراغيثِ
كأنهنَّ وجلدي إذ خَلَوْنَ سَوءٍ أغاروا في
الموارِثِ

وقال محبوب بن أبي العَشَّطِ النهشلي:

لرؤضة من رياضِ الحزنِ أوالقريةِ جرد غيرُ
طرفُ محروثِ
فيه إذا مجَّ التَّيشفي الصداعَ ويشفي كلَّ
ممغوثِ
وأحلى لعيني إن كَرَّخ بغدادَ ذي الرُّمانِ
مررتُ به والتُّوثِ
نصفان: نصفُ أفضى الرقادَ، ونصف
للهوم فما للبراغيثِ
حين تُساميني وأخلطِ تسبيحاً
أوائلها بتغوِثِ
مَداليجُ في الظلمِ ليس ملتمسٌ منها
مؤذيةٌ بمسبوثِ
وقد جعل التوتَ بالثاء، ووجه الكلام بالثاء، وتعجمها نقطتان من فوقها.

وقال آخر:

عَلِمَ البرُّغوِثُ حينَ ببغدادَ إني بالبلادِ غريبُ
يَعَصَّنِي
وقال آخر:

امراً تُؤذي البراغِثُ ويخرجتهُ من بيته لذلِيلُ
رُبُّ برغوِثٍ تركتُ بأبيض ماضي الشِّفَرَتَيْنِ
مجدلاً صَقِيلِ
وقال آخر:

لَقِيْتُ مِنَ البرغوِثِ جَهْمِيَّراً عَلَي البرغوِثِ يَقْضِي
أرى يُعْدي
يقلبني فوق الفِراشِ وتصبح أثارُ تَبِينُ في
جِلْدِي دَبِيئِهِ
وقال آخر:

عبادَ اللّهِ مَنْ ظهَرْتُ في الأَرْضِ شَدَّ

لقبيلةٍ
الدينُ ينهاها ولا هي ذو سلاحٍ من معدٍّ^٣
تنتهي
مغيرها
يضيئها

وقال يزيد بن نبيه الكلابي:

أصبحتُ سالمثُ البراغيمِضتُ لية مني وقلَّ
بعدها
رؤودها
ليت شعري هل أزورنَّ بها أو باشها
وسنيدها
أسمعن الدهرَ أصوطللع بالركبانِ صُعرًا
خُدودها
أريَن الدهرَ نارًا بنفسي وأهلي أرضها
بأرضها
ووفودها
تراطنُ حولي كما ذرَّ ببغداد أنباط القُري
شارقُ
وعبيدها

وقال آخر:

بارك الله في البرغوثِ، شديدًا كلذع الكيِّ
له
بالنار
والنجمُ قد غارتوعلَّسَ المدلجُ الساري
أوائله
بأسحار
لبرقةٍ من براقِ الحزنِ الطباءُ تُراعي غبَّ
أعمرها
أمطارٍ
أشفي لِدائي من دربٍ به ومُنزلٍ بين حجام وجزار
نبط

ينحرُ الشول لا يُخطي
قوائمه
بمدية كشرارِ النار بتار

وقال آخر:

هذا المصلوبَ لا من بعد صلبه
شك فيه
مبعوثُ

من حيثُ ليس يأكله
ولا يهتدي له البرغوثُ
سبأقهاها فذاك سيرُ
جنوى مطيةٍ إن يسفها
مكيثُ
فعليه الدبائرُ والخقريُّ مَنْ ذا فقال لصُّ
لما
خبيثُ

وقال أبو الرماح الأسدِيُّ:

تطاوَلَ بالفسطاط ليلي العَصَى ليلُ عَلَيَّ
يكن يطولُ
يؤرِّقني حُدْبُ صغارِ أذلةِ الذي يؤذِينَهُ لذلِيلِ
جُلْتُ بعض الليل منتهلِّقنَ بي أو جُلنَ حيثُ
أجولُ

ما قتلناهنَّ أضعفنَّ ولا يُنعى لهنَّ قتيلُ
كثرةُ
ليت شعري هل أبيتروُ ليس لبرغوثِ عَلَيَّ
سبيلُ

وقال أبو الشَّمقمق:

طولَ يومي وطولَ ليلتِيهِ لبراغيثَ قد عَشِنَ بيهِ
بُرغوثُهُ مُجَوَّعُهُ عقدتْ بَندها بفقْحَتِيهِ

وقال آخر:

لاهل الرِّي طيبُ أميرَ الرِّي يحي بن
بلادهم

تطاوَلَ في بغدادَ ليلي ومن بَعْدَادَ يلبثُ ليله غيرَ راقِدِ

إذا جنَّ الظلامُ براغيثها من بين مثنى
تقافزتُ وواحدِ

ديازجةُ سود الجلود كأنها بريد أرسلت في
مداودِ

وقال آخر:

أَرْقَنِي الْأَسْيُودُ الْأَسَدُ حَتَّى مَالَهُ مَحَكَ
حَكَ لَيْسَ فِيهَا شَكٌّ حَتَّى مِرْفَقِي مُنَقَّكَ

وقال آخر:

مَثَوَايَ عَدِمْتُ وَجْهَكَ أَنْقِذْنِي رَبُّ الْعُلَا مِنْ
مِصْرِكَ بَرِغُوثٍ أَرَاهُ مُهْلِكِي
تَحَكُّكَ الْأَجْرِبِ عِنْدَ الْمَبْرَكِ لَيْلِي دَائِمَ التَّحَكُّكَ

وقال آخر:

الْحَمْدُ لِلَّهِ بَرِغُوثٌ يُؤَزِّقُنِي أَحْيَيْكَ الْجَلْدِ لَا سَمْعٌ وَلَا

وقال آخر:

فِي طَوْلِهَا وَعَزْضِهَا يُطَبِّقُوا عَيْنًا لَهُمْ
بِعَمَضِهَا خَوْفَ الْبِرَاغِيثِ وَخَوْفَ
عَضِّهَا فِي جُلُودِهَا مِنْ مَضِّهَا
عَقَارِيًّا تَرَفُّضُ مِنْ دَامَ هَذَا هَرَبْتُ مِنْ
مُرْقَضِهَا أَرْضِهَا
رَبِّ فَاقْتُلْ بَعْضَهَا بِبَعْضِهَا

معارف في البرغوث

قال: والبرغوث في صورة الفيل، وزعموا أنها تبيض وتفرخ، وأنهم رأوا بيضها رؤية العين، والبراغيث تناكح وهي مستدبرة ومتعاظلة، وهي من الجنس الذي تطول

ساعة كَوْمِهَا.

استقذار القمل وليس الناسُ لشيءٍ مما يَعَصَّبُهُمْ ويؤذِيهِمْ،
من الجرجس، والبقُّ، والبراغيثُ والدَّبَّان - أشد استقذارًا
منهم للقمل، ومن العجب أن قرابته أمسُّ، فأما قملة
التَّسْر، وهي التي يقال لها بالفارسية: دَدَه، وهي تكون
بالجبل، فإنها إذا عصَّت قتلت.

القول في البعوض حدَّثني إبراهيم بن السندي قال: لما
كان أبي بالشام والياً، أحبَّ أن يسوي بين القحطانيِّ
والعدناني، وقال: لسنا نقدُّمكم إلا على الطاعة لله عزَّ
وجلَّ، وللخلفاء، وكلُّكم إخوة، وليس للنزاريِّ عندي
شيءٌ ليس لليمانِيِّ مثله.

قال: وكان يتغدَّى مع جملة من جِلَّة الفريقين، ويسوي
بينهم في الإذن والمجلس، وكان شيخ اليمانية يدخل عليه
معتماً، وقد جذب كورَّ عمامته حتى غطى بها حاجبه وكان
لا ينزعها في حر ولا برد، فأراد فتى من قيس - وقد كان

أبي يستخليه ويقربّه - أن يُسْقِطه من عين أبي ويوحِشّه
منه، فقال له ذات يوم ووجدَ المجلس خاليًا: إني أريدُ أن
أقول شيئاً ليس يخرجُه مني إلا الشكر والحُرِيّة، وإلا
المودة والنصيحة، ولولا ما أعرَفُ من تقَرُّزك وتنطُّسِك؛
وأنتَ متى انتبَهِت على ما أنا مُلَقِيه إليك لم آمَنُ أنْ
تستغشَّني، وإن لم تُظهِرْه لي، إن هذا اليمانيّ إنما يعتم
أبدًا، ويمدُّ طُرَّةَ العمامة حتى يغطِّي بها حاجِبِيه؛ لأن به
داءً لو عَلِمْتَ به لم تؤاكلهُ.

قال: فقال أبي: فرماني والله بمعنى كاد ينقضُ عليّ
جميع ما بيدي، وقلْتُ: والله لئن أكلت معه وبه الذي به إنَّ
هذا لهو البلاء، ولئن منعت الجميع مؤاكلتي لأوحِشَنهم
جميعاً بعد المباشطة والمبائة والملابسة والمؤاكلة، ولئن
خصَّصْتُهُ بالمنع أو أقعدتُه على غير مائدتي، ليغصَبَنَّ، ولئن
غضب ليغصَبَنَّ معه كل قحطاني بالشام، فبتُّ بليلة
طويلة، فلما كان الغدُّ جلست، ودخلوا للسلام، جرى

شيءٌ من ذكر السمومِ وغرائبِ أعمالها، فأقبل عليَّ ذلك
الشيخُ فقال: عندي من هذا بالمعاينةِ ما ليس عند أحد،
خرجت مع ابن اخي هذا، ومع ابن عمِّي هذا، ومع ابني
هذا، أريد قريتي الفلانية، فإذا بقُرب الجادَّةِ بعير قد نهشته
أفعى، وإذا هو وافِرُ اللحم، وكل شيء حوَالِيه من الطَّير
والسباع ميت، فقمنا منه على قابٍ أرماحٍ نتعجب، وإذا
عليه بعوض كثيرة، فبينا أنا أقول لأصحابي: يا هؤلاء،
إنكم لترون العَجَب: أولُ ذلك أن بعيراً مثل هذا يتفسَّخ
من عَضَّةِ شيءٍ لعله أن لا يكون في جسم عرقٍ من
عروقه، أو عَصَبَةٍ من عَصَبِهِ، فما هذا الذي مَجَّه فيه،
وقذفه إليه؟ ثم لم يرضَ بأن قتله حتى قتلَ كلَّ طائر ذاق
منه، وكلَّ سُبُعٍ عضَّ عليه، وأعجب من هذا قتله لأكابر
السُّباعِ والطَّيرِ، وتَرَكَه قَتَلَ البعوضة، مع صَعْفِها ومهانتِها.
فبينا نحن كذلك إذ هَبَّت رِيحٌ من تلقاء الجيفةِ، فطيرت
البعوض إلى شِقْنَا، وتسقط بعوضة على جبهتي، فما هو

إلا أن عضنني إذ اسمأدَّ وجهي تورّم رأسي، فكنت لا
أضربُ بيدي إلى شيء أحكُّه من رأسي وحاجبي، إلا انتثر
في يدي، فحُمِلتُ إلى منزلي في محملٍ وعولجتُ بأنواع
العلاج، فَبَرَّأت بعد دهرٍ طويل، على أنه أبقى عليَّ من
الشَّين أنه تركني أقرعَ الرأس، أمرط الحاجبين.
قال: والقومُ يخوضون معه في ذلك الحديث، حَوْضَ قوم
قد قتلوا تلك القصة يقيناً.

قال: فتبسَّمت، وتكَّس الفتى القيسيُّ رأسه، فظن الشيخ
أنه قد جرى بيننا في ذلك دَرء من القول، فقال: إن هذا
القيسيُّ خبيث، ولعله أن يكون قد احتال لك بحيلة قال
إبراهيم: فلم أسمع في السموم بأعجبَ من هذا الحديث.
طلسمات البعوض ويزعم أهلُ أنطاكية أنهم لا يُبَعَّضونَ
لِطَلَّسَمٍ هناك، ولو ادعى أهلُ عقر الدَّير، المتوسطة
لأجمة ما بين البصرة وكَسْكَرَ لكان طَلَّسْمُهُمُ أعجب.
ويزعم أهلُ حِمص أن فيها طَلَّسْمًا من أجليه لا تعيشُ فيها

العقارب، وإن طُرِحَتْ فِيهَا عَقْرَبٌ غَرِيبَةٌ مَاتَتْ مِنْ سَاعَتِهَا.

وَلَعَمْرِي إِنَّهُ لِيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بَلَدَةٌ تَضَادُّ ضَرْبًا مِنَ الْحَيَوَانِ فَلَا يَعِيشُ فِيهَا ذَلِكَ الْجِنْسُ، فَيَدْعِي كَذَّابُو أَهْلِهَا أَنْ ذَلِكَ بُرْقِيَّةٌ، أَوْ دَعْوَةٌ، أَوْ طَلَّسَمٌ.

ألم عضه البرغوث والقملة

والبرغوثُ إذا عض، وكذلك القملة، فيس هناك من الحُرقة والألم ما له مدَّةٌ قصيرة ولا طويلة.

وأما البعوضُ فأشهد أن بعوضةً عضتْ ظهرَ قَدَمِي، وَأَنَا بِقَرَبِ كَادَّةٍ وَالْعَوْجَاءِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ صَلَّى النَّاسُ الْمَغْرِبَ، فَلَمْ أَزَلْ مِنْهَا فِي أَكَالٍ وَحُرْقَةٍ، وَأَنَا أَسِيرُ فِي السَّفِينَةِ، إِلَى أَنْ سَمِعْتُ أَذَانَ الْعِشَاءِ.

ولذلك يقال: إن البعوضة لو ألحقت بمقدار جُرمِ الجَرَّارَةِ - فَإِنَّهَا أَصْغَرُ الْعُقَارِبِ ثُمَّ زِيدَتْ مِمَّ تَضَاعِيفُ مَا مَعَهَا مِنْ

السُّمُّ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ لَكَانَتْ شَرًّا مِنَ الدُّوَيْبَةِ الَّتِي
تَسْمَى بِالْفَارَسِيَّةِ: دَدَهُ وَهِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْقَمَلَةِ شَيْئًا، وَتَكُونُ
بِمَهْرَجَانِ قُدُقٍ، فَإِنَّهَا مَعَ صِغَرِ جَسْمِهَا تَفْسِخُ الْإِنْسَانَ فِي
أَسْرَعٍ مِنَ الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ، وَهِيَ تَعْضُ وَلَا تَلْسَعُ، وَهِيَ مِنْ
ذَوَاتِ الْأَفْوَاهِ، وَهِيَ الَّتِي بَزَعْمَهُمْ يُقَالُ لَهَا قَمَلَةُ النَّسْرِ،
وَذَلِكَ أَنَّ النَّسْرَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ، إِذَا سَقَطَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ
سَقَطَتْ مِنْهُ قَمَلَةٌ تَسْتَحِيلُ هَذِهِ الدَّابَّةَ الْخَبِيثَةَ.

وَالْبَعُوضَةُ مِنْ ذَوَاتِ الْخِرَاطِيمِ.

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ هَاشِمِ السُّدْرِيِّ قَالَ: كُنْتُ بِالرُّطِّ،
فَكُنْتُ وَاللَّهِ أَرَى الْبَعُوضَةَ تَطِيرُ عَنْ ظَهْرِ الثَّوْرِ فَتَسْقُطُ
عَلَى الْعُصْنِ مِنَ الْأَغْصَانِ، فَتَقْلِسُ مَا فِي بَطْنِهَا، ثُمَّ تَعُودُ.
وَالْبَعُوضَةُ تَغْمِسُ خِرَطُومَهَا فِي جِلْدِ الْجَامُوسِ، كَمَا
يَغْمِسُ الرَّجُلُ أَصَابِعَهُ فِي الثَّرِيدِ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوِاسِطِ شَطْرَيْنِ، فَالْشَّطْرُ
الَّذِي يَلِي الطَّفَّ وَبَابِ طَنْجِ بَيْتِ أَهْلِهِ فِي عَافِيَةِ، وَليْسَ

عندهم من البَعوض ما يذكر، والشطر الذي يلي زقاق
الهَفَّة لا ينامُ أهله من البعوض، فلو كان هذا ببلاد الشام أو
بلاد مصر لَدَّعُوا الطَّلَّسَم. و حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ النَّظَّامُ قَالَ:
وردنا فم زقاق الهفة، في أجمة البصرة، فأردنا النفوذ
فمنعنا صاحبُ المسلحة، فأرَدْنَا التَّأخَّرَ إِلَى الْهَوْرِ الَّذِي
خَرَجْنَا مِنْهُ، فَأَبَى عَلَيْنَا، وَوَرَدْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ سَكَرَانٌ وَأَصْحَابُهُ
سُكَارَى، فَغَضِبَ عَلَيَّ مَلَّاحٌ تَبَطَيْيٌّ، فَشَدَّهُ قِمَاطًا، ثُمَّ رَمَى
بِهِ فِي الْأَجْمَةِ، عَلَى مَوْضِعٍ أَرْضٍ تَتَّصِلُ بِمَوْضِعِ أَكْوَاخِ
صَاحِبِ الْمَسْلُوحَةِ، فَصَاحَ الْمَلَّاحُ: اقْتُلْنِي أَيُّ قَتْلَةٍ شِئْتَ
وَأَرْحُنِي فَأَبَى وَطَرَحَهُ، فَصَاحَ، ثُمَّ عَادَ صِيَاحُهُ إِلَى الْأَيْنِ،
ثُمَّ حَقَّتْ وَنَامُوا فِي كِلَيْهِمْ وَهُمْ سَكَارَى، فَجِئْتُ إِلَى
الْمَقْمُوطِ، وَمَا جَاوَزَ وَقْتُ عَتَمَةٍ، فَإِذَا هُوَ مَيْتٌ، وَإِذَا هُوَ
أَشَدَّ سَوَادًا مِنَ الزَّنْجِيِّ، وَأَشَدَّ انْتِفَاحًا مِنَ الزَّقِّ الْمَنْفُوحِ،
وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدْرِ مَا بَيْنَ الْعِشَاءِ وَالْمَغْرَبِ، فَقُلْتُ: إِنَّهَا لَمَّا
لَسَبْتُهُ وَلَسَعْتَهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لَسَعَا عَلَيَّ لَسَعٌ إِنْ اجْتَمَعَ

سمومها فيه أَزْبَتْ عَلَى نهشة أفعى بعيداً، فهي ضررٌ
ومحنةٌ، ليس فيها شيءٌ من المرافق.

نفع العقرب والعقاربُ بأكلها مَشْوِيَةً من بعينه ريح
السَّبَل، فيجذُّها صالحة، ويرمى بها في الزيت، حتى إذا
تفسَّخت وامتصَّ الزيتُ ما فيها من قواها فطلُّوا بذلك
الدهنِ الحُصَى التي فيها النفخ - فرَّق تلك الريح حتَّى
تخْمَصَ الجِلْدَة، ويذهب الوجع.

فإذا سمعتَ بَدْهُنَ العقارب فإنما يعنون هذا الدهن.

في البقِّ والجرجس والشَّران والفَرَّاش والأدي

وقال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا

بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا"، قال: يريد فما دونها.

وهو قول القائل للرجل يقول: فلانُ أسفلُ الناسِ وأنذلهم

فيقول: هو فوق ذلك يضعُ قوله فوق، في موضع: هو شَرُّ

من ذلك.

قال: وضروب من الطير لا تلتمسُ أرزاقها إلا بالليل، منها الخُفَّاش، والبُومة، والصدى، والصُّوع، وغُرابُ الليل. وللبعوض بالنهار تؤذي بعض الأذى، وإنما سلطانها بالليل، وكذلك البراغيث.

وأما القملُ فأمره في الحالات مستوٍ، وليس للدَّبَّانِ بالليل عملٌ، إلا أنني متى بيَّت معتي في القبة ما صار إليها، وسكن فيها من الدَّبَّانِ، ولم أطرُدْها بالعشيِّ وبعد العصر، فإني لا أجِدُ فيها بعوضة واحدة.

شعر ورجز في البعوض

وقال الرَّاجز في خرطوم البعوضة:

السَّقَاةُ دائِمٌ طَنِيئُهَا فِي خُرْطُومِهَا سِيكِيئُهَا

وقال الهذلي:

وَعَى الخَمُوشُ بِجَانِبَيْهِ رَكْبَ أَمِيمٍ ذَوِي هِيَاطِ

والخמוש: أصناف البعوض، والوعى: أصوات الملتفة التي لا يُبين واحدُها عن معنى، وهو

كما تسمع من الأصوات الجيشين إذا التقيا على الحرب، وكما تسمع من ضجة السوق.

وقال الكُميت وهو يذكر قانصاً وصاحب قنطرة - لأنه لا يبتني بينه إلا عند شريعةٍ ينتابها الوحش -

فقال وهو يصف البعوض:

حاضرٌ من غير جنٍّ أنسٌ ذو أرنانٍ ودُو رَجَلٍ

ترؤعه

والحاضر: الذي لا يبرحه البعوض، لأن البعوض من الماء يتخلق فكيف يفارقه، والماء الراكد لا يزال يولده؟ فإن صار نطافاً أو صَحَّصَحاً استحال دعاميص، وانسلخت الدعاميص فصارت فراشاً وبعوضاً، وقال ذو الرُّمَّة:

وَأَيَقِنُّ أَنَّ الْقِنْعَ صَارَتْ فَرَاشاً وَأَنَّ الْبَقْلَ ذَاوٍ وَ
نِطَافُهُ يَابِسُ

وصف الصَّيف، وقال أبو وجزة، وهو يصفُ القانصَ والشريرة والبعوض:

جَارَتُهُ الْأَفْعَى
وَسَامِرُهُ
بِهِ عَاذِرٌ مِنْهُنَّ كَالْجَرَبِ

رُمْدٌ في لونها، يعني البعوض، وهي التي تسيامرُ القانصَ وتُسْهَرُهُ، والعاذِرُ: الأثر، يقول: في جلده عواذير وآثارُ كآثارِ الجَرَبِ من لسع البعوض، وهو مَعَ ذلك وَسَطُ الأفاعي.

وقال الراجز يصف البَعُوضَ:

لَمْ أَدْرِ مَا كَرَاهَا مَارِسُ الْبَعُوضِ فِي دُجَاهَا
رَجُولٌ خَفِيَ حَشَاهَا لَدَى إِيْفَائِهَا شَوَاهَا
يَطْرَبُ السَّامِعُ مِنْ غَطَّالَةٍ أَعْظَمُهَا أَذَاهَا
أرْجُلُ الْجَرَادَةِ وَالْعَقْرَبِ وَالنَّمْلَةِ وَالسَّرَطَانِ وَكَذَلِكَ

قوائم الجرادة، هي ست: يدان، ورجلان، والميشاران

وبهما تعتمد إذا نَزَّت.

فأما العقرب فلها ثمان أرجل، وللنملة ست أرجل.

وللسَّرَطَانِ ثمان أرجل، وهو في ذلك يستعين بأسنانه،

فكأنه يمشي على عَشْرِ، وعيناه في ظهره، وما أكثر من

يشويه ويأكله للشهوة، لا للحاجة ولا للعلاج.

شعر ورجز في البعوض

وقال الرَّاجِزُ، ووصَفَ حالَهُ وَحَالَ البَعُوضِ:

كاليوم ولا مُدٌّ قَطُّ لَوَلَّ من ليلى بنهر بَطَّ
نجومه في رُبُطٍ بينَ خُطَيِّ مشيِّطٍ
البَعُوضِ ومن التَّعْطِي تَغَيَّبَ غِنَاءَ الرُّطِّ
مَنِّي بِمَكَانِ القَرِطِ بوقِعِ مِثْلِ وَقِعِ الشَّرِطِ

وقال أيضاً:

البعوضُ زَجَلَتْ أصواتُها اللحنَ مغنَّياتُها
تطرب السامعَ خافضاتُها
زجولٍ تُتقى شذائِها
صغيرةٌ عظيمةٌ ذاتهنَّ تُنْقِصُ عن بُغيتها بُغائِها
تصيبُ أبدأً رُمائِها راحمةٌ خُروطُومُها قنائِها

وأنشدني جعفر بن سعيد:

ظَلَّلْتُ بالبصرة في
تَهَوَّاشٍ
بِراغيتَ أذاها فاشي
نافر منها وذي اهتمامش جَنَبِيَّ عن الفراش
في حَكَ وفي تخراش في جنبيِّ كالخراش
كغلي المِرْجَلِ
وزوجةٍ دائمةٍ الهراشِ النَّشَّاشِ
ماجمعت من تهباشِ أُمَّ معروفِ خَمُوشِ

وقال رجل من بني جَمَانَ، وَقَعَ في جُنْدِ الثُّغُورِ:

أَنْصُرُ أَهْلَ الشَّامِ مِمَّنْ وَأَهْلِي بَنَجِدٍ سَاءَ ذَلِكَ مِنْ
يَكِيدُهُمْ
بِراغيتُ تُرْذِنِي إِذَا النَّاسُ أَقاسِيه على ساحلِ
تَوَّموا البحرِ

يك فرضٌ بعدها لا أعدُّ بذلوا حُمَرَ الدنانيرِ
كالجمرِ

?

في العنكبوت

قال الله عز وجل: "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ
كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ
الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"، ثم قال على إثر ذلك: "وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ" يريد ذكره
بالوهن، وكذلك هو، ولم يُردِّدْ إحصاء الصنعة في الرِّقَّةِ
والصَّفَاقَةِ، واستواء الرقعة، وطول البقاء، إذا كان لا يعمل
فيه تعاوُرُ الأيام، وسَلِمَ من جنایات الأيدي.

شعر في العنكبوت

وقال الحُدَّانِي:

يزهّدني في وُدِّ هارونَ بأطباءٍ مُلَعَّتَةٍ عُكْلُ
قَفَا هارونَ إِذْ قَامَ عنكبوت سلّ من دُبْرِهَا
مُدْبِرًا

ليت هاروناً يسافرٌ وليس على هارون خفٌ ولا
جائعاً

وقال مزرد بن ضرار:

أَنَّ شَيْخاً ذَا بَنِينَ رَأَيْتُ مِنْ شَامِلٍ
كَأَنَّمَا الشَّيْبُ قَوْنَسُ
يَبْقَى مِنْ أَضْرَاسِهِ غَيْرَ مَسَّهِ يَدْمَى مِرَاراً
وَاحِدٍ وَيَضْرَسُ
فِيهِ الْعَنْكَبُوتُ نَوَاشِيَّ حَتَّى شَبَنَ أَوْ هُنَّ
بَنَاتُهَا عُنَسُ
لَظَلَّ إِلَيْهَا رَانِيّاً وَكَأَنَّهُ كَشَّ ثَوْرٌ مِنْ كَرِيصِ
مَنْمَسُ

أجناس العنكبوت ونسجها

قال: ومن أجناس العنكبوت جنس رديء التدبير، لأنه ينسج ستره على وجه الأرض، والصخور، ويجعله على ظهر الأرض خارجاً، وتكون الأطراف داخله، فإذا وقع عليه شيء مما يعتد به من شكل الدبان وما أشبه ذلك أخذه.

وأما الدقيق الصنعة فإنه يصعد بيته ويمد الشعرة ناحية القرون والأوتاد، ثم يسدي من الوسط، ثم يهيئ اللحم، ويهيئ مصيدته في الوسط، فإذا وقع عليها ذباب تحرك

ما هناك ارتبط ونشبت به، فيتركه على حاله حتى إذا
وثق بوهنه وضعفه، غلّه وأدخّله إلى خزائنه، وإن كان
جائعاً مصّاً من رطوبته ورمى به، فإذا فرغ رمّ ما تشعّت
من نسجه.

وأكثر ما يقع على تلك المصيدة من الصيّد عند غيبوبة
الشمس.

وإنما تنسج الأنثى، فأما الذكر فإنه ينقض ويفسد. وولد
العنكبوت أعجب من الفروج، الذي يظهر إلى الدنيا
كاسباً محتالاً مكتفياً.

قال: وولد العنكبوت يقوم على النسج ساعة يولد.
قال: والذي ينسج به لا يخرج من جوفه، بل من خارج
جسده.

وقال الحدّانيُّ:

عنكبوت سلّ من دُبْرها قفا هارون إذ قام
مُدبراً

فالنحل، العنكبوت، ودود القُر، تختلف من جهات ما يقال إنه يُخْرَج منها.

العنكبوت الذي يسمى الليث

ومن العناكب جنسٌ يصيد الذُّبابَ صيد الفهود، وهو الذي يسمى: الليث وله ستُّ عيون، وإذا رأى الذُّبابَ لطِئَ بالأرض، وسكَّنَ أطرافه، وإذا وثَبَ لم يخطئُ، وهو من آفات الذُّبان، ولا يصيدُ إلا ذِبَّان الناس.

ذبان الأسد والكلاب وذِبَّانُ الأُسْدِ على حِدَّة، وذِبَّانُ الكِلابِ على حِدَّة، وليس يقوم لها شيءٌ، وهي أشدُّ من الزنابير، وأضُرُّ من العقارب الطيَّارة، وفيها من الأعاجيب أنها تعضُّ الأُسْدَ، كما يعضُّ الكلبُ ذِبَّانُ الكَلْبِ.

وكذلك ذِبَّانُ الكَلأ، لما يغشى الكَلأ من بعير وغير ذلك، ولها عضُّ مُنْكَر، ولا يبلغُ مبلغَ ذِبَّانِ الأُسْدِ.

فمن أعاجيبها سوى شدةِ عضِّها وسَمِّها، وأنها مقصورة

على الأسد، وأنها متى رأت بأسد دماً من جراح أو رمي،
ولو في مقدار الخديش الصغير فإنها تستجمع عليه، فلا
تقلع عنه حتى تقتله.

وهذا شبيه بما يُروى ويُخبر عن الذرّ، فإن الذرّ متى رأته
بحيّة خدشاً لم تقلع عنه حتى تقتله، وحتى تأكله.

ولوع النمل بالأراك ولقد أردتُ أن أغرسَ في داري أراكّةً،
فقالوا لي: إن الأراكّة إنما تنبت من حبّ الأراك، وفي
نباتها عسّر، وذلك أن حبّ الأراك يغرس في جوف طين،
وفي قواصير، ويُسقى الماء أياماً، فإذا نبت الحبُّ وظهر
نبأته فوق الطين، وُضعت القوصرة كما هي في جوف
الأرض، ولكنها إلى أن تصير في جوف الأرض، فإن الذرّ
يطالبها مطالبة شديدة، وإن لم تُحفظ منها بالليل والنهار
أفسدتها.

فعمدتُ إلى منارات من صُفر من هذه المسارج، وهي
في غاية الملاسة واللين، فكنثُ أصعُ القوصرة على

التُّرسِ الذي فوق العمود الأملس، فأجد فيها الذرّ الكثير،
فكنتُ أنقلُ المنارةَ من مكانٍ إلى مكانٍ، فما أفلحَ ذلك
الحبُّ.

ضروب العناكب

قال: والعناكب ضروبٌ: منها هذا الذي يقال له الليث،
وهو الذي يصيد الذبّان صيد الفهد، وقد ذكرنا في صدر هذا
الكلام جذقه ورقفه، وتأثيه وحيلته.
ومنها أجناس طوّالُ الأرجل، والواحدةُ منها إذا مشت
على جلد الإنسان تبثّر، ويقال إن العنكبوت الطويلة
الأرجل، إنما اتخذت بيتاً وأعدّت فيه المصايد والحبائل،
والخيوط التي تلتفُّ على ما يدخُل بيتها من أصناف الذبّان
وصغار الزنابير لأنها حين عِلِمَتْ أنها لا بدُّ لها من قوت،
وعرفت ضعفَ قوائمها، وأنها تعجزُ عما يقوى عليه الليث،
احتالت بتلك الحيل.

فالعنكبوت، والفأر، والنحل، والذَّبَّ، والنمل، من الأجناس التي تتقدم في إحكام شأنِ المعيشة، ومنها جنس رديء، مشنوء الصورة، غليظ الأرجل، كثيراً ما يكون في المكان التَّرب من الصناديق والقماطر والأسفاط، وقد قيل: إِنَّ بينه وبين الحيَّة، كما بين الخنفساء والعقرب.

وإنَّ العناكب هي العوامل: تغزل وتنسج، والذَّكْرُ أخرق ينقض ولا ينسج، وإن كان ما قال صاحب المنطق حقاً فما أغْرَبَ الأعجوبة في ذلك، وذلك أنه زعم أن العنكبوت تقوى على النَّسج، وعلى التقدّم في إحكام شأن المعاش حين تولد.

الكاسب من أولاد الحيوان وقالوا: وأشياء من أولاد الحيوان تكونُ عالمةً بصناعتها، عارفة بما يُعيشها ويُصلحها، حتى تكون في ذلك كأمهاتها وآبائها، حين تخرجُ إلى الدنيا، وكالفُرُوج من وِلْد الدجاج، والحِسل من ولد الضبَّاب، وفرخ العنكبوت.

وهذه الأجناسُ، مع الفأر والجرذان، هي التي من بين جميع الخلق تَدَّخِرُ لنفسها ما تعيش به من الطُّعْمِ.

في النحل

زعمَ صاحبُ المنطق أن خَلِيَّةَ من خلايا النحل فيما سلف من الزمان، اعتلَّتْ ومَرِضَ ما كان فيها من النحل، وجاء نحلٌّ من خَلِيَّةٍ أُخرى يقاتلُ هذا النحل حتى أخرجت العسل، وأقبل القِيَمُ على الخلايا يقتل بذلك النحل الذي جاء إلى خليته.

قال: فخرج النحلُّ من الخلية يقاتلُ النحلَ الغريب، والرجل بينها يطردُ الغريب، فلم تلسعه نحل الخلية التي هو حافظُها، لدفعه المكروهَ عنها.

قال: وأجودُ العسل ما كان لونه لون الذهب.

نظام النحل

قال: والنحل تجتمع فتقسم الأعمال بينها، فبعضها يعملُ الشَّمع، وبعضها يعملُ العسل، وبعضها يبني البيوت، وبعضها يَسْتَقِي الماء ويصُبُّه في الثَّقَب، ويلطخه بالعسل. ومنه ما يبكرُ إلى العمل، ومن النحل ما يكفُّه؛ حتى إذا نهضت واحدة طارت كلها، يقال: بَكَرَ بُكُورَ اليَعْسُوب، يريد أمير النحل لأنها تتبعه عُذْوَةً إلى عملها، ومنها ما ينقل العسل من أطرافِ الشجر، ومنها ما ينقل الشَّمع الذي تبني به، فلا تزالُ في عملها حتى إذا كان الليل آبت إلى مآبها.

قال: والأزري: عمل العسل، يقال: أرت تأري أزيًا، والأزري في غير هذا الموضع: القيء، وقال أبو ذؤيب:

التي تَأْرِي إِلَى كُلِّ أَصْفَرٍّ لِيَطُّ الشَّمْسِ
مَغْرَبٍ انْقِلَابُهَا

ومغرب: جمع مغرب، وكل شيء وارك من شيء فهو مغرب، كما جعله أبو ذؤيب، والأصل مغرب الشمس، وقال أبو ذؤيب:

فبَاتَ بِجَمْعٍ ثُمَّ تَمَّ إِلَى فَاصْبَحَ رَادًّا يَبْتَغِي الْمَرْجَ
مِنِّي بِالسَّخْلِ الْمَرْجُ: الْعَسَلُ، وَالسَّخْلُ: النِّقْدُ.

ما له رئيس من الحيوان ومن الحيوان ما يكون لكل جماعة منها رأس وأمير، ومنها ما لا يكون ذلك له، فأما الحيوان الذي لا يجد بدًّا ولا مصلحة لشأنه إلا في اتخاذ رئيس ورقيب فمثل ما يصنع الناس، ومثل ما تتخذ النحل والغرائيق، والكرَّاكي.

فأما الإبل والحمير والبقر، فإن الرياسة لفحل الهجمة،

ولغير العانة، ولثور الرَّبَرَب، وذكورتها لاتتخذ تخذ الرُّقَباء
من الذُّكُورَة.

وقد زعم ناس أن الكراكيَّ لا تُتْرَى أبداً إلا فُرَادَى فكأن
الذي يجمعها الذكر، ولا يجمعها إلا أزواجاً.

ولا أدري كيف هذا القول؟ والنحل أيضاً تسير بسيرة الإبل
والبقر والحمير، لأن الرئيس هو الذي يورِدُها ويُصْدِرُها،
وتنْهَضُ بنهوضه، وتقع بوقوعه، واليعسوب هو فحلها،
فترى كما ترى، سائر الحيوان الذي يتخذ رئيساً إنما هي
إناث الأجناس، إلا الناس؛ فإنهم يعلمون أن صلاحهم في
اتخاذ أمير وسيِّد، ورئيس.

وزعم بعضهم أن رياسة اليعسوب، وفحل الهجمة، والثور،
والغَيْر، لأحد أمرين: أحدهما لاقتدار الذَّكَر على الإناث،

والآخر لما في طباع الإناث من حبِّ ذكورتها.

ولو لم تتأمَّر عليها الفحولُ لكانت هي لِحَبِّها الفحولِ تغدو
بغدوِّها، وتروح برِوَاحها.

قالوا: وكذلك الغرائيق والكراكيّ، فأما ما ذكروا من رؤساء الإبل والبقر والجواميس والحمير، فما أبعدهم في ذلك عن الصواب.

وأما إلحاقهم الغرائيق والكراكي بهذه المنزلة فليس على ما قالوا.

وعلى أنّنا لا نجدُ بُدّاً من أن يعلم أن ذكورتها أقوى على قسرِ الإناث وجمعها إليها من الإناث وعلى أنه لا بد من أن يكون بعض طاعة الإناث لها من جهة ما في طباعها من حبِّ ذكورتها، ولو كان اتخاذ الغرائيق والكراكيّ الرؤساء والرُّقباء إنما علتته المعرفة لم يكن للغرائيق والكراكيّ في المعرفة فضلٌ على الدّرّ والنمل، وعلى الدّئب والفيل، وعلى الثعلب والحمام.

أما الغنم فهي أَعَثْرُ وَأَمَوْق من أن تجري في باب هذا القول.

وقد تخضع الحياتُ للحية، والكلاب للكلب، والدُّيوك

للديك، حتى لا تروِّمَه ولا تحاول مدافعتَه، قصة في خنوع
الكلب ولقد خرجت في بعض الأسحار في طلبِ الحديث،
فلما صرْتُ في مربَّعة المحلَّة، ثار إليَّ عدَّةٌ من الكلابِ،
من صَّخامها، ومما يختارُه الحُرَّاسُ، فبينما أنا في الاحتيال
لهنَّ وقد غشيَّني إذ سَكَنَ سكتةً واحدةً معاً، ثم أخذ كل
واحد في شقِّ كالخائف المستخفي، وسمعت نغمة
إنسان، فانتهرتُ تلك الفرصة من إمساكهنَّ عن النَّباحِ،
فقلتُ: إِنَّ هَهُنَا لَعِلَّةٌ إذ أقبلَ رجلانِ ومعها كلبٌ أربُّ ضخْمِ
دوسر، وهو في ساجور، ولم أرَ كلباً قط أضخم منه،
فقلت: إنهنَّ إنما أمسكن عن النَّباحِ وتسترن، من الهيبة
له وهي مع ذلك لا تتخذ رئيساً.
سادة الحيوان وروى عن عبَّاد بن صهيب، عن عوف بن
أبي جميلة، عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى: إن
لكل شيء سادة حتى إن للنمل سادة، فقال بعضهم:
سادة النمل: المتقدِّمات.

وهذا تخريج، ولا ندري ما معنى ما قال أبو موسى في هذا.

ولو كان اتخاذاً الرئيس من النحل، والكرائي، والغرائيق، والإبل، والحمير، والثيران، لكثرة ما معها من المعرفة - لكانت القروء، والفيلة والذر، والثعالب، أولى بذلك، فلا بد من معرفة، ولا بد من طباع وصنعة. والحمام يُزجلن من لؤلؤة، وهن بصریات وبغدادیات، وهن جُماع من هاهنا وهاهنا، فلا تتخذ رئيساً.

طعن ناس من الملحدين في آية النحل

وقد طعن ناس من الملحدين، وبعض من لا علم له بوجوه اللغة وتوسع العرب في لغتها، وفهم بعضها عن بعض، بالإشارة والوحي فقالوا: قد علمنا أن الشمع شيء تنقله النحل، مما يسقط على الشجر، فتبني بيوت العسل منه، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها، كما

يسقط التَّرنُّجُبِين، والمنُّ، وغير ذلك، إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفيُّ، وكذلك العسل أخفى وأقلُّ، فليس العسل بقيءٍ ولا رُجْع، ولا دَخَلَ للنحلة في بطنٍ قطُّ.

وفي القرآن قول الله عز وجل: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ".

ولو كان إنما ذهبَ إلى أنه شيءٌ يُلْتَقَطُ من الأشجار، كالصُّمُوغِ وما يتولد من طباع الأنداء والأجواء والأشجارِ إذا تمازجت - لمان كما في ذلك عجبٌ إلا بمقدار ما نجده في أمور كثيرة.

دعوى ابن حائط في نبوة النحل

قلنا: قد زعم ابن حائط وناسٌ من جُهَّالِ الصُّوفِيَّةِ، أن في النحل أنبياء، لقوله عز وجل: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"، وزعموا أن الحَوَارِيِّينَ كانوا أنبياء لقوله عز وجل: "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى

الْحَوَارِيِّينَ".

قلنا: وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء؟ بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء، لقوله عز وجل على المخرج العام: "وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب، بل أطلق القول إطلاقاً.

وبعدُ فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين، وإلا تكونوا مسلمين فليَمَّ تجعلون الحجة علي نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل؟ قول في المجاز وأما قوله عز وجل: "يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ" فالعسل ليس بشرابٍ، وإنما هو شيء يحوّل بالماء شراباً، أو بالماء نبيذاً، فسماه كما ترى شراباً، إذ كان يجيء منه الشراب.

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء اليوم بأمر عظيم.

وقد قال الشاعر:

سقط السماء بأرض عيناه وإن كانوا غَضَابَا

فزعموا أنهم يرعون السماء، وأنَّ السماء تسقط.

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج

في اللغة من بطونها وأجوافها.

ومن حمل اللغة علي هذا المركب، لم يفهم عن العرب

قليلاً ولا كثيراً وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم، وبه

وبأشباهه اتسعت، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة،

وهذيلاً، وضواحي كنانة، وهؤلاء أصحاب العسل، والأعراب

أَعْرَفَ بِكُلِّ صَمْعَةٍ سَائِلَةٌ، وَعَسَلَةٌ سَاقِطَةٌ، فَهَلْ سَمِعْتُمْ
بِأَحَدٍ أَنْكَرَ هَذَا الْبَابَ أَوْ طَعَنَ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْحِجَةِ؟

أَحَادِيثُ فِي الْعَسَلِ

حَدَّثَ عَنْ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ، قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو طُعْمَةَ عَنْ بَكْرِ
بْنِ مَاعِزٍ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ قَالَ: لَيْسَ لِلْمَرِيضِ عِنْدِي
دَوَاءٌ إِلَّا الْعَسَلُ.

وَعَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانٍ، عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَعْجَبُهُ إِذَا
اسْتَمَشَى الرَّجُلُ أَنْ يَشْرَبَ اللَّبْنَ وَالْعَسَلَ، إِبْرَاهِيمُ بْنُ
أَبِي يَحْيَى، قَالَ: بَلَغَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّْ الشَّرَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْخُلُوفُ
الْبَارِدُ.

وَسَفِيَانَ الثَّوْرِيَّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ
ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْقُرْآنَ وَالْعَسَلَ.
شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، قَالَ: مَضَى

رجل إلى ابن مسعود فقال: إن أخي يشتكى بطنه، وقد
تُعنت له الخمر، فقال: سبحان الله ما كان الله ليجعل
شفاءه في رجس، وإنما جعل الشفاء في اثنين: في
القرآن والعسل.

سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أبي المتوكل
الناجي، عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أتى النبي صلى
الله عليه وسلم فقال إن أخي يشتكى بطنه، فقال عليه
السلام: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: قد فعلت، قال:
اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال قد فعلت، فقال: اسقه عسلاً،
ثم أتاه الرابعة، فقال: صدق الله وكذبت بطنُ أخيك،
اسقه عسلاً فسقاه فبرأ الرجل.

قال: والذي يدلُّ على صحة تأويلنا لقول الله عز وجل:
"يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ
لِلنَّاسِ"، أن تكون المعجونات كلها إنما بالعسل، وكذلك
الأنبجيات.

نفع العسل وإذا ألقى في العسل اللحم الغريض فاحتاج صاحبه إليه بعد شهر أخرجه طرياً لم يتغير.

وإذا قطرت منه قطرة علي وجه الأرض، فإن استدار

كما يستدير الزئبق، ولم يتفش، ولم يختلط بالأرض

والتراب فهو الصحيح، وأجوده الذهبي.

ويزعم أصحاب الشراب أنهم لم يروا شراباً قطُّ ألدَّ ولا

أحسنَ ولا أجمعَ لما يريدون، من شراب العسل الذي

يُنْتَبَدُ بمصر، وليس في الأرض تجارُ شراب ولا غير ذلك

أيسرَ ومنهم.

وفيه أعجوبة: وذلك أنهم لا يعملونه إلا بماء النيل أكَدَرَ

ما يكون، وكلما كان أكَدَرَ كان أصفى، وإن عملوه

بالصافي فسَد.

وقد يُلقى العسلُ على الزبيب، وعلى عصير الكرم

فيجودهم.

التشبيه بالعسل وهو المثلُّ في الأمور المرتفعة،

فيقولون: ماءٌ كأنه العسل، ويصفون كلَّ شيءٍ حلواً،

فيقولون: كأنه العسل، ويقال: هو معسول اللسان،

وقال الشاعر:

لسانك معسولٌ ونفسلُودون الثُّرَيَّا مِن صديقك
شَحَّةُ

التنويه بالعسل في القرآن وقال الله عزَّ وجل في كتابه،

وذكر أنهار الجنة، فقال: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ

فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ

وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى"،

فاستفتح الكلام بذكر الماء، وختمه بذكر العسل، وذكر

الماء واللبن فلم يذكرهُما في نعتهما ووصفهما إلا

بالسلامة من الآسن والتغيُّر ودَكَرَ الخمر والعسلَ فقال:

"مِنْ حَمْرٍ لَدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ" و "مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى"، فكان هذا

ضرباً من التفضيل، وذكرها في مواضع أُخر فنفى عنها

عيوب حَمْر الدنيا، فقال عز وجل اسمه: "لَا يُصَدَّعُونَ

عَنْهَا وَلَا يُنْفُونَ"، فكان هذا القول الأولُ أظهر دليل على
التفضيل.

في القراد

يقال: أسمعُ من قُرَادٍ وألرَّقُ من قُرَادٍ وماهُو إلا قراد تَقَر، وقال الشاعر:

السَّمْنُ بالسُّنُوتِ لَا يَمْنَعُونَ جَارَهُمْ أَنْ
فِيهِمْ يُقَرِّدَا

السُّنُوتُ، عند أهل مكة: العسل، وعند آخرين: الكُمُون.

وقال الحطيئة:

لَعَمْرُكَ مَا قُرَادٌ بِنِيكَلَيْبٍ تُزِعَ الْقُرَادُ بِمَسْتِطَاعِ
قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّ الْفَحْلَ يَمْتَعُ أَنْ يُخْطَمَ، فَإِذَا نَزَعُوا مِنْ

قُرَادَاتِهِ شَيْئاً لَدٌّ لَذِكْ، وَسَكَنَ إِلَيْهِ، وَلَانَ لِصَاحِبِهِ، فَعِنْدَ
ذَلِكَ يَلْقَى الْخَطَامَ فِي رَأْسِهِ.

قال: وأخبرني فراس بن خندقي، وأبو بركة قال: كان
جحدراً إذا نزلت رُفْقَةٌ قريباً منه، أخذ شَنَّةً فجعل فيها
قِرْدَاناً، ثم نثرها بقرب الإبل فإذا وجدَتِ الإبلُ مَسَّهَا
نهضتْ، وشدَّ الشَّنَّةَ في ذنب بعضِ الإبل، فإذا سمعتْ
صوتَ الشَّنَّةِ، وعمِلتْ فيها القردانُ نفرت، ثم كان يثبُّ

في ذرّوة ما نَدَّ منها، ويقول: ارحم الغارّة الصّعاف يعني
القردان.

قال أبو بَرزة: ولم تكن هَمَّته تجاوزُ بغيراً.

القراد في الهجو

قال رُشيد بن رُميَض:

عُرِّ ومأوانا قريبٌ ومولى لا يدبُّ مع القُرَادِ
وهجاهم الأعشى فقال:

فلسنا لباغي المهملاتِ ما طمًا بالليلِ
يَقْرِفَةٌ مُنْتَشِرَاتِهَا
مِسْمَعٍ أَقْصِرُ فَإِنْ تَأْتِكُمْ تُلْحَقُ بِهَا
قَصِيدَةٌ أَخَوَاتِهَا
وهجاهم حُصَيْن بن المنذرِ فقال:

تنازعني ضبيعةُ أَمْرٍ قومي كانت ضبيعةُ للأموِرِ
كانت ضبيعةُ غيرَ عَتَبِمَناه إلى نَسَبِ شَطِيرِ
وأوصاني أبي، فحفظتُ العُلَّ عن عُتْقِ الأسيِرِ

وأوصى جَحْدَرُ فَوْقِي بَنِي لُؤْسِ القُرَادِ على البَعِيرِ
قال: وفي القردان يقول الآخر قال: وبعضهم يجعلها في البراغيث؛ وهذا باطل:

عبادَ اللَّهِ مَنْ ظَهَرَتْ فِي الأَرْضِ شَدَّةٌ
لِقَبِيلَةٍ مُغَيَّرُهَا
الدِّينُ ينهاها ولا هي دُو سَلاحٍ من مَعَدَّةٍ
تنتهي يَضِيئُهَا

فمن أصناف القِرْدان: الحَمَّان، والحَلَم، والقِرْشام،
والعَلُّ، والطلَّح.

شعر ومثل في القراد

وقال الطَّرْمَاح:

وَرَدَتِ الطَّوِيَّ صيرة دفن الإزاء
والحوضُ كال ملتبدهُ
سافتٌ قليلاً على استمرَّت في
نصائبه طامس تخده
لوى أنفه طلح قرأشيم
بمشفرها شاحبُ جسده
طويلُ الطوى كبالية
السفع متى يلق العلو
يصطعده

وفي لزوق القُرَادِ يقولُ الراعي:

مرافقهنَّ فَوْقَ مَزَلِيقِستطيعُ بها القُرَادَ مَقِيلاً

والعربُ تقولُ: ألزَّقُ من البرام كما تقول: ألزَّقُ من القُرَادِ، وهما واحدٌ.

شعر لأمية في الأرض والسماء وذكر أمية بن أبي الصَّلْتِ، خلق السماء، وإنه ذكر من مَلَأَتْهَا

أن القُرَادَ لا يعلُّقُ بها، فقال:

والأرضُ معقلنا وكانَتْ أمنا معقلنا وفيها نولدُ
تلاميذ على قذفاتِها حبسوا قياماً فالفرائص

الإله عليهم مخصصوا لا تبلى ولا تتأود
أنه تحدو البرام بمتنها البرام عن التي لا تقرُّ

استطراد لغوي

قال: القُرَادُ أولُ ما يكون - وهو الذي لا يكاد يُرى من صِغَر - فَمَقَامَةٌ، ثم يصير حَمَّانَةً، ثم يصير قراداً، ثم يصير حَلْمَةً.

قال: ويقال للقُرَاد: العَلِّ، والَطَّلِح، والقَتَّين، والبُرَام، وَالقِرْشَام.

قال: والقُمَّلُ واحدتها قُمَّلة، وهي من جنس القِرْدان، وهي أصغر منها.

تخلق القراد والقمل

قال: والقِرْدانُ يتخَلَّقُ من عَرَقِ البعير، ومن الوسخ والتلَطُّحِ بالثُّلُوطِ والأبوال، كما يتخَلَّقُ من جلد الكلب، وكما يتخلق القملُ من عرق الإنسان ووسخه، إذا انطبق عليه ثوبٌ أو شعْرٌ أو ريش.

والحَلْمُ يعرض لأذني الكلب أكثر ذلك.

أمثال وأخبار في القراد

قال: ويقال أَقْطَفُ مِنْ حَلْمَةٍ، وَالزَّقُّ مِنْ بُرَامٍ، وَأَذَلُّ مِنْ قُرَادٍ، وقال الشاعر:

خَلِيلِي مِنْ تَقَارِبِ الْقِرَادِ بِاسْتِهِ وَهُوَ
شَخِصِهِ

وقال أبو حنيس لقيس بن زهير: وَاللَّهِ لَأَتَتْ بِهَا أذَلُّ مِنْ قُرَادٍ، فَقَدَّمَهُ وَصَرَبَ عُنُقَهُ.

وقال الراجز:

قِرْدَانُهُ فِي الْعَطَنِ الْخَوِيِّ كَحَبِّ الْحَنْظَلِ
المقلي

من الحلاء ومن الخويِّ.

ويقال كلمة الثدي: القراد، وقال عديُّ بن الرَّقَاعِ:

قِرَادِي صَدْرِهِ بَطِينٍ مِنَ الْجَوْلَانِ كِتَابُ
طَبَعْتُهُمَا أَعْجَمُ

والقُرَادُ يَعْرِضُ لِاسْتِ الْجَمَلِ، وَالنَّمْلُ يَعْرِضُ لِلْخُصْيِ، وقال الشاعر:

وَأَنْتَ مَكَائِكَ مِنْ وَأَيْسَ الْجَمَلِ
مَكَانِ الْقُرَادِ مِنْ اسْتِ

قال الممَرِّق:

طَلِيحاً مَا تُرَاعُ مِنْ ظَلِّي فِي أَوْصَالِهَا الْعَلُّ
الشَّذَا يِرْتَقِي

ويروى: فَبَاتَتْ ثَلَاثًا لَا تُرَاعُ، يَصِفُ شِدَّةَ جِزْعِهَا مِنَ الْقِرْدَانِ.

وقال بشار بن بُرد:

أَعَادِي الهمَّ منفرداً بشوق كيدي كما لزق القُرَادُ
وكانوا إذا خافوا الجَدَبَ والأزمة تقدموا في عمل العِلْهِزِ،
والعِلْهِزِ.
قِرْدَانٌ يُعَالَجُ بدم الفصد مع شيء من وَبَرٍ، فيدخرون ذلك
كما يدخرون مَنْ خاف الحصار الأكارعَ والجاوِزَسَ.

والشُّعوبِيَّة تهجو العربَ بأكلِ العِلْهَز، والْفِتِّ، والدُّعَاع،
والهبيد، والمغافير، وأشباه ذلك، وقال حسانُ بنُ ثابتٍ:
يُعَلِّلَنَّ بالمغافيرِ شَرِيَّ حَنْظَلِ
والصَّمِّمِ الحُطْبَانِ
وقال الطَّرِمَّاحُ:

تَأْكُلُ الْفِتِّ وَالِدُعَاعَ تَوْفَعُ هَيْبِدًا يَجْنِيهِ مُهْتَبِدُهُ
وقال الأصمعيُّ: قَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِرَجُلٍ: أَيَسُرُّكَ أَنْ تَعِيشَ حَتَّى تَجِيءَ حَلْمَةٌ مِنْ
إفريقيةً مشياً؟ قال: فأنت يسرُّك ذلك؟ قال: أخافُ أن يقول إنسانٌ: إنها بمخيض، فيُعْشَى
عليَّ ومخيض على رأسِ بريدٍ من المدينة.
ويقولون: أمُّ القَرَادِ، للواحدةِ الكبيرة منها، وتسمُّونَ بقَرَادِ، ويكتنونَ بأبي قراد، وقد ذكر ذلك
أبو النجم فقال:

لِلْأَرْضِ مِنْ أُمَّ الْقَرَادِ الْأَطْحَلِ
وفي العربِ بنو قُرَادِ.

في الحبارى

وتُقولُ في الحُبارى يقول مُوجز، إن شاء الله تعالى.
قال ابنُ الأعرابي: قال أعرابيُّ إنه ليقْتُلُ الحُبارى هزلاً ظلمُ الناسِ بعضهم لبعض، قال يقول:
إذا كثرت الخطايا متع الله عز وجل دَرَّ السَّحَابِ، وإنما تصيب الطيرُ من الحَبِّ ومن الثمرِ عَلى
قَدْرِ المَطَرِ.
وقال الشاعر:

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ
وتغشى منازلُ الكُرْمَاءِ

وهذا مثل قوله:

رَأَيْتَ الْأَلْسِنَ وَالْأذْرَعِ الْوَاسِعَةَ السَّبَّاطَا

السَّلاطَا النَّدَى حَيْثُ تَرَى الصُّغَاطَا

ما قيل من المثل في الحبارى

وقالوا في المثل: مات فلانٌ كَمَدَ الحُبَارَى: وقال أبو الأسود الدؤلي:

مَيْتٌ كَمَدَ الحُبَارَى طَعْنَتْ هُنَيْدَةً أَوْ تَلَمَّ
ويروى: ملَمَّ وهو اسم امرأة.

وذلك أن الطير تتحسّر وتتحرّس معها الحُبَارَى، والحُبَارَى

إذا تُتِفَتْ أَوْ تحسّرتْ أبطأ نبات ريشها، فإذا طار

صَوَّجِبَاتِهَا ماتت كمداً.

وأما قوله: أَوْ تَلَمَّ يقول: أَوْ تقارب أن تظعن.

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: كلُّ شيء يحبُّ

ولده حتى الحُبَارَى، يضرب بها المثل في الموق.

سلاح الحبارى وغيرها من الحيوان

قال: وللحبارى خِزَانَةٌ بين دُبُرِهِ وَأَمْعَائِهِ، له فيها أبدأً سَلْحٌ

رقيق لزج، فمتى ألحَّ عليها الصقْرُ وقد علمت أن سلاحها

من أجود سلاحها، وأنها إذا ذرقتُ بقي كالمكتوف، أو
المدبَّقُ المقيدُ فعند ذلك تجتمع الحبارياتُ على الصقر
فينتفن ريشه كله طاقةً طاقةً وفي ذلك هلاكُ الصقر.
قال: وإنما الحبارى في سلاحها كالظرابيِّ في فُسائها،
وكالثعلب في سلاحه، وكالعقرب في إبرتها، والزنبور في
شعرته، والثور في قرنه، والدَّيِّك في صيصيته، والأفعى
في نابها، والعقاب في كفها، والتمساح في ذنبه.
وكلُّ شيءٍ معه سلاحٌ فهو أعلم بمكانه، وإذا عدم السلاحُ
كان أبعصرَ بوجوه الهرب؛ كالأرنب في إيثارها للضعفاء،
لقصر يديها، وكاستعمال الأرنب للتوبير والوطء على
الزَّمعات، واتخاذ اليرابيع، القاصعاء والنَّافقاء، والدَّامَّاء،
والراهطاء.

شعر في الحبارى

وقال الشاعر:

تركوك أسلِحَ مِنْ صقراً وأشردَ من

حُبَارَى

يريد: نعامه، وقال قيسُ بن زهير:

تتَجَرَّمُ بالمناطق لتجري إلى شَأٍ بعيد
ظالماً ^{وتسبح}
كالْحُبَارَى إن أصيبَ لُصِيبَ وَإِن تَفَلَيْتُ من
فمِثْلُهَا ^{الصَّقْرُ تسَلِح}

وقال ابن أبي قَتَنِ، يصفُ ناساً من الكُتَّابِ، في قصيدة له ذكرَ قِيَمِهَا خِيَاتَتَهُم، فقال:

مَالَ الإِمَامِ لَهُمْ ^{وَقَالُوا الدِّينُ دِينُ بَنِي}
صَهَارَى ^{حَلَالاً}
كَانُوا يَحَاسِبُهُمْ أَمِيرُ ^{سَلَّحُوا كَمَا سَلَّحَ}
الْحُبَارَى

الخرَّب والنهار والخرَّب: ذَكَرَ الحُبَارَى، والنهائُ: فَرَّخَ الحُبَارَى، وفرخها حارض ساقطاً لا خير

فيه، وقال منمَّمُ بن نويرة:

وَصَيْفٍ إِذَا أَرغَى طُرُوقاً عَانَ ثوى فِي القِدِّ حَتَّى
بَعِيرَهُ ^{تَكْنَعَا}
وَأرْمَلَةٌ تَمْشِي بِأشْعَثَ كَفَرَّخَ الحُبَارَى رَأْسُهُ قَدْ
مُحْتَلٌّ ^{تَصَوَّعَا}

وقال أعرابي:

أَنْ أَصْطَادَ ضَبًّا ^{سَوْحِبَلِبًا} يَرعى ربيعاً أرملاً
فجعل الخَرَّبَ أرملاً، لأن ريشه يكون أكثر، وقد ذكرنا ما

في هذا الباب فيما قد سلف من كتابنا.

خبر فيه ذكر الحبارى

وقال أبو الحسن المدائني: قال سعيد النّوّاء: قدّمت
المدينة فلقيتُ عليّ بن الحسين، فقلت: يا ابن رسول
الله، متى يُبعثُ أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب؟
قال: إذا بُعثَ الناس.

قال: ثم تذاكرنا أيامَ الجملِ فقال: ليته كان ممنوعاً قبل
ذلك بعشرين سنة أو كلمة غير هذه قال: فأتيت حسن
بن حسنٍ، فذكرتُ له ما قال، فقال: لَوَدِدْتُ واللّٰه أنه
كان يقاتلهم إلى اليوم قال: فخرجت من قوري ذلك إلى
عليّ بن الحسين، فأخبرته بما قال، فقال: إنه لقليلُ
الإبقاء على أبيه.

قال: وبلغ الخبرُ المختارَ فقال: أَيُضَرَّبُ بين ابني رسول
الله صلى الله عليه وسلم؟ لأقتلته فتواريت ما شاء الله،
ثم لم أشعر إلا وأنا بين يديه، فقال: الحمد لله الذي
أمكّني منكقال فقلت: أنت استمكنت مني؟ أمّا والله
لولا رؤيا رأيتهَا لَمَا قَدَرْتُ عليّ قال: وما رأيت؟ فقلت:

رأيتُ عثمان بن عفان، فقالت: أنت عثمانُ بنُ عفان؟

فقال: أنا حُبَارِي، تركتُ أصحابي حَيَارِي، لا يهود ولا

نصارى.

فقال: يا أهل الكوفة انظروا إلى ما أرى الله عدوكم ثم

خَلَّى سبيلي، وقد رُوِيَ هذا الكلامُ عن شُتَيْرِ بنِ شَكَلٍ،

أنه رأى معاوية في النوم فقال الكلامَ الذي رُوِيَ عن

عثمان.

ووجهُ كلامِ عليِّ بن الحسين الذي رواه عنه سعيدُ النواءُ،

إن كان صادقاً فإنه للذي كان يسمعُ من الغالية، من

الإفراطِ والغلوِّ والفُحْشِ.

فكانه إنما أرادَ كسرهم، وأن يُحْطَهم عن الغلوِّ إلى

القصد؛ فإن دين الله عزَّ وجلَّ بَيْنَ التقصيرِ والغلوِّ، وإلا

فعليُّ بن الحسين أفقهُ في الدين، وأعلمُ بمواضع

الإمامة، من أن يخفى عليه فضلُ ما بين عليِّ بن طلحة

والزُّبير.

شعر ومعرفة في الحبارى وقال الكميت:

الحبارى من بعيد لأزرق مغلول الأظافر
تنفّشت بالخضب

والحبارى طائرٌ حسن، وقد يتخذ في الدور.

وناسٌ كثيرٌ من العرب وقريش يستطيون محسي الحبارى جدًّا.

قال: والحبارى من أشد الطير طيراناً، وأبعدها مسقطاً وأطولها شوطاً، وأقلها عُرجةً، وذلك أنها تُصطاد بظهر البصرة عندنا، فيشقق عن حواصلها، فيوجد فيه الحبة الخضراء عَصَّةً، لم تتغير ولم تفسد.

وأشجار البطم وهي الحبة الخضراء بعيدة المنابت منّا وهي غلوية أو ثعربية، أو جبليّة، فقال الشاعر:

ترتعي الصّرو من براقش
هَيْلاً يانعاً من العُثم

شجر الزيتون، والصّرو شجر البطم، وهي الحبة الخضراء بالجبال شجرتها.

وقال الكوّدن العجّليّ، ويروى العُكليّ: البطم لا يعرفه أهل الجلس، وبلاد نجد هي الجلس، وهو ما ارتفع، والغور هو ما انخفض.

وبراقش: واد باليمن، كان لقوم عاد، وبراقش: كلبه كانت تتشاءم بها العرب، وقال حمزة بن بيض:

جناها أحم عليّ كريمو على أهلها براقش تجني

القول في الضأن والمعز

قال صاحب الضأن: قال الله تبارك وتعالى: "ثمانية

أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين"، فقدّم ذكر

الضأن.

وقال عز وجل: "وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ"، وقد أجمعوا على أنه كبش، ولا شيء أعظم مما عظم الله عز وجل، ومن شيء فدي به نبي.

وقال تعالى: "إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ" ولم يقل إن هذا أخي له تسع وتسعون عنزاً ولي عنز واحد؛ لأن الناس يقولون: كيف النعجة؟ يريدون الزوجة.

وتسمى المها من بقر الوحش نعاجاً ولم تسم بعنوز، وجعله الله عز وجل السنة في الأضاحي، والكبش للعقيقة وهدية العرس وجعل الجدع من الضأن كالثني من المعز في الأصحية.

وهذا ما فصل الله به الضأن في الكتاب والسنة.

فضل الضأن على المعز

تولّد الضأن مرة في السنّة، وتُفرد ولا تُتئم، والماعزة قد تولّد مرتين، وقد تضعُ الثلاثَ وأكثرَ وأقلّ.

والبركة والنماء والعدو في الضأن، والخنزيرة كثيرة الخنايص، يقال إنها تلد عشرين خنوصاً، ولا نماء فيها. قال: وفضل الضأن على المعز أن الصوف أغلى وأثمن وأكثرُ قدرًا من الشعر، والمثلُ السائر: إنما فلانُ كبشٌ من الكباش، وإذا هجوه قالوا: إنما هو تيسٌ من التيوس إذا أرادوا النتن أيضاً، فإذا أرادوا الغاية في الغباة قالوا: ما هو إلا تيسٌ في سفينة.

والحُمْلانُ يلعبُ بها الصبيان، والجداؤُ لا يلعبُ بها، ولبنُ الضأن أطيبُ وأخنرُ وأدسم، وزُبدُه أكثر، ورؤوس الضأن المشويّة هي الطيبة المفضلة، ورؤوس المعز ليس عندها طائل.

ويقال رؤوس الحُمْلان، ولا يقال رؤوس العرضان.

ويقال لِلُّوطِيّ الذي يلعب بالحُدّر من أولاد الناس: هو

يأكل رؤوس الحُمْلان؛ لمكان ألية الحَمَل، ولأنه أُحْدَل
وأرطب، ولم يقولوا في الكناية والتعريض: هو يأكل
رؤوس العِرْضان.

والشَّوَاءُ المنعوثُ شِوَاءُ الضَّانِ، وشحمُه يصير كُلُّه إِهَالَةً
أَوَّلُه وآخِرُهُ، والمَعَزُ يبقى شحمُه على حاله، وكذلك لحمه،
ولذلك صار الخَبَّازون الحُدَّاقُ قد تركوا الضَّانَ؛ لأنَّ المَعَزَ
يبقى شحمه ولحمه، فيصلح لأن يسخَّنَ مراتٍ، فيكون
أربَحَ لأصحاب العُرسِ.

والكباشُ للهدايا وللنطاح، فتلك فضيلةٌ في النجدة وفي
الثقافة، ومن الملوك من يُرَاهِنُ عليها، ويضع السَّبَقَ
عليها، كما يراهن على الخيل.

والكبشُ الكراز يحمل الراعيَ وأداةَ الراعي، وهو له
كالحمار في الوقير، ويعيش الكَرَّازُ عشرين سنةً.
وإذا شَبِقَ الراعي وَاغْتَلَمَ اختارَ النعجة على العنز، وإذا
نعتوا شكلاً من أشكال مشي البراذين الفُرَّه قالوا: هو

يمشي مشي النَّعَاجِ.

وقال الله عز وجل: "وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا"
فقدّم الصُّوفِ.

والْبُحْتُ هي ضأن الإبل، منها الجمّازات، والجواميس هي
ضأن البقر، يقال للجاموس الفارسية: كاوماش.
ولا يُذكر الماعزُ بفضيلةٍ إلا ارتفاعَ ثمن جلدِه، وعَزَارَةٌ
لبنُه، فإذا صرّت إلى عدَدِ كثرة النَّعَاجِ وجلودِ النعاجِ
والضأن كلُّها أَرْبَى ذلك على ما يفصلُ به الماعزُ الضأن
في ثمنِ الجلدِ، والعَزْرُ في اللبنِ.

قول ابنة الخس ودغفل في المعز

وقيل لابنة الخُسِّ: ما تقولين في مائة من الماعز؟
قالت: قَتَى! قيل: فمائة من الضأن؟ قالت: غَتَى، قيل:
فمائة من الإبل؟ قالت: مُتَى! وسئل دَغْفَلُ بن حنظلة عن

بني مخزوم، فقال: مِعْرَى مَطِيرَة، عليها فُشَعْرِيرَة، إلا بني المغيرة؛ فإن فيهم تشادق الكلام، ومصاهرة الكرام.

ما قيل من الأمثال في العنز

وتقول العرب: لهو أصرُّ من عَنزٍ جَرَباء وتقول العرب: العنز تُبْهي ولا تُبْني لأن العنز تصعد على ظهور الأحيية فتقطعها بأظلافها، والنعجة لا تفعل ذلك. هذا، وبيوت الأعراب إنما تُعمَلُ من الصوف والوبر، فليس للماعز فيها معونة، وهي تخزقها، وقال الأول:

نزل الغيث لأبْنين امكَّنت له قَبَّةً سَحَقَ بجاد
أبناهُ: إذا جعل له بناء، وأبنية العرب: خيامهم؛ ولذلك

يقولون: بني فلان على امرأته البارحة،

ضرر لحم الماعز

وقال لي شموون الطيب: يا أبا عثمان، إياك ولحم الماعز؛ فإنه يورث الهَمَّ، ويحرِّك السُّوداء، ويورث النَّسيان، ويُفسدُ الدَّم وهو والله يخبِّلُ الأولاد. وقال الكلابيُّ: العُنوق بعد النَّوق، ولم يقل: الحمل بعد الحمل. وقال عمرو ابن العاص للشيخ الجُهنيِّ المعترض عليه في شأن الحكمين: وما أنت والكلام يا تيس جُهينة؟ ولم يقل يا كبش جُهينة؛ لأن الكبش مدخ والتيس ذم. وأما قوله: إن الظلف لا يرى مع الحُفِّ فالبقر والجواميس والضأن والمعز في ذلك سواء. قال: وأُتِيَ عبدُ الملكِ بن مَرْوان في دخوله الكوفة على موائد الجِداء، فقال: فأين أنتم عن

العماريس؟ فليل له: عماريس الشام أطيب.

وفي المثل: لهو أدلُّ من النقد، النقد هو المعز، وقال الكذاب الجرماني:

كنتم قولاً لكنتم فنداً كنتم ماءً لكنتم زبداً
كنتم شأءً لكنتم نقداً كنتم عوداً لكنتم عُقداً

اشتقاق الأسماء من الكبش

قال: والمرأة تسمى كَبْشَةً، وكَبِيشَةٌ، والرجل يكنى أبا كَبْشَةٍ، وقال أبو فُرْدودة:

كبيشة إذ حاولت أن تهب
يستبقُ الدمعُ مني
اشتقاقاً
وقامتُ تريكَ غداة كَشْحاً لطيفاً وفخذاً
الفراقِ وساقاً
ومنسدلاً كمتاني توسعه زُبْقاً أو
الحبا
وأول هذه القصيدة:

كبيشة عِزْسي تريدُ الصَّلَاةَ أَلْني بَعْدَ وَهْنِ فِرَاقِ

قول القصاص في تفضيل الكبش على التيس

وقال بعض القصاص: ومما فضل الله عز وجل به الكبش أن جعله مستور العورة من قُبُل ومن دُبُر، ومما أهان الله تعالى به التيس أن جعله مهتوك الستر، مكشوف القُبُل والدُّبُر.

التيس في الهجاء

وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

سألت قريشاً كلها عامر شاهت وجوه
فشراؤها الأعايد
جلسوا وسط الندي تجاوب عتدان الربيع
تجاوبوا السوافد

وقال آخر:

أعثمان بن حيان بن آدم في مفارقه يبول
أني أشاء قد أرفأنتعامته ويعلم ما أقول

وقال الشاعر:

سُميت زيدا كي تزيد فلم لك المسمي فسماك
بالقخر
القخر إلا التيس يعتك ويمني في اللبان
التخر

نتن التيوس

فالتيس كالكلب؛ لأنه يقزح ببوله، فيريدُ به حاقَّ
حيشومه، وبول التيس من أخطر البولِ وأنتنه، وريحُ أبدانِ
التيوس إليها ينتهي المثل، ولو كان هذا العرضُ في
الكبش لكان أعذر له؛ لأن الخموم واللخن، والعفن
والنتن، لو عرض لجلدِ ذي الصوفِ المتراكم، الصفيق

الدقيق، والملفَّ المستكثف؛ لأن الرِّيح لا تتخلَّله،
والنسيم لا يتخرَّقه - لكان ذلك أشبه.

فقد عَلِمْنَا الآن أن للئيسِ مع تخلخل شعره، وبروز جلده
وجفوف عرقه، وتقطع بخارِ بدنه - فضلاً ليس لشيء
سواه، والكلبُ يُوصَفُ بالتَّنُّن إذا بلَّه المطر، والحَيَّات
توصَفُ بالتَّنُّن، ولعل ذلك أن يجده من وَضع أنفه على
جلودها.

وبولُ الئيسِ يخالط حَيْشومَه، وليس لشيء من الحيوان
ما يشبُه هذا، إلا ما ذكرنا من الكلب، على أن صاحب
الكلب قد أنكرَ هذا.

وجلود الئيس، وجلود آباط الرُّج، مُنْتِنَة العرق، وسائر
ذلك سليم، والئيس إبطُ كله، وتثنه في الشتاء كثنه في
الصيف، وإنا لندخل السكَّة وفي أقصاها تيبَّاس، فنجدُ نثنها
من أدناها، حتى لا يكاد أحدنا يقطعُ تلك السكة إلا وهو
مخمَّرُ الأنف، إلا ما كان مما طبعَ الله عزَّ وجلَّ عليه البلويُّ

وعلياً الأسواري؛ فإن بعضهما صادق بعضاً على استطابة
ريح التيوس، وكان ربما جلسا على باب التّياس؛
ليستنشقا تلك الرائحة، فإذا مرَّ بهما من يعرفهما وأنكر
مكانهما، ادّعى أنهما ينتظران بعض من يخرج إليهما من
بعض تلك الدُّور.

المكّي وجاريتته فأما المكّي فإنه تعشّق جاريةً يقال لها
سنْدرة، ثم تزوجها نهاريةً وقد دعاني إلى منزلها غير مرّة،
وحبّرتني أنها كانت ذات صنّان، وأنه كان معجّباً بذلك منها،
وأنها كانت تعالجه بالمرتك، وأنه نهاها مراراً حتى غضب
عليها في ذلك، قال: فلما عرّفت شهوتي كانت إذا
سألّني حاجة ولم أقضها قالت: والله لأتمرّتكّن، ثم والله
لأتمرّتكّن، ثمّ والله لأتمرّتكّن فلا أجِدُ بُدّاً من أن أقضي
حاجتها كائناً ما كان.

اشتاء ريح الكرياس وحذّثني مويّس بن عمران، وكان هو
والكذب لا يأخذان في طريق، ولم يكن عليه في الصدق

مؤونة، لإيثاره له حتى كان يستوي عنده ما يضُرُّ وما لا
يضر - قال: كان عندنا رجل يشتهد ربح الكرياس لا
يشفيه دونه شيء، فكان قد أعدَّ مَجُوباً أو سكة حديد في
صورة المبرد، فيأتي الكرايس التي تكون في الأزقة
القليلة المارة، فيخرق الكرياس ولا يبالي، أكان من خرف
أو من خشب، ثم يضع منخرته عليه، حتى يقضي وطره.
قال: فلقى الناس من سَيِّلان كرايسهم شراً حتى عثروا
عليه فما منعهم من حبسه إلا الرحمة له من تلك البليَّة،
مع الذي رأوا من حسن هيئته، فقال لهم: يا هؤلاء، لو
مررتم بي إلى السلطان كان يبلغ من عقابي أكثر مما أبلغ
من نفسي؟ قالوا: لا والله وتركوه.

نتن العنز

قالوا: وهذا شأنُ النَّيسِ، وهو أبو العنز، ولا تلد الحَيَّةُ إلا
حَيَّةً، ولا بد لذلك النَّتنِ عن ميراث في ظاهر أو باطن،
وَأَنْشَدُوا لابنِ أَحْمَرَ:

وَجَدْتُ بَنِي أَعْيَا كَالعَنْزِ تَعْطِفُ رَوْقِيهَا
وَجَامِلِهِمْ فَتَرْتَضِعُ
وهذا عيب لا يكون في النَّعَاجِ.

مثالب العنز

والعنز هي التي ترتضع من خليفها وهي مُحَفَّلَةٌ، حتى تأتي على أقصى لبنها، وهي التي تنزع
الوتد وتقلبُ المِعْلَفَ، وتنتثر ما فيه.
وإذا ارتعتِ الضائنة والماعزة في قصيل، نبت ما تأكله الضائنة، ولا ينبت ما تأكله الماعزة، لأن
الضائنة تقرض بأسنانها وتقطع، والماعزة تقبض عليه فتثيره وتجذبه، وهي في ذلك تأكله،
ويضرب بها المثلُ بالموق في جلبها حَنَقَهَا على نفسها، وقال الفرزدق:

فكَانَتْ كَعَنْزِ السُّوءِ قَامَتْ مُدِيَّةً تَحْتَ التُّرَابِ
بِظِلِّهَا تُثِيرُهَا

تيس بني حمان

وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي فَيَوارِسُ
مِنْقَرِافِي الرَّأْسِ أُمٌّ فِي
الإِسْتِ تُلَقَى الشُّكائِمُ
وَأَلْهَى بَنِي حِمَانَ عَسْبُ المَجْدِ حَتَّى

عَتُودِهِمْ أَحْرَزْتُهُ الْأَكَارِمُ
وذلك أن بني حَمَّان تزعم أن تيسهم قرَع شاةً بعد أن
دُبِح وأنه ألقحها.

أعجوبة الضأن

قالوا: في الضأن أعجوبة؛ وذلك أن النعجة ربما عظمت
أليتها حتى تسقط على الأرض، ويمنعها ذلك من المشي،
فعند الكباش رفق في السِّفاد، وحِدْقٌ لم يُسْمَع بأعجب
منه، وذلك أنه يدنو منها ويقف منها موقفاً يعرفه، ثم
يصلُّ أحدَ جانبي الأليةِ بصدرة، بمقدارٍ من الصلِّ يعرفه،
فيفرج عن حياها المقدار الذي لا يعرفه غيره، ثم يسفدها
في أسرع من اللِّمَح.

فضل الضأن على الماعز

وقالوا: والضأنُ أحملُ للبرد والجَمْد وللرَّيح والمطر.
قالوا: ومن مفاخر الضأن على المعز أن التمثيل الذي

كان عند كسرى والتَّخِيرَ، إنما كان بين النعجة والنخلة،
ولم يكن هناك للعنز ذكر وعلى ذلك الناسُ إلى اليوم.
والموتُ إلى المعزّي أسرع، وأمرّاضها أكثر، وإنما معادِن
الغنم الكثير الذي عليه يعتمدُ الناسُ الجبالُ، والمعز لا
تعيش هناك، وأصوافُ الكِبَاشِ أمتعُ للكِبَاشِ من غِلَظِ
جُلودِ المعز، ولولا أن أجوافَ الماعزِ أبردُ وكذلك كُلاها،
لَمَا احتشَّتْ من الشَّحمِ كما تحتشي.

جمال ذكورة الحيوان وقبح التيوس

وذكورة كلِّ جنسٍ أتمُّ حُسناً من إناثها، وربما لم يكن
للإناث شيءٌ من الحُسنِ، وتكون الذكورةُ في غاية
الحسن؛ كالطواويس والتَّدارج، وإناثها لا تدانيها في
الحُسن، ولها من الحسن مقدارٌ، وربما كُنَّ دونَ الذُّكورةِ،
ولهنَّ من الحسن مقدار، كإناث الدَّراريج والقَبَجِ والدجاج
والحمّام، والوراشين، وأشباه ذلك.

وإذا قال الناس: تيّاس، عُرف معناه واستُقدِرَتْ صناعته،
وإذا قالوا: كَبَّاش، فإنما يعنون بيعَ الكَبَّاشِ واتخاذها
للنُّطاح.

والتيوسُ قبيحةٌ جدًّا، وزاد في قبحها حُسْن الصَّفايا.

التشبيه بالكباش والتفاؤل بها

وإذا وصفوا أعداق النخلِ العظام قالوا: كأَنَّها كِبَاش.
وقال الشاعر:

كِبَاشَ السَّاجِسِيَّةِ الخوافي أو غرايرَ
عُلِّقَتْ
وصَوَّرَ عُبيدُ اللَّهِ بن زياد، في زقاق قصره، أسدًا، وكلبًا،
وكبشًا فقَرَنَهُ مع سَبْعين عظيمي الشأن: وحشيًّا، وأهليًّا؛
تفاؤلاً به.

شعر في ذم العنز

ومما ذُمُّوا فيه العنز دون النعجة قولُ أبي الأسود الدُّؤلي:

ولستُ بمعراضٍ إذا ما يعبِّسُ كالغَضبان حين
لقيته يقول
يسبس كالعنز أطولُورِئمانها يومان ثم يزولُ

رسلها
وقال أبو الأسود أيضاً:

خير ما يتعاطي الرجال
نصيحةُ ذي الرأي للمجتبىها
تَكُ مثلاً التي
بأظلافها مديّةً أو بفيها
استخرجتُ
إليها بها ذابح
تدع يوماً شعوبُ

فظلتُ بأوصالها قدرُ هطشُ الوليدةُ أو تشتويها
وقال مسكين الدارمي:

صَبَّحْتَنِي مِنْ أَنْاسٍ لَتَرَفٍ مَا قَالُوا مَنَحْتُهُمْ
تَعَالَبُ

فكانوا كعنزِ السَّوءِ تَتَّعُونَ تَحْفِرُ بِالْأُظْلَافِ عَنْ حَتْفِهَا
لَحَيْنِهَا
وقال الفرزدق:

يُجِيرُ النَّاسَ مِنْ فَأُصْبِحُ يَبْغِي نَفْسَهُ مِنْ
سَيْفِ مَالِكٍ يُجِيرُهَا
كعنزِ السُّوءِ قَامَتْ مُدِيَةٌ تَحْتَ التَّرَابِ
بِظَلْفِهَا تَشِيرُهَا
أمنية أبي شعيب القلال وقال رمضانُ لأبي شعيبِ القلالِ

- وأبو الهذيل حاضر - : أيّ شيء تشتهي؟ وذلك نصفُ

النهار، وفي يومٍ من صيفِ البصرة، قال أبو شعيب:

أشتهي أن أجيءَ إلى بابِ صاحبِ سَقَطِ، وله على باب

حانوته أليّة معلقة، من تلك المبرّرة المشرّجة، وقد
اصفرت، وودكها يقطر من حاقّ السّمّن، فأخذ بحصنها ثم
أفتح لها فمي، فلا أزال كدماً كدماً، ونهشاً نهشاً، وودكها
يسيلُ على شِدْقِي، حتى أبلغَ عَجَبَ الدُّنْبِ قال أبو
الهديل: ويلك قتلتنى قتلتنى يعني من الشهوة.

باب في الماعز

قال صاحب الماعز: في أسماء الماعز وصفاتها، ومنافعها وأعمالها، دليلٌ على فضلها، فمن
ذلك أن الصفة أحسن من النعجة، وفي اسمها دليل على تفضيلها، ولينها أكثر أضعافاً،
وأولادها أكثر أضعافاً، وُرْبُها أكثر وأطيب.
وزعم أبو عبد الله العتبيّ أن التيس المشرطيّ قرع في يومٍ واحدٍ نيفاً وثمانين قرعةً، وكان
قاطع الشهادة، وقد بيع من نسل المشرطيّ وغيره الجديّ بثمانين درهماً، والشاة بنحو من
ذلك، وتحلب خمسة مكايك وأكثر، وربما بيع الجلد جلد الماعز فيشتره الباضوركي بثمانين
درهماً وأكثر.
والشاة إذا كانت كذلك فلها علةٌ نافعة تقوم بأهل البيت.
والنعال البقرية من السبب وغير السبب مقسومٌ نفعها بين الماعز والبقر، لأن للشُرْك من
جلودها خطراً، وكذلك القبال والسُّسْع.
ووصف حميد بن ثور جلدًا من جلودها، فقال:

أعوامٌ علينا أطبّنها وأقبلَ عامٌ أصلح الناسَ

وجاءتْ بذِي أوتين مازال حتى قيل هل مات

وقال راشد بن سَهَابُ:

رائداتِ الخيلِ حولكمِغزَى الحجازِ أَعْوَزَتْها
بيوتنا الزَّرائِبُ

لحم الماعز والضأن

ومن منافعها الإنتفاعُ بشحم الثَّربِ والكلية، وهما فوق شحم الألية، وإذا مدحوا اللحمَ قالوا:
لحم الماعزِ الحَصِيِّ النَّيِّ وقال الشاعر:

القومُ عُشُّوا لَحْمَ ضَأْنٍ
تَعِجُونَ قَد مَالَتْ طُلَاهُمُ
والمَمْرورون الذين يصرِّعون، إذا أكلوا لحم الضأن اشتدَّ
ما بهم، حتى يصرِّعهم ذلك في غيرِ أوان الصَّرْعِ.
وأوان الصَّرْعِ الأهلَةُ وأنصاف الشهور، وهذان الوقتان هما
وقتُ مَدِّ البحرِ وزيادة الماء، ولزيادة القمرِ إلى أن يصيرَ
بدرًا أثرُ بَيْنِ في زيادة الدِّماء والأدمغة، وزيادة جميع
الرطوبات.

أمثال في المعز والضأن

ويقال: فلانُ ماعزٌ من الرِّجال، وفلانٌ أَمْعَزُ مِنْ فلان، والعِتاقُ مَعَزُ الحَيْلِ، والبراذين ضأنها،
وإذا وصفوا الرِّجُلَ بالضعف والموق قالوا: ماهو إلا نَعْجَةٌ من النعاج، ويقولون في التقديم

والتأخير: ما له سَبْدٌ ولا لَبْدٌ.

وقال الشاعر:

نشبي وما جمعْتُ من هَوَيْتُ من سبَدٍ ومن لبِدِ
تقاذفت الهموم بهنزعن من بلِدٍ إلى بلِدِ
روحٌ من حسمت قناعتُ المَطامعِ من غدٍ وغدِ
لم يكنْ لله متهماً يمسِ محتاجاً إلى أحدِ
وهذا شعر رويته على وجه الدهر.

وزعم لي حُسَيْن بن الصُّحَّاح أنه له، وما كان لِيَدَّعِي ما
ليس له.

وقال لي سعدانُ المكفوف: لا يكون: فَنَزَعَنَ من بلدٍ إلى
بلدٍ بل كان ينبغي أن يقول: فنازعن.

?فضل الماعز

وقال: والماعزة قد تُولَد في السنة مرتين، إلا ما ألقى
منها في الدِّيَّاس، ولها في الدِّيَّاس نفعٌ موقعه كبير، وربما
باعوا عندنا بطنَ الماعز بثمنٍ شاةٍ من الضأن.
قال: والأقِط للمعز، وقرونها هي المنتفع بها.
قال: والجديُّ أطيَّب من الحمل وأكرم، وربما قدموا على

المائدةِ الحملِ مقطوعِ الألية من أصلِ الذَّئبِ؛ ليوهْمُوا أنه
جَدِّي. وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه - وعقولُ
الخلفاء فوقَ عقولِ الرّعية، وهم أبْصَرُ بالعيش، استعملوا
ذلك أو تركوه - فقال: أَتُرَوْنَ أَنِي لَا أَعْرِفُ الطَّيِّبَاتِ؟
لبابُ البُرِّ بصغار المعزى.

وملوكونا يُحْمَلُ معهم في أسفارهم البعيدة الصفايا
الحواملُ، المعروفاتُ أزمانِ الحملِ والوضع، ليكون لهم
في كل منزلٍ جِداءٌ مُعَدَّةٌ، وهم يقدرُون على الحُمْلانِ
السُّمانِ بلا مؤونة.

والعناق الحمراء والجِداءُ، هي المثل في المعز والطيِّب،
ويقولون: جِداءُ البَصرة، وجِداءُ كَسْكَر.

وسلخ الماعز على القَصَّابِ أهْوَنُ، والتَّجَّارِ يذكر في
خصال السَّاجِ سَلَسَهُ تحت القَدُومِ والمثَقَّبِ والميشار.

أمارات حمل الشاة

وقيل لأعرابي: بأي شيءٍ تعرفُ حملَ شاتك؟ قال: إذا
تورّم حياها ودجّت شَعْرَتها واستفاضت خاصرتها.
وللداجي يقال: قد كان ذلك وقد دَجَا ثوبُ الإسلام، وكان
ذلك وثوبُ الإسلامِ داجٍ.

المِرْعَزِيُّ وقرابة الماعزة من الناس

قال: وللماعز المِرْعَزِيُّ؛ وليس للضأن إلا الصوف.
والكِسَاءُ كلها صوفٌ ووبر وريشٌ وشعرٌ، وليس الصوف
إلا للضأن، وذوات الوبر كالإبل والثعالب، والخُرَزُ والأرنب،
وكلاب الماء، والسَّمُور، والقَنْك، والقاقم، والسَّنْجَاب،
والدِّبَاب.

والتي لها شعر كالبقرة والجواميس، والماعز، والظباء،
والأُسْد، والنمور، والذئاب، والبُبور، والكلاب، والفهود،
والضباع، والعتاق، والبراذين، والبغال، والحمير، وما أشبه
ذلك.

والإنسان الذي جعله الله تعالى فوق جميع الحيوان في
الجمال والاعتدال، وفي العقل والكرم، ذو شعر.
فالماعزة بقرابتها من الناس بهذا المعنى أفر وأكرم.

الماعز التي لا ترد

وزعم الأصمعيُّ أن لبني عُقَيْلٍ ماعزًا لا ترد؛ فأحسبُ
واديهم أخصبَ واد وأرطبه، أليس هذا من أعجب
العجب؟.

جلود الماعز

ومن جلودها تكون القرب، والرِّفاق، وآلة المشاعل، وكلُّ نتخي وسغن، ووطب، وشكّية
وسقاء، ومزادة، مسطوحه كانت أو مثلثة، ومنها ما يكون الخون، وعكُم السلف، والبطائن
والجرب، ومن الماعزة تكون أنطاع البسط، وجلال الأثقال في الأسفار، وجلال قباب الملوك،
وبقباب الأدم تتفاخر العرب، وللقباب الحمر قالوا: مضر الحمراء، وقال عبيد بن الأبرص:

فاذهبْ إليكَ فإني من بني القباب وأهلِ الجردِ
والنادي

الفخر بالماعز

وقالوا: وفخرتم بكبشة وكبيشة وأبي كبشة، فمِنَّا عنز
اليمامة وعنز وائل، ومنا معز بن مالك، صاحب التوبة
النَّصوح.

وقال صاحبُ الماعز: وطعنتم على الماعزة بحفرها عن
حتفها، فقد قيل ذلك للضأن. من ذلك البكري للغبرية،
وهي قيلة وصار معها إلى النبي فسأله الدهناء، فاعترضت
عنه قيلة، فقال لها البكري: إني وإياك كما قال القائل:
عن حتفها تبحث ضأن بأظلافها؟ فقالت له الغبرية: مهلاً،
فإنك ما علمت: جواداً بذى الرجل، هادياً في الليلة
الظلماء، عفيفاً عن الرفيقة؟؟! فقال: لا زلت مصاحباً
بعد أن أثبتت علي بحضرة الرسول بهذا!

ضرر الضأن ونفع الماعز

وقالوا: والنعجة حرب، واتخاذها خسران، إلا أن تكون في
نعاج سائمة، لأنها لا ترفع رأسها من الأكل. والنعجة آكلٌ

من الكبش، والحجر آكل من الفحل، والرمكة آكل من
البرزون. والنعجة لا يقوم نفعها بمؤنتها. والعنز تمنعُ
الحيَّ الجلاء، فإن العرب تقول: إن العنوق تمنع الحيَّ
الجلاء.

والصفية من العراب أغرر من بختية بعيداً.
ويقال: أحرق من راعي ضأن ثمانين!.

كرم الماعز

وأصناف أجناس الأظلاف وكرامها بالمعز أشبه، لأن الطباء والبقر من ذوات الأذنان والشعر،
وليست من ذوات الألياء والصوف. والشمل، والتعاويد والقلائد، إنما تتخذ للصفايا، ولا تُتخذ
للنجاج، ولا يخاف على ضروعها العين والنفس.
والأشعار التي قيلت فلي الشاء إذا تأملتها وجدت أكثرها في المعز: في صفاياها وفي حوها،
وفي تيوسها وفي عنوقها وجدائها. وقال مخارق ابن شهاب المازني - وكان سيداً كريماً، وكان
شاعراً - فقال يصف تيس غنمه:

وراحت أصيلاً كأن ضروعها
وفيها واتدُ القرن لبلب
رعتات كالشُّنوف شديحٌ ولون كالوذيلة
مذهبٌ وعُزَّةٌ
أحم المقلتين وصلها دان من
وعصمةٌ الظلف مكثب
دوحةٌ من مخلف عطاها كما يعودُرى

الضال أربلت الضال قرهَبُ
رقيق الخدِّ إنْفُصُودَانِ نَعَمَ النجر
نجره وأشعب
الغُرِّ والحوِّ اللواتي الحسن في
كأنها الأعناق جزعُ مثقبُ
طاف فيها الحالِقائلُ في الأعناقِ منها
تقابلت تحلبُ
ضيفها فيها يبوضيفُ ابن قيس جائعُ
بغبطةٍ يتحوبُ
قال: فوفد ابن قيس هذا، على النعمان، فقال له: كيف

المخارقُ فيكم؟ قال: سيد شريف، من رجل يمدح

تيسه، ويهجو ابن عمه! وقال الراجز:

أنعتُ ضاناً أمجرتُ غثائاً

والمجر: أن تشرب فلا تروى. وذلك من مثالبها.

وقال رجل لبعض ولد سليمان بن عبد الملك: "ماتت أمك بغراً، وأبوك بشما!".

وقال أعرابي:

مولى بني تيمٍ، ألسمتنيحتنا كما تؤدى
مؤدياً المنائح
لو أديت صعدةً لبعلياء عندي، ما ابتغى
الربح رابح
شعز داجٍ وجيدُ وخلقُ زخاريٍّ وضرعُ
مقلصُ مجالحُ
أشليتُ في ليلةٍ لأرواقها هطلُ من الماء
رجبيةً سافحُ
لجاءت أمامَ الحالينِ صفاقياً مبدُّ

وضرُّها
مضارُّ
أمها كانت نتیجقرامی بها بیڈ الإكام
واحد
القراوح
أصناف الظلف وأصناف الحافر لیس سبیلُ الظلفی

التشابه سبیلَ أصناف الحافر، والخفة. واسم النعم
یشتمل على الإبل والبقر والغنم. وبعد بعض الظلف من
بعض، كبعده من الحافر والخف؛ لأن الظلف للضأن
والمعز والبقر والجوامیس والظباء والخنزیر وبقر
الوحش، ولیس بین هذه الأجناس تسافد ولا تلاقح، لا
الغنم فی الغنم من الضأن والماعز، ولا الغنم فی سائر
الظلف ولا شیء من سائر تلك الأجناس تسافدُ غیرها أو
تُلاقِحُها. فهي تختلف فی الصوف والشعر، وفي الأنس
والوحشة، وفي عدم التلاقح والتسافد ولیس كذلك
الحافر والخف.

رَجَزٌ فِي الْعَنْزِ

وقال الراجز:

لَهْفِي عَلَى عَنزِينَ لَا
أَنْسَاهُمَا
ظِلَّ حَجَرٍ صُغْرَاهُمَا

وَصَالِحُ مُعْطِرَةٌ كُبْرَاهُمَا

قوله: صالِحُ، يريد انتهاء السنِّ، والمعطرة: الحمراء؛ مأخوذة من العطر، وقوله: كأن ظلَّ حَجَرٍ صُغْرَاهُمَا يريد أنها كانت سوداء، لأن ظلَّ الحَجَرِ يكونُ أسودَ، وكلما كان الساتر أشدَّ اكتنازاً كان الظلُّ أشدَّ سواداً.

قولهم أظل من حجر وتقول العرب: ليس شيءٌ أظلَّ من حَجَرٍ، ولا أدفاً من شَجَرٍ، وليس يكون ظلُّ أبردَ ولا أشدَّ سواداً من ظلِّ جبلٍ، وكلما كان أرفعَ سَمَكاً، وكان مَسْقِطَ الشمس أبعدَ، وكان أكثرَ عرضاً وأشدَّ اكتنازاً، كان أشدَّ لسوادِ ظله. ويزعم المنجِّمون أن الليلَ ظلُّ الأرض، وإنما اشتدَّ جدًّا لأنه ظلُّ كُرَةِ الأرض، وبقدر ما زاد بدنها في العِظَمِ ازدادَ سوادُ ظلِّها.

وقال حميد بن ثور:

شَجَرٍ أَلَمَى الظلالَ رَوَاهِبُ أَحْرَمَنِ الشَّرَابِ
كَأَنَّهَا
عُدُوبُ
والشِّفَّةُ الحَمَاءُ يُقالُ لَهَا لَمِياءُ، يَصِفُونَ بِذَلِكَ اللَّثَّةَ، فَجَعَلَ
ظِلَّ الأشجارِ المَلْتَفَّةِ أَلَمَى.

أقط الماعز

وقال امرؤ القيس بن حُجْر:

عَتَمُ نُسُوقِهَا غِزائِلُنَا قُرُونٌ جَلَّتْهَا العِصِيُّ

فدلَّ بصفة القرون عَلى أنها كانت ماعزة، ثم قال:

فتملاً بيِّنا أقطاً وسَمَوْعَسْبِكَ من عَنَى شِيعُ وريِّ

فدَلَّ عَلَيَّ أَنْ الْأَقْطِ مِنْهَا يَكُونُ.

استطرد لغوي وقال: ويقال لذوات الأظلاف: قد وُلِّدَتِ الشاةُ والبقرة، مضمومة الواو مكسورة اللام مشدودة، يقال هذه شاة تُحَلَبُ قفيزاً، ولا يقال تحلب، والصواب ضم التاء وفتح اللام.

ويقال أيضاً: وضَعْتُ، في موضع وُلِّدَتِ، وهي شاة رُبِّي، من حينٍ تَضَعُ إِلَى خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا - وقال أبو زيد: إلى شهرين - مِنْ غَنَمِ رُبَابٍ، مضمومة الرَّاءِ عَلَيَّ فُعال، كما قالوا: رَجُلٌ وَرُجَالٌ، وظئر وظؤار وهي رُبِّي بِيْنَةِ الرَّبَابِ والرَّبَّةِ بكسر الرَّاءِ، ويقال هي في ربابها، وأنشد:

أُمُّ الْبَوِّ فِي رَبَابِهَا

والرَّبَابُ مصدر، وفي الرُّبَى حديثُ عَمْرٍو: دَعِ الرُّبَى وَالْمَاخِضَ وَالْأَكُولَةَ، وقال أبو زيد: ومثل الرُّبَى من الضأن الرُّغوث، قال طرفة:

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ رَعُوثًا حَوْلَ قُبَّتِنَا تَحُورَ عَمْرٍو

وقالوا: إذا وضعت العنز ما في بطنها قيل سليل ومليط، وقال أبو زيد: هي ساعة تضعه من الضأن والمعز جميعاً، ذكراً كان أو أنثى: سخله، وجمعها سخل وسخال، فلا يزال ذلك اسمه ما رضع اللبن، ثم هي البهمة للذكر والأنثى، وجمعها بهم، وقال الشاعر:

وليس يَزْجُرْكُم ما تُوعِظُ آلِيهِمْ يَزْجُرُهَا الرَّاعِي فَتَنْزَجُرُ

ويروى: يُزَجَّرُ أحياناً، وإذا بَلَغَتْ أربعة أشهرٍ وفُصِلَتْ عن أمهاتها، وأكَلَتْ من البقل واجتَرَّت، فما كان من أولاد المعز فهو جَفْر، والأنثى جَفْرَة، والجمع جِقَار، ومنه حديث عمر رضي الله عنه، حين قضى في الأرنبِ يُصِيبها المحرمُ بجَفْر.

فإذا رَعَى وقويَ وأتى عليه حولٌ فهو عريض، وجمعه عِرْضان، والعنود نحو منه، وجمعه أَعْتِدَة وعِئدان، وقال يونس: جمعه أَعْتِدَة وعدت، وهو في ذلك كَلَّه جَدْي، والأنثى عَناق، وقال الأخطل:

واذْكَرْ عُدَانَةَ عِئْدَانًا مُرْتَبِمَةً الْحَبْلِقُ يُبْنَى حَوْلَهَا

ويقال له إذا تبع أمّه وفطم: تَلَوْ، والأنثى: تَلَوَة؛ لأنه يتلو أمّه.

ويقال للجَدْي: إمْر والأنثى أَمْرَة، وقالوا: هَلَع وهَلَعَة، والبدرية: العَناق أيضاً، والعُطْعُط: الجدِي،

فإذا أتى عليه الحولُ فالذكر تيس والأنثى عَنْر، ثم يكون جَدَعاً في السَّنَة الثانية، والأنثى جَدَعَة، ثم تَبِيّاً في الثالثة، والأنثى تَبِيَّة، ثم يكون رباعياً في الرابعة، والأنثى رباعية، ثم يكون سَدِيساً، والأنثى سَدِيس أيضاً مثل الذكر بغير هاء، ثم يكون صالحاً والأنثى صالعة، والصالغُ بمنزلة البازل من الإبل، والقارح من الخيل، ويقال: قد صَلَغَ يَصْلُغُ صَلُوغاً، والجمع الصُّلُغ، وقال رؤبة:

والحَرْبُ شَهَابٌ الْكَبَاشِ الصُّلُغِ

وليس بعد الصالغ شيء.

وقال الأصمعيّ: الحُلَام والحُلَان من أولاد المعز خاصة، وجاء في الحديث: في الأرنب يصيبها المحرمُ حُلَام، قال ابن أحرر:

تُهْدِي إِلَيْهِ ذِرَاعَ الْبَكْرِ دَكِيّاً وَإِمّاً كَانَ حُلَانًا تَكَرَّمَةً

ويروى: ذراع الجدِي ويروى: دَبِيحا، والذبيح هو الذي أدرك أن يضحّي به، وقال مهلهل بن

ربيعة:

قتيلٍ في كليبٍ حُلَامٍ ينال القتلُ آلُ هَمَامٍ

وقالوا في الضأن كما قالوا في المعز، إلا في مواضع، قال الكسائي: هو خروف، في موضع العريض، والأنثى خروفة، ويقال له حَمَل، والأنثى من الجملان رِخل والجمع رُخال، كما يقال طئر وظؤار وتؤأم وتؤام، والتهمة: الضأن والمعز جميعاً، فلا يزال كذلك حتى يصيف، فإذا أكل واجتُر فهو فريز وفُرارة وفُرفور، وعمزوس، وهذا كله حين يسمُن ويجتر، والجَلام، بكسر الجيم وتعجيم نقطة من تحت الجيم، قال الأعشى:

سَوَاهِمُ جِدْعَانِهَا كَالْجِلْمِ قَرَحَ مِنْهَا الْقِيَادُ النَّسُورَا

يعني الحوافر.

واليعر: الجدي، بإسكان العين، وقال البريق الهذلي: مُقيماً بأملح كما رُبط اليعر والبَدَجُ: من أولاد الضأن خاصة، وقال الراجز:

هَلَكْتُ جَارْتَنَا مِنَ الْهَمَجِ تَجُعُ تَأْكُلُ عَثُوداً أَوْ بَدَجُ

والجمع بَدَجَان.

دعاء أعرابي وقال أعرابي: اللَّهُمَّ مِيتَةً كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ
قالوا: وما مِيتة أبي خارِجَةَ؟ قال: أَكَلُ بَدَجًا، وَشَرِبُ
مِشْعَلًا، وَنَامُ فِي الشَّمْسِ، فَأَتَتْهُ الْمِيتَةُ شَبْعَانَ رِيَانَ
دَفَانَ.

تيس بني حمان وفي المثل: أغلم من تيس بني حمان،
وبنو حمان تزعم أنه فقط سبعين عنزاً وقد فُريت
أوداجه.

فهذا من الكذب الذي يدخل في باب الخرافة.

زعم لصاحب المنطق وقد ذكر أرسطوطاليس في كتاب الحيوان، أنه قد ظهر ثورٌ وثب بعد أن حُصي، فنزا على بقرةٍ فأحلبها.

ولم يحك هذا عن مُعائنةٍ، والصدورُ تضيق بالردِّ على أصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشَّكل.

أحاديث وآثار في الغنم قال: وحدَّثنا سعد بن طريق، عن الأصبع بن ثباتة قال: سمعت علياً يقول: ما أَهْلُ بَيْتِ لَهُمْ شَاةٌ إِلَّا يُقَدَّسُونَ كُلَّ لَيْلَةٍ.

وقال: حدَّثنا عنبسة القطَّان، قال حدَّثنا السكن بن عبد الله بن عبد الأعلى القرشي، عن رجل من الأنصار، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: امْسُحُوا رُعَامَ الشَّاءِ، وَتُقُوا مَرَابِضَهَا مِنَ الشُّوكِ وَالْحِجَارَةِ، فَإِنَّهَا فِي الْجَنَّةِ.

وقال: ما مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ شَاةٌ إِلَّا قُدِّسَ كُلُّ يَوْمٍ مَرَّةً، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ شَاتَانِ قُدِّسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، قال: وحدَّثنا

عنيسة القطان، بهذا الإسناد، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "أوصيكمُ بالشاءِ خيراً، فَنُقُوا مَرابِضَها مِنَ الحِجَارَةِ والشُّوكِ فَإِنَّها فِي الجَنَّةِ".

وعن محمد بن عجلان، عن وهب بن كيسان، عن محمد بن عمرو بن عطاء العامريّ من بني عامر بن لوَيّ، أن رجلاً مرَّ على أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وهو بالعقيق، فقال: أين تريد؟ قال: أريد غُنيمة لي، قال: امسح رُعامها، وأطِبْ مُراحها، وصلِّ في جانبِ مُراحها؛ فإنها من دوابِّ الجنة.

وعن فرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن رجل من أصحاب أبي الدرداء، أنه عمِلَ طعاماً اجتهد فيه، ثم دعاه فأكل، فلما أكل قال: الحمد لله الذي أطعمنا الخميرَ، وألبسنا الحَبيرَ، بعد الأسودين: الماء والتمر، قال: وعند صاحبه ضائنة له، فقال: هذه لك؟ قال: نعم، قال: أطِبْ مُراحها واغسِلْ رُعامها، فإنها من دوابِّ

الجنة، وهي صفوة الله من البهائم.

قال: وحدثنا إبراهيم بن يحيى، عن رجل، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: إن الله عز وجل خلق الجنة بيضاء، وخير الزبي البياض، قال: وبعث إلى الرعيان: من كانت له غنم سود فليخلطها بعفر، فإن دم عفراء أركى من دم سوداوين.

وحدثنا أبو المقدم قال: حدثنا عبد الرحمن بن حبيب، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم دعا بالرعاة فجمعوا له، فقال: "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَزَعَى غَنَمًا سُودًا فَلْيَخْلِطْ فِيهَا بِيضًا".

قال: وجاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني اتخذت غنماً رجوت نسلها ورسلها وإني لا أراها تنمو، قال: فما ألوانها؟ قالت: سود، قال: "عفري"، أي اخلطي فيها بِيضًا.

قال: وحدثنا طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الغنم بركة مؤذنة، والإبل جمال لأهلها، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة"، حنظلة بن أبي سفيان المكي قال: سمعت طاووساً يقول: من هاهنا أطلع الشيطان قرنيه، من مطلع الشمس، والجفاء والكبر في أهل الخيل والإبل، في الفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم.

قال وحدثنا بكر بن حنيس، عن يحيى بن عبيد الله بن عبد الله بن موهب، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأس الكفر قبل المشرق، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم، والإيمان يمان والحكمة يمانية.

وعن عوف بن أبي جميلة، عن الحسن، أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال: "الفخرُ في أهل الخيل،
والجفاءُ في أهل الإبل، والسكينة في أهل الغنم".
وعن عثمان بن مِقْسَمٍ، عن نافع، أن ابنَ عمرَ حدثه أنه
سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: السكينة في
أهل الغنم.

والفَدَّادُ: الجافي الصوتِ والكلامِ، وأنشدنا أبو الرُّدَيْنِيِّ
العكليُّ: جاءت سُلَيْمٌ ولها قَدِيدٌ.

أخبار ونصوص في الغنم وكان من الأنبياء عليهم السلام
مَنْ رعى الغنم، ولم يَرعَ أحدٌ منهم الإبل، وكان منهم
شعيب، وداود، وموسى، ومحمد؛ عليهم السلام، قال
الله جلَّ وعزَّ: "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، قال هِيَ
عَصَايَ أَتَوَكَّأْتُ عَلَيْهَا وَأُشْفُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ
أُخْرَى".

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرعى غَنِمَاتٍ خَدِيجَةً.
والمُعزَّبون بنزولهم البُعدَ من الناسِ، في طباع الوحش.

وجاء في الحديث: من بَدَا جَفَا.

ورِعَاءُ الغنم وأربابها أرقُّ قلوباً، وأبعد من الفظاظة
والغلظة.

وراعى الغنم إنما يرعاها بقرب الناس، ولا يُعزِبُ، ولا
يبدو، ولا ينتجع، قالوا: والغنم في النوم عُنْمٌ.

وقالوا في الغنم: إذا أقبَلْتُ أقبَلْتُ، وإذا أدبرت أقبَلت.
الحامي والسائبة والوصيلة وكان لأصحاب الإبل مما
يحرّمونه على أنفسه: الحامي والسائبة، ولأصحاب
الشاءِ الوصيلة.

العتيرة والرجيبة والغذوى والعتيرة أيضاً من الشاءِ،
وكان أحدهم إذا نذر أن يذبح من العتائر والرجيبة كذا
وكذا شاة، فبلغ الذي كان يتمنى في نذره، وشخَّ على
الشاءِ قال: والظباءُ أيضاً شاء، وهي تُجزي إذا كانت
شاء: فيجعل عتائره من صيدِ الظباء، وقال الحارث بن
جَلَّة:

باطلاً وظلماً كما يُعْبَعُ عن حَجْرَةِ الرَّبِيعِ
الطَّبَاءُ

وقال الطَّرِمَّاحُ:

كَلَوْنِ الْغَرِيِّ الْفَرْدِ أَجْسَدَانِ مُظْلَمِ الْهَدْيِ
رَأْسَهُ الْمَذْبَحِ

ومنها الْعَدَوِيُّ وَالْعَدَوِيُّ جَمِيعاً، وقال الفرزدق:

ومهورٌ نِسْوَتِهِمْ إِذَا مَا
عَدَوِيٌّ كُلُّ هَبْنَقٍ تَنْبَالِ
أَنْكَحُوا

ميل الحيوان على شقه الأيسر وقال أبو عتَّاب: ليس في الأرض شاة ولا بعير ولا أسد ولا
كلب يريد الثُّبُوض إلا مال على شقه الأيسر، إبقاءً على ناحية كبده.

قال: ومتى تفقدتم الصفايا التي في البيوت، والنعاخ، والجداء، والحُمْلَانِ وجدتموها كذلك.
معالجة العقاب الفريسة قال: والعقاب تستعمل كفها اليمنى إذا أضعَدَتْ بالأرانب والثعالب
في الهواء، وإذا ضربت بمخالها في بطون الطَّبَاءِ والذئاب، فإذا اشتكت كبدها أحسَّتْ بذلك،
فلا تزال إذا اصطادت شيئاً تأكل من كبده، حتى تبرأ، وإن لم تُعَين فريسة فربما جَلَّتْ على
الحمار الوحشي فتنقصُ عليه انقضاصَ الصخرة، فتقْدُّ بدابرتها ما بين عَجَبِ ذنبه إلى منسِجِه،
وقد ذكرنا من شأنها في باب القول فيها ما فيه كفاية.

أخذ الحيوان على يساره حين يهرب قال: وليس في الأرض هارِبٌ من حَرْبٍ أو غيرها استعمل
الحُضْرَ إلا أَحَدَ على يساره، إذا ترك عَزْمَهُ وَسَوْمَ طبيعته، وأنشد:

تخامصَ عن وحشيِّه وهو الجوف نازٍ ليس يخبو
ذاهلٌ صِرامُها

وأنشد الأصمعي للأعشى:

ويسرَّ سَهْمًا ذَا غِرَارِ الْقُوَى فِي ضَالَةٍ
يسوقُهُ المِترَمِ
نَضِيَّ السَّهْمِ تَحْتِوَجَالَ عَلَى وَحْشِيَّهِ لَمْ
لبانِه يَعْتَمِ

قال: ووضع: على موضع: عن.

ميل شقشقة الجمل ولسان الثور وفي بابٍ آخر يقول أوسُ بن حَجْر:

سَرَّكُم فِي جُمَادَى أَنْ الشَّقَاشِقَ مَعْدُولٌ بِهَا
نصالحكم الحنك

وذلك أنه ليس في الأرض جملٌ هاج وأخرج شِفْشِقَتَهُ إلا عدَلَّ بها إلى أحدِ شِقِّي حنكه،
والثورُ إذا عدا عدل بلسانه عن شِقِّ شماله إلى يمينه، وقال عَبْدَةُ بن الطيب:

مُسْتَقْبِلَ الرِّيحِ يَهْفُو وَهَلِيسَانَهُ عَنِ شِمَالِ الشُّدْقِ
مُبْتَرِكٌ مَعْدُولٌ

حال الثور عند الكر والفر قال: وإذا كَرَّ الكلبُ أو الثور فهو يَصْتَعُّ خلاف صَنِيعِهِ عند الفرِّ،
وقال الأعشى:

أضياء الصبحُ قام وحن انطلاقُ الشاةِ من
مبادراً يميما
فصبحةُ عندَ الشرووقِ كلابُ الفتى البكري عوف
غدية أرقما
فأطلقَ عن جنوبِها هيجَ السامي المعسلُ
فاتبعته خسرَما
فأنحى على شؤمي يدياً ظمًا من فرع الذؤابةِ
فدادها أسحما

ثم قال:

وَأَدَبَرِ كَالشُّعْرَى وَصُوحِيَّوَا عِسُّ مِنْ حُرِّ الصَّرِيمَةِ
وُنُقْبَةَ مُعْظَمًا
علة غزو العرب أعداءهم من شق اليمين قال: ولعلمِ

العرب بأن طبع الإنسان داعيةٌ إلى الهرب من شِقِّ
الشمال، يحبُّون أن يأتوا أعداءهم من شِقِّ اليمين، قال:
ولذلك قال شُتَيْم بن حُوَيْلِد:

فَجَنَّاهُمْ مِنْ أَيْمَنِ السُّوَيْقِي السَّقِيَّ الحَيْنِ مِنْ

عُدْوَةٌ

لا يدري

وأما رواية أصحابنا فهي: فجئناهم من أيمن الشق عندهم.

الأعسر من الناس واليسر وإذا كان أكثر عمل الرجل بيساره كان أعسر، فإذا استوى عملاً بهما قيل أعسر يسر، فإذا كان أعسر مُصَمَّتاً فليس بمستوى الخلق، وهو عندهم إذا كان كذلك فليس بميمون الخلق، وبشتقون من اليد العُسرَى والعُسرة، فلما سمَّوها السُّمَالِ أَجْرُوهَا فِي الشُّومِ وَفِي المَشُومِ عَلَى ذَلِكَ المعنى، وسموها اليد اليسارَ واليد اليسرى عَلَى تَفِي العُسرِ والنكد، كما قالوا: سليم، ومفازة، ثم أفصحوا بها في موضع فقالوا اليد الشُّومَى.

مما قيل من الشعر في الشمال ومما قالوا في الشمال قولُ أبي دُؤيب:

بِالصَّرَمِ مِنْ أَسْمَاءِ جَدِّ بَيْنَا يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ
الَّذِي رَكَبُهَا
زَجَرَتْ لَهَا طَيْرَ الشَّمَالِ هَوَاكَ الَّذِي تَهْوَى يُصَبِّكَ
يَكُنْ أَجْتَنَابُهَا

وقال شُتَيْمُ بْنُ خُوَيْلِدٍ:

وَقُلْتُ لِسَيِّدِنَا يَا حَلِيمَ لَمْ تَأْسُ أَسْوَأَ رَفِيقًا
زَجَرْتَ بِهَا لَيْلَةً كُلَّهَا فَجِئْتَ بِهَا مُؤِيدًا خَنْفَقِيمَا
أَعْنَتْ عَدِيًّا عَلَى شَأْوِهْطَادِي فَرِيقًا وَتَبَقِي فَرِيقًا
أَطَعْتَ عُرَيْبَ إِبْطَ الشَّمَالِ نَجِّي لِحِدِ المَوَاسِي
الْحُلُوقَا

وقال آخر:

وَهَوَّانَ وَجَدِي أَنِّي لَمْ أَكْرِزَابَ شِمَالِ يَنْفِضُ الرِّيشَ
لَهُمْ حَاتِمَا

وإذا مال شَيْعَةٌ قالوا: أَحَوْلَ شَيْعُهُ، وقال الأَشْترُ بْنُ عُمَارَةَ:

عَشِيَّةً يَدْعُو مِعْتَرُّ يَالَ أَحُوكُمْ أَحُوكُمْ أَحَوْلَ الشَّقِّ
جَعْفَرٍ

وقال آخر:

أخ كان لي وكنْتُ أشفق من والدِ على ولدِ
إذا قاربَ الحوادِ تُطوي وحلَّ الزمانُ من
عُقدي

احولَّ عني وكان ينظر عيني ويرمي بساعدي
ويدي

الوقت الجيد في الحمل على الشاء قال الأصمعي:

الوقت الجيد في الحمل على الشاء أن تخلَّى سبعة
أشهرٍ بعد ولادها، ويكون حملها خمسة أشهر، فتولد في
كل سنة مرة، فإن حُمِلَ عليها في كل سنة مرتين فذلك
الإمغال، يقال: أمغل بنو فلان فهم مُمغلون، والشاءُ
ممغل.

وإذا وُلِّدت الشاءُ ومضى لها أربعة أشهر فهي لجة،
والجميع اللجاب واللجبات، وذلك حين يأخذ لبنها في
النقصان.

استطراد لغوي قال: والأير من البعير: المقلَم، ومن

الحافر الجردان، ومن الظلف كله: القضيب، ومن

الفرس العتيق: النَّصي، زعم ذلك أبو عبيدة.

وما أراد من الحافر الفحلَ فهو الوداق، وهو من الإبل
الصَّبَعَة، ومن الضأن الحُنُو، ويقال: حنَّت تحنو حُنُوًّا، وهي
نعجة حانٍ كما ترى، وما كان من المعز فهو الحِرْمَة،
ويقال: عنز حَرَمَى، وأنكر بعضهم قولهم: شاءُ صارف
وزعم أنه مولد.

قال: وهو من السباع الإجمال، يقال: كلبه مُجِعِل، فإذا
عظم بطنها قيل أَجَحَّتْ فهي مُجِحٌّ.

وما كان من الخف فهو مِسْقَر، وما كان من الغنم فهو
مِرْمَة، وما كان من الحافر فهو جَحْفَلَةٌ.

وإذا قلت لكلِّ ذات حملٍ وضعتُ، جاز، فإذا ميرت قلت
للخف: تُتَجَّتْ، وللظلف: وُلِّدَتْ، والبقره تجري هذا
المجرى، وقلت للحافر: تَتَجَّتْ.

ويقال للحافر من بين هذا كله إذا كان في بطنها ولد:
تَتُوج، وإذا عظم بطن الحافر قيل قد أعقَّتْ فهي عَقُوق،
والجماعُ عُقُوقٌ، وبعضهم يقول: عقائق.

ويقال للبقرة الوحشية نعجة، والبقرة تجري مجرى
الضائنة في حالها.

وما كان من الخف فصوته بُغام، فإذا ضَجَّتْ فهو الرُّغاء،
فإذا طَرَّبَتْ في إثر ولدها قبل حَنَّتْ، فإذا مدت الحنين
قيل سَجَرَتْ.

قال: والإلماغُ في السباع وفي الخيل، دون البهائم، وهو
أن تشرق ضروعها.

قال: والخروف في الخيل والضأن، دون البهائم كلها.

قال: ويقال للطير: قد قمطها يقمطها، ويقال للئيس

والكلب: قد سَفِدَ يُسَفِدُ سِفَاداً، ويقال في الخيل: كامها

يَكُومُهَا كَوْمًا، وكذلك في الحافر كَلَّه، وفي في الحمار

وحده: باكها يَبُوكُهَا بَوْكًا.

قولهم: ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ وتقول العرب: ما له عندي

سَبَدٌ ولا لَبَدٌ، فَقَدِّمُوا السَّبَدَ، ففي هذا المعنى أنهم قدموا

السَّعْرَ على الصوف.

فإن قال قائل: فقد قدّموا في مواضع كثيرة ذكر ما هو
أَحْسُّ فقالوا: ما له عندي قليل ولا كثير، والَعِيرُ والنَّفِيرُ
حتى قالوا: الخَلُّ والزيت، وقالوا: ربيعة ومُصَر، وسُلَيْم
وعامر، والأوس والخزرج، وقال الله: "لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا".

والذي يدلُّ على أن ذلك الذي قلنا كما قلنا قولُ الراعي:

إذا هَبَطَ الغِيطَانِ سلاسل رَمَلٍ بينها
وانقطعت عُقْدُ
أَطِيلِسَ مَشَاءً الأوابد ما يَنُمِي له
بأَكْلِيبِهِ سَبَدُ
فَقَدَّمَ السَّبَدَ، ثم قال:

يُشَلِي سَلُوقِيَّةَ زُلَّاءٍ اليعاسيب في أصلابها
جَوَاعِرُهَا وقال الراعي:

الفقيرُ الذي كانت العِيَالِ فلم يُتْرِكْ له
حَلُوبُهُ وهو لو قال: لم يُتْرِكْ له لَبَدٌ، ولو قال: ما ينمي له لَبَدٌ
لقام الوزنُ، ولكان له معنى، فدَلَّ ذلك على أنه إنما أراد
تقديم المقدم.

مفاخرة بين صاحب الضأن وصاحب الماعز

قال صاحب الضأن: فَخَرْتُمْ عَلَى الضَّأْنِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ ذُو شَعْرٍ، وَأَنَّهُ بِالْمَاعِزِ أَشْبَهُ، فَالْإِنْسَانُ ذُو أُلْيَةٍ، وَلَيْسَ بِذِي ذَنْبٍ، فَهُوَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ بِالضَّأْنِ أَشْبَهُ.

قال صاحبُ الماعز: كما فخرتم بقوله: "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الصَّأْنِ اثْنَيْنِ" وقلتم: فقد قدّمها، فقال الله: "يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ".

فإن وجب لضانك التقديم على الماعز بتقديم هذه الآية وجب للجنّ التقديم بتلك الآية.

في الضفادع

عَلَّمَكَ اللَّهُ عِلْمًا نَافِعًا، وَجَعَلَ لَكَ مِنْ نَفْسِكَ سَامِعًا، وَأَعَاذَكَ مِنَ الْعُجْبِ، وَعَرَّفَكَ لِبَاسِ التَّقْوَى، وَجَعَلَكَ مِنَ الْفَائِزِينَ.

اعلم، رحمك الله تعالى، أن الله جل وعز قد أضاف ست

سُور من كتابه إلى أشكال من أجناس الحيوان الثلاثة،
منها مما يسمونها باسم البهيمة وهي سورة البقرة،
وسورة الأنعام، وسورة الفيل، وثلاثة منها مما يعدون
اثنتين منها من الهمج، وواحدةً من الحشرات.
فلو كان موقعِ ذكر هذه البهائم، وهذه الحشرات والهمج،
من الحكمة والتدبير، موقعها من قلوب الذين لا يعتبرون
ولا يفكرون، ولا يميزون، ولا يحصلون الأمور، ولا يفهمون
الأقدار لما أضاف هذه السور العظامَ الخطيرة، و
الشريفة الجليلة، إلى هذه الأمور المحقَّرة المسخِّفة،
والمغمورة المقهورة.

ولأمر ما وضعها في هذا المكان، ونوّه بأسمائها هذا
التنويه، فافهم، فإن الأديبَ الفهم، لا يعوّد قلبه
الاسترسال، وخذُ نفسك بالفكرة، وقلبك بالعبارة.
وأنا ذاكرٌ من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي،
وهو قليلٌ في جنب ما عند علمائنا، والذي عند علمائنا لا

يَحَسُّ فِي جَنْبِ مَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَالَّذِي عِنْدَ
الْعُلَمَاءِ قَلِيلٌ فِي جَنْبِ مَا عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالَّذِي عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ
قَلِيلٌ فِي جَنْبِ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

من ذلك الصَّفَدِيعُ، لا يَصِيحُ ولا يَمْكَنُه الصياح حتى يدخل
حنكَه الأسفل في الماء، فإذا صار في فمه بعض الماء
صاح، ولذلك لا تسمعُ للضفادعِ نقيقاً إذا كُنَّ خارجاتٍ من
الماء.

والضفادعُ من الحيوان الذي يعيشُ في الماء، ويبيضُ في
الشطِّ، مثل الرِّق والسُّلحفاة، وأشباه ذلك.
والضفادعُ تنقُّ، فإذا أبصرت النار أمسكت.

زعم في الضفادع

والضفادع من الحيوان الذي يُخلق في أرحام الحيوان،
وفي أرحام الأَرْضِين، إذا ألقحتها المياه، لأن اليَحَّ
يخراسان يُكبس في الآزاج، ويحالُ بينه وبين الرِّيح والهواء

والشمس، بأحكمٍ ما يقدرُون عليه وأوثقه، ومتى انخرق
في تلك الخزانة حَزَقٌ في مقدار مَنخِر الثور حتى تدخله
الريح، استحال ذلك اليحُّ كله ضفادع.

ولم نعرف حقَّ هذا وصدقَه من طريق حديث الرجل
والرجلين، بل نجدُ الخبرُ عنه كالإطباق، وكالخبير
المستفيض الذي لا معارضَ له.

أعجوبة في الضفادع

وفيها أعجوبة أخرى: وذلك أنا نجد، من كبارها وصغارها،
الذي لا يحصى في غبِّ المطر، إذا كان المطر ديمة، ثم
نجدُها في المواضع التي ليس بقربها بحرٌ ولا نهرٌ، ولا
حوضٌ، ولا غديزٌ، ولا وادٍ، ولا بئرٌ، ونجدُها في الصَّحاح
الأماليس، وفوق ظهورِ مساجد الجماعة، حتى زعم كثيرٌ
من المتكلفين، ومن أهل الخسارة وممن لا يحتفل بسوء
الحال عند العلماء، ولا يكثرُ للشكِّ - أنها كانت في

السحاب.

ولذلك طمع بعض الكذابين ممن تكُرَّهُ اسمه، فذكر أن
أهل أيدج مُطِرُوا مرةً أكبر شبائيطاً في الأرض، وأسمتها
وأعدبها وأعظمها، وأنهم اشتووا، وملحوا، وقرّسوا، وتزوّد
منه مسافرهم، وإنما تلك الضفادع شيءٌ يخلق في تلك
الحال بمزاوجة الزمان، وتلك المطرة، وتلك الأرض،
وذلك الهواء.

معارف في الضفدع

والضفادعُ من الخلق الذي لا عظامَ له.

ويزعم أصحاب الغرائب أن العلاجمَ منها الذكورة السود.

ويقال: أَرَسِحَ مِنْ ضِفْدِعٍ.

وتزعمُ الأعرابُ أن الضفدعَ كان ذا ذنب، وأن الصَّبَّ سلبه إياه وذلك في خُرَافة من خرافات

الأعراب، ويقول آخرون: إن الضفدع إذا كان صغيراً كان ذا ذنب، فإذا خرجت له يداً أو

رجلان سَقَطَ.

جملة من الأمثال وتقول العرب: لا يكون ذلك حتى يُجمع بين الأزوى والنعام وحتى يُجمع بين

الماء والنار، وحتى يثيب الغراب، وحتى يبيض القار، وحتى تقع السماء على الأرض.

ومن حديث الأمثال: حتى يجيء نسيطاً من مَرُو، وهو لأهل البصرة، وحتى يجيء مضفلة من

طبرستان، وهو لأهل الكوفة.

وقال الله عز وجل: "وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ".

وتقول العرب: لا يكون ذلك حتي يُجمع بين الضب والنون، وحتى يُجمع بين الضفدع والضبّ،
وقال الكميّ:

يؤلّفُ بين ضفدعةٍ وضويّعبُ أن تَبَرَّ بني أبينا
وقال في النون والضبّ:

أنهم جاؤوا بشيءٍ لشيءٍ وبالشكلِ الموافق
مُقاربٍ للشكلِ
ولكنهم جاءوا بحيتانٍ قوامِسَ والمكنيّ فينا أبا
الجسَلِ

معارف في الضفدع

وهو من الخلق الذي لا يصاب له عَظْمٌ، والصفدعُ أَجْحَظُ
الخلقِ عِيناً، والأسد تتنابها في الشرائع، وفي مَنَاقِعِ المِياه،
والآجام والغياضِ، فتأكلها أكلاً شديداً.
وهي من الخلق المائيّ الذي يصبُرُ عن الماء أياماً سالحةً،
والصفادع تعظُمُ ولا تسمَنُ، كالذُّرَّاج والأرنبِ، فإنَّ
سِمنَهما أن يحتملا اللحم.

وفي سواحل فارس ناسٌ يأكلونها.

قول مسيلمة في الضفدع

ولا أدري ما هيَّجَ مسيلمةَ على ذكْرِها، ولمَ ساءَ رأيه فيها،
حيثُ جعلَ بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: يا ضفدَعُ نَقِّ
كَمْ تَنْقِينِ نَصْفُكَ في الماءِ ونصْفُكَ في الطينِ لا الماءِ
تُكَدِّرِينَ، ولا الشاربِ تمنعِينَ.

معيشة الضفادع مع السمك

والضفادعُ من الخلق الذي يعيشُ مع السمك في الماء، وليس كل شيء يعيشُ في الماء فهو
سَمَكٌ، وقد قال الصَّلْتَانُ العَبْدِيُّ، في القضاء الذي قضى بين جرير والفرزدق، و الفصل الذي
بينهما:

يَكُ بَحْرُ الحنْظَلِيِّينَ تستوي حِيتَانُهُ
زاخراً والضفادعُ

طلب الحيات والضفادع

والحيات تأتي مناقع الماء، تطلب الضفادع، والفأر تكون بقرب المياه كثيرة، فلذلك تأتي
الحيات تلك المواضع، ولأن صيدها من أسهل الصيد عليها، وهي تعرف صيدها، ألا تراها تحيدُ
عن ابن عُرْسٍ، وإن رأَتْ جُرْدًا أكبر منه لم تنهيه دون أن تبتلعه؟ وترى الوَرَلَ فتفتر منه،
وترى الوَحْرَةَ فتشدُّ عليها، وترى القُنْفُذَ وإن صغر - فلا تجترئ أن تمرَّ به خاطفة، وترى
الوَبْرَةَ، وهي مثلُ ذلك القنفذ مرتين فتأكلها.
ولطلبها الضفادع بالليل في الشرائع يقول الأخطل:

ضفادعُ في ظلماء ليلٍ عليها صوتها حَيَّةٌ
تجاوبتُ البحرِ

وقد سرق معناه بعضُ الشعراء، فقال وهو يذكر الضفدع، وأنه لا ينقُّ حتى يدخل حتكه الماء:

يُدْخِلُ فِي الْأَشْدَاقِ مَاءً
يَنْصِفُهُ
يَنْقُ وَالنَّقِيقُ يُتْلَفُهُ

شعر في الضفادع

وقال زهير:

وقابلُ يتغنى كلما قدّرت
العراقي يدها قائماً

في جدولٍ تحبُّ الجوّاري ترى في
ضفادعُه
يخرجن من شرباتٍ
ماؤها طحلُ
الجذوع يخفن
والعرقا

وقال أوس بن حجر:

فباكرن جونا للعلاجيم مجالس عرقى لا يحلا
فوقه

جون قال: يريد غديراً كثيراً الماء، قال: وإذا كثر الماء وكثر غمقه اسودّ في العين، والعلاجيم: الضفادع السود؛ وجعلها عرقى، يقول: هي فيما شاءت من الماء، كقولك: فلان في خير غامر من قبل فلان، وجعل لها مجالس حول الماء وفوقه، لأن هذه الأجناس - التي تعيش مع السمك في الماء وليست بسمك - أكثر حالاتهن إذ لم تكن سمكا خالصاً أن تظهر على شطوط المياه، وفي المواضع التي تبيض فيها من الدغل، وذلك كالسرطان والسُّلحفاة، والرّق، والصفدع، وكلب الماء، وأشباه ذلك.

استطراد لغوي ويُقال: نقّ الضفدع ينقُّ نقيقاً، وأنقض ينقضُ إنقاضاً، وقال زُوبه:

دنا منهن إنقاض
النُقُ
الماء والساحلُ
خصخاضُ البتقُ

سمع الصفدع

وقد زعم ناسٌ أن أبا الأحرر الجُماني حيث قال:

تَسْمَعُ الْقِنَقِينَ صَوْتِ الْقِنَقِينَ

إنما أراد الضفدع، قالوا: وكذلك الطرماح حيث يقول:

يَخَافِتْنَ بَعْضَ الْمَضِغِ مَرِيئِصَتِنَ لِلصَّوْتِ انْتِصَاتِ
خَشْيَةِ الرَّدَى الْقِنَاقِينَ

قالوا: لأن الضفدع جيّد السمع إذا ترك النقيق وكان

خارجاً من الماء، وهو في ذلك الوقتٍ أحذر من الغراب

والعصفور والعقّاق، وأسمعُ من فرس، وأسمع من قُراد،

وأسمع من عُقاب، وبكل هذا جاء الشعر.

ذكر ما جاء في الضفادع في الآثار

إبراهيم بن أبي يحيى، عن سعيد بن أبي خالد بن

فارض، عن سعيد بن لمسبب، عن عبد الرحمن بن

عثمان التيمي أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن

قتل الضفدع.

قال: وحدّثنا سعيد عن قتادة قال: سمعتُ زُرارةً يحدثُ

أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: لا تسبُّوا الضفادع فإنَّ

أصواتها تسبيح.

قال: وحدثنا هشامُ صاحبُ الدُّستوائي، عن قتادة عن
زُرارة بن أوفى، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا تقتلوا
الضفادعَ، فإن نقيهنَّ تسبيح، ولا تقتلوا الخفاش، فإنه
إذا خرب بيت المقدس قال: يا ربِّ سلِّطني على البحر
حتى أغرقهم.

وعن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن زُرارة، قال: قال
عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الخفاش، فإنه استأذن البحر
أن يأخذ من مائه فيطفئ بيت المقدس حيث حرَّق، ولا
تقتلوا الضفادع، فإن نقيها تسبيح.

وعن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، وفي إسناد له:
أن طبيباً ذكر الضفدع عن النبي صلى الله عليه وسلم،
ليُجعل في دواء، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن
قتل الضفدع.

ما يوصف بجودة الحراسة وشدة الحذر والعربُ تصف
هذه الأصناف التي ذكرناها بجودة الحراسة، وبشدة

الحدّر، وأعطوا الثعلبَ والدَّبَّ أموراً لا يبلغها كثيرٌ من الناس.

قول صاحب المنطق في الغرائيق وقال صاحبُ المنطق في الغرائيق قولاً عجيباً، فزعم أن الغرائيق من الطيور القواطع، وليست من الأوابد، وأنها إذا أَحَسَّتْ بتغيُّرِ الزمان اعتزمت على الرجوع إلى بلادها وأوكارها، وذكر أنها بعيدةٌ سحيقة، قال: فعند ذلك تتخذ قائداً وحارساً، ثم تنهض معاً، فإذا طارت ترفعت في الجواء جدّاً، كي لا يعرض لها شيء من سباع الطير، أو يبلغها سهمٌ أو بُدُق، وإن عاينتْ غيماً أو مطراً، أو خافتْ مطراً، أو سقطتْ لطلبٍ ما لا بدَّ لها منه من طعام، أو هجم عليها الليل أمسكتْ عن الصياح، وضمتْ إليها أجنحتها، فإذا أرادت النوم أدخل كل واحد منها رأسه تحت جناحه، لأنه يرى أن الجناح أحمَلُ لما يَرِدُ عليه من رأسه، أو بعض ما في رأسه: من العين وغير ذلك، ويعلم أنه ليس بعد

ذهابِ الرأسِ حياة، ثم ينام كل واحد منها وهو قائم على
رجليه، لأنه يظن أنه إن مكَّنهما نام إن كان لا يحب
النوم، أو نام ثقيلًا إن كان يحب أن يكون نومّه غراراً،
فأما قائدها وسائقها وحارسُها، فإنه لا ينامُ إلا وهو
مكشوفُ الرأسِ، وإن نام فإن نومّه يكونُ أقلُّ من
الغشاش، وينظرُ في جميع النواحي، فإن أحسَّ شيئاً
صاحَ بأعلى صوته.

صيد طير الماء وسألتُ بعضَ من اصطادَ في يومٍ واحدٍ
مائة طائر من طير الماء، فقلت له: كيف تصنعون؟
قال: إن هذا الذي تراه ليس من صيدِ يوم واحد، وإن
كلّه صيدَ في ساعة واحدة، قلت له: وكيف ذاك؟ قال:
وذلك أنا نأتي مناقعَ الماء ومواضع الطير، فنأخذ قرعةً
يابسة صحيحة، فنرمي بها في ذلك الماء، فإذا أبصرها
الطير تدنو منه بدفع الرِّيح لها في جهته، مرة أو مرتين
فزع، فإذا كثر ذلك عليه أنس، وإنما ذلك الطير طير

الماء والسَّمَكِ، فهي أبدأً على وجه الماء، فلا تزال الرِّيح
تقرَّبها وتباعدها، وتزداد هي بها أنساً، حتى ربما سَقَطَ
الطائرُ عليها، والقرعة في ذلك إما واقفة في مكان،
وإما ذاهبةً وجائية، فإذا لم نرها تنفرُ منها أخذنا قرعة
أخرى، أو أخذناها بعينها، وقطعنا موضعَ الإبريق منها،
وخرقنا فيها موضعَ عينين، ثم أخذها أخذنا فأدخلَ رأسه
فيها، ثم دخل الماء ومشى فيه إليها مشياً رويداً، فكلما
دنا من طائر قبض على رجليه ثم غمسه في الماء، ودقَّ
جناحه وخَلَّاهُ، فبقي طافياً فوق الماء يسبحُ برجليه، ولا
يطيقُ الطيران، وسائرُ الطير لا ينكر انغماسه، ولا يزال
كذلك حتى يأتِيَ على آخر الطير، فإذا لم يبق منها شيء
رمى بالقرعة عن رأسه، ثم نلقطها ونجمعها ونحملها.
علاج الملسوع قال: ومن جيِّد ما يُعالج به الملسوعُ، أن
يُثَقَّ بطنُ الضفدع، ثم يرقَد به موضع اللسعة، ولسنا
نعني لدغة الحية، وإنما نعني لسعة العقرب.

والضفدع إذا رأى النار أمسك عن النقيق، وإذا رأى
الفجر. والأسد إذا رأت النار أحجمت عن الإقدام، وإذا
اشتد الأصوات.

استطرد لغويّ قال: ويقال للضفدع: نقّ ينقّ، وهدر
يهدر، وقال الراعي:

فأوردُهَنَّ قبيلَ الصباح صَفادُعُها تَهْدِرُ

قول صاحب المنطق في الضفادع والسمك

وأما قولُ صاحبِ المنطق في أن الضفادع لا تنقّ حتى
تُدخَلَ فكها الأسفل في الماء، لزن الصوت لا يجيئها حتى
يكون في فكها ماء فقد قال ذلك، وقد وافقه عليه ناسٌ
من العلماء، وادعوا في ذلك العيان.
فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعام إلا ببعض
الماء، فأبيّ عيان دلّ على هذا؟ وهذا عسيرٌ.
أحضرنني على اسم الله زهنك، وفرّغ لما ألقيه إليك قلبك،
فربّ حرف من حروف الحكم الشريفة، والأمثال الكريمة

- قد عفا أثره، ودثر ذكره، ونبا الطرف عنه، ولم يشغل
الذهن بالوقوف عليه، ورب بيت هذا سبيله، وخطبة هذه
حالتها.

ومدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ، والحقائق لا
العبارات، فكم من دارس كتاباً خرج عُفلاً كما دخل، وكم
من متفهم لم يفهم؟ ولن يستطيع الفهم إلا من فرغ قلبه
للتفهم، كما لا يستطيع الإفهام إلا من صحت نيته في
التعليم.

فضل الإنسان على سائر الحيوان

فأقول: إن الفرق الذي بين الإنسان والبهيمة، والإنسان
والسبع والحشرة، والذي صَبَّرَ الإنسان إلى استحقاق قول
الله عز وجل: "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ" ليس هو الصورة، وأنه خُلِقَ من نطفة
وأن أباه خلق من تراب، ولا أنه يمشي على رجليه،

ويتناول حوائجه بيديه، لأن هذه الخصال كلها مجموعة في
البُله والمجانين، والأطفال والمنقوصين.

والفرق الذي هو الفرق إنما هو الاستطاعة والتمكين،
وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة، وليس
يوجب وجودهما وجود الاستطاعة.

وقد شَرَّفَ اللهُ تعالى الجانَّ وَقَضَّله على السَّبُع والبهيمة،
بالذي أعطاه من الاستطاعة الدالة على وجود العقل
والمعرفة.

وقد شَرَّفَ اللهُ الملائكةَ وفضلهم على الجانِّ، وقدمهم
على الإنسان وألزمهم من التكليف على حسب ما خولَّهم
من النعمة، وليست لهم صورة الإنسان ولم يخلِّقوا من
التُّطَف، ولا خلِّق أبوهم من التراب، وإنما الشأن في
العقل، والمعرفة، والاستطاعة.

أفتظنُّ أن الله عز وجل يخصُّ بهذه الخصال بعض خلقه
دون بعض، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعض من أعدمه

ذلك، وأغراه منه؟ فلم أعطاه العقل، إلا للاعتبار
والتفكير؟ ولم أعطاه المعرفة، إلا ليؤثر الحقَّ على هواه؟
ولم أعطاه الاستطاعة، إلا لإلزام الحجة؟. فهل فكَّرت
قطُّ في فصل ما بينك وبين الخلق المسخَّر لك، وبين
الخلق الذي جُعِلَ لك والخلق المسلط عليك؟ وهل فكَّرت
قط في فصل ما بين ما جعله عليك عادياً؟ وبين ما جعله
لك غاذياً؟ وهل فكَّرت قطُّ في فصل ما بين الخلق الذي
جُعِلَ لك عذاباً، والخلق الذي جُعِلَ لك قاتِلاً، وبين ما آنسه
يك وبين ما أوْحَشَهُ منك، وبين ما صَغَّرَهُ في عينك
وعظَّمَهُ في نفسك، وبين ما عظَّمَهُ في عينك وصَغَّرَهُ في
نفسك؟.

بل هل فكَّرت في النحلة والعنكبوت والنملة، أنت ترى
الله تقدَّس وعزُّ كيف نوّه بذكره ورفع من قدرها، وأضاف
إليها السُّورَ العظامَ، والآياتِ الجسامَ، وكيف جعل الإخبارَ
عنها قرآناً وفرقاناً، حيث يقول: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"،

فَقَفَّ عَلَى صَغْرِ النَحْلَةِ وَضَعَفَ أَيْدِيَهَا، ثُمَّ أَرَمَ بِعَقْلِكَ إِلَى
قَوْلِ اللَّهِ: "ثُمَّ كُلِي مِّنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ
ذُلًّا" فَإِنَّكَ تَجِدُهَا أَكْبَرَ مِنَ الطُّودِ، وَأَوْسَعَ مِنَ الْفَضَاءِ، ثُمَّ
انظُرْ إِلَى قَوْلِهِ: "حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ"، فَمَا تَرَى
فِي مَقْدَارِ النَّمْلَةِ فِي عَقْلِ الْغَبِيِّ، وَغَيْرِ الذَّكِيِّ؟ فَانظُرْ
كَيْفَ أَضَافَ الْوَادِيَّ إِلَيْهَا، وَخَبَرَ عَنْ حَذْرِهَا وَنَصَحِهَا
لِأَصْحَابِهَا، وَخَوْفِهَا مِمَّنْ قَدْ مُكِّنَ، فَإِنَّكَ تَجِدُهَا عَظِيمَةً
الْقَدْرِ، رَفِيعَةَ الذِّكْرِ، قَدْ عَظَمَهَا فِي عَقْلِكَ، بَعْدَ أَنْ صَغَّرَهَا
فِي عَيْنِكَ.

عَجْزُ الْإِنْسَانِ وَصِغَرُ قَدْرِهِ

وَخَبَّرَنِي عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، أَمَا كَانَ قَادِرًا أَنْ يَعْدِبَ
الْكِنَعَانِيِّينَ، وَالْجَبَابِرَةَ، وَالْفِرَاعِنَةَ، وَأَبْنَاءَ الْعِمَالِقَةِ: مَنْ
تَسَلَّى عَادَ وَثَمُودَ، وَأَهْلَ الْعَتُوِّ وَالْعُنُودِ بِالشَّيَاطِينِ ثُمَّ
بِالْمُرْدَةِ، ثُمَّ بِالْعَفَارِيثِ، ثُمَّ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ وَكَّلَهُمُ اللَّهُ

تعالى بسَوِّقِ السَّحَابِ، وبِالْمَدِّ وَالْجَزْرِ، وَبِقَبْضِ أَرْوَاحِ
الْخَلْقِ، وَبِقَلْبِ الْأَرْضِيِّينَ، وَبِالْمَاءِ وَالرِّيحِ، وَبِالْكَوَاكِبِ
وَالنِّيرَانِ، وَبِالْأَسْدِ وَالنَّمُورِ وَالْبُيُورِ وَبِالْفَيْلَةِ وَالْإِبِلِ
وَبِالْجَوَامِيسِ، وَبِالْأَفَاعِيِّ وَالثَّعَابِينِ وَبِالْعِقَارِبِ
وَالْجِرَارَاتِ، وَبِالْعَقْبَانِ وَالنَّسُورِ، وَبِالْتَّمَّاسِيحِ، وَبِاللُّحْمِ
وَالدُّلْفِينِ.

فَلَمْ عَدَّبَهُمْ بِالْجِرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ؟ وَهَلْ يَتَلَقَّى
عَقْلَكَ قَبْلَ التَّفَكِيرِ إِلَّا أَنَّهُ أَرَادَ أَن يَعْرِفَهُمْ عَجْزَهُمْ،
وَيَذَكِّرَهُمْ صِغَرَ أَقْدَارِهِمْ، وَيُدَلِّهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِأَذَلِّ خَلْقِهِ،
وَيَعْرِفَهُمْ أَنَّهُ لَهٗ فِي كُلِّ شَيْءٍ جُنْدًا، وَأَنَّ الْقَوِيَّ مِنَ قَوَّاهُ
وَأَعَانَهُ، وَالضَّعِيفَ مِنْ صَعَّفَهُ، وَالْمَنْصُورَ مِنْ نَصَرَهُ،
وَالْمَخْذُولَ مِنْ خَلَّاهُ وَخَذَلَهُ، وَأَنَّهُ مَتَى شَاءَ أَنْ يَقْتُلَ
بِالْعَسَلِ الْمَازِي وَالْمَاءِ الزُّلَالِ كَمَا يَقْتُلُ بِالسَّمِّ السَّارِي،
وَالسِّيفِ الْمَاضِي قَتْلًا؟.

وَلِمَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى عَلَى

جسده البثرة ابتهل في الدعاء وقال: إن الله تعالى إذا أراد أن يعظم صغيراً عظمه؟.

ولم قال لنا: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالصَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ". فافهم عنه تعالى

ذكره، وتقدست أسماؤه قوله: "آيات" ثم قال:

"مُفَصَّلَاتٍ"، فهل وقفت قطُّ على هذه الآيات؟ وهل

توهّمت تأويلَ قوله: هذا آية وغير آية؟ وهل وقفت على

فصل ما بين الآية وغير الآية، وإذا كانت مفصلات كان

ماذا، وإذا لم تكن مفصلات كان ماذا.

فافهم قوله: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ"، وما في الأرض أنقص

معرفة وعلماً، ولا أضعفُ قوة وبطشاً، ولا أوهنُ رُكناً

وعظماً من صيدع، فقد قال - كما ترى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالصَّفَادِعَ وَالِدَّمَ"، فقد جعله -

كما ترى - أفضل آياته والعذاب الذي أرسله على

أعدائه.

وقد قال جل وعز: "فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ" فأظهر
الماء جلّ ثناؤه من أبعاد مواضع الماء من ظنونهم،
وَحَبَّرْنَا بِذَلِكَ كِي لَا نَخْلِي أَنفُسَنَا مِنَ الْحَذَرِ وَالْإِشْفَاقِ،
ولنكون علماء بالعلم الذي أعطانا، ولنكون راجين
خائفين، ليصحّ الاختيار، ويحسنّ الاختبار: "فَتَبَارَكَ اللَّهُ
أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"، ما أحسن ما قدّر، وأتقن ما برأ. وكان
السبب الذي سلطه الله تعالى على العرِم، وهو مُسْنَاهُ
جَنَّتِي بِلَادِ سِبَا، جُرْدًا، فهو الذي خرّقه، وبدّل نعمتهم
بؤسًا، ومُلِكُهُمْ يَبَابًا وَعِزَّهُمْ ذَلًّا، إلى أن عادوا فقراء،
فقال الله: "وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ
وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ"، هذا بعد أن قال: "لَقَدْ كَانَ
لِسَبَا فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن
رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ".

شعر في سد مأرب وقال الأعشى:

ذَكَ لِلْمُؤْتَسِي أُسْوَتَارُبُ قَفَى عَلَيْهِ الْعَرَمُ
رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حَمِيرٌ جَاءَ مَاؤُهُمْ لَمْ يَرِمَ

وَأَنشَدَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ:

سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِيَهُ
مَنْ دُونَ سَيْلِهِ الْعَرِمَا

معارف في الجراد

ثم انظر إلى الجراد وهذا باب القول فيه.

قال: فأول ما يبدو الجراد إذا باض سَرءٌ، وسَرؤُه: بيضُه.

يقال: سَرَأْتُ سَرَأً سَرءاً.

فانظر الآن، فكم ترى فيه من أعجوبةٍ، ومن آيةٍ بليغةٍ،

فأول ذلك التماسُّها لبيضها الموضع الصَّلْد، والصخور

الصُّمِّ المُلس، ثقةً بأنها إذا ضربت بأذناها فيها انفرجت

لها.

ذنب الجراد وإبرة العقرب

ومعلومٌ أن ذنب الجراد لا يس في خلة المسمار، ولا

طرف، ذنبها كحدِّ السِّنَان، ولا لها من قوة الأَسْر، ولذنبها

من الصلابة ما إذا اعتمدت به على الكُدِيَّة والكَدَّانة جرح
فيهما فكيف وهي تتعدى إلى ما هو أصلبُ من ذلك،
وليس في طرف ذنبها كإبرة العقرب؟.

وعَلَى أن العقرب ليس تخرق القمقم من جهة الأيد وقوة
البدن، بل إنما ينفرجُ بطبيعٍ مجعول هناك، وكذلك انفراجُ
الصخورِ لأذنان الجراد.

ولو أن عُقاباً أرادتُ أن تخرق في جلد الجاموس لما
انخرق لها إلا بالتكَلُّفِ الشديدِ، والعُقَابُ هي التي تَنكدرُ
على الذئب الأطلس فتقَدُّ بدابرتها ما بين صَلاهُ إلى
موضع الكاهل.

فإذا غرَزَت الجرادَة وألقت بيضها، وانضَمَّت عليها تلك
الأخاديد التي أحدثتها، وصارت كالأفاحيص لها، وصارت
حافِظَةً لها ومرَبِّيةً، وصائنة وواقية، حتى إذا جاء وقتُ
دبيبِ الرُّوح فيها أحدث اللهُ في أمرها عجباً آخر،
فسبحان من استخزنها حكمته، وحشاها بالأدلة

عليه، وأنطقها بأنها مدبرة، ومُذَلَّةٌ ميسرة، ليفكر مفكر،
ويعتبر معتبر دَلِكُمُ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وتبارك الله ربُّ
العالمين.

مراتب الجراد

وقال الأصمعي: يقال: قد سرأت الجرادة تسراً سَرَاءً، فإذا خرج من بيضه فهو دَبًّا والواحدة
دَبَاة، ويخرج أصهَبَ إلى البياض، فإذا اصفَرَّ وتلَوَّنَت فيه خطوطٌ واسودَّ فهو بُرْقَان، يقال رأيت
دَبًّا بُرْقَانًا، والواحدة بُرْقَانة، فإذا بدت فيه خطوطٌ سُودٌ وبيضٌ وُضْفَرُ فهو المَسِيحُ، فإذا بدا
حُجْمُ جناحه فذلك الكُفْغان، لأنه حينئذٍ يكتف المشي واحدة كتفانة، قال ابن كنانة:

يكتف المشي كالذي يتخطى أو يشكُّ كالمتماري

يصف فرسًا، فإذا ظهرت أجنحته وصار أحمر إلى الغبرة فهو العَوْغَاءُ والواحدة غوغاءه، وذلك
حين يستقلُّ ويموجُ بعضه في بعضه ولا يتوجَّهُ جهةً، ولذلك قيل لرعاغ الناس غوغاء، فإذا بدت
في لونه الحمرة والصفرة، وبقي بعضُ الحمرة، واختلف في ألوانه، فهو الخيفان، والواحدة
خيفانة، ومن ثَمَّةَ قيل للفرس خيفانة.

فإذا اصفَرَّت الذكورُ واسودَّت الإناثُ ذهب عن أسماء غير الجراد، فإذا باض قيل عَرَّرَ
الجرادُ، وقد ررَّ.

فإذا كثر الجرادُ في السماء وكثف فذلك السُّدُّ، ويقال: رأيتُ سُدًّا مِنْ جَرَادٍ، ورأيتُ رَجُلًا مِنْ
جَرَادٍ، للكثير منه، وقال العجاج:

الجراد السُّدُّ يرتاد الحَضِرُ

مثل في الجراد

و مما تقول العرب: أَصْرَدَ مِنْ جَرَادَةٍ، وإنما يُصْطَادُ الجرادُ بالسَّحَرِ، إذا وقع عليه الندى طلبَ مكاناً أرفعَ من موضعه.

فإن كان مع النَّدى بَرْدٌ لَبَدَّ في موضعه، ولذلك قال الشاعر:

وكتيبةٍ لَبَسْتُهَا بكتيبةٍ
كالثائر الحيران أشرفَ
لَلنَّدى

الثائر: الجراد، أشرف: أتى على شَرَفٍ، للندی: أي من أجل الندى.

استطراد لغوي ويقال: سَحَّتِ الجرادَةُ تَسْحُ سَحًّا، وورَّتْ وأرَّتْ، وجرادةٌ رَزَاءٌ ورازٌ ومُرِرٌّ: إذا غمَّرتَ ذنبها في الأرض، وإذا أَلَقْتَ بيضها قيل: سَرَأَتْ تَسْرَأُ سَرَاءً. ويقال: قد بَشَرَ الجرادُ الأرضَ فهو يبشرها بشرًا: إذا حَلَقَهَا فأكل ما عليها، ويقال: جَرَدَ الجرادُ: إذا وقع على شيء فجردَه، وأنشدني ابن الأعرابي:

جَرَدَ الجارودُ بَكَرَ بَنَ وائل

ولهذا البيت سُمِّيَ الجارود.

وأنشدني آخر:

يقول أميرٌ: ها جَرادٌ وضيئةٌ
جَرَدَتْ بيتي وبيتَ
عِيَالِيَا

وهذا من الاشتقاق.

ومنه قيلُ ثوب جَرْدٌ، بإسكان الراء، إذا كان قد انجرد وأخْلَقَ، قالت سَعْدَى بنت الشَّمْرَدَانِ:

عادية وهادي سُروهُقاتلُ بطلٌ وليتُ مسلِعُ أَجَعَلتَ أَسْعَدَ لِلرِّمَاحِ دِهَيْتُكَ أُمَّكَ أَيَّ جَرْدٍ تَرَقُّعُ

تطيّرُ النابغة ويدخلُ في هذا الباب ما حدّثنا به الأصمعيّ، قال: تجهز النابغة الذبيانيّ مع رَبَّانِ بن سَيَّارِ الفزاريّ، للغزو، فلما أراد الرحيلَ نظَرَ إلى جرادة قد سقطت عليه، فقال: جرادةُ تجرّد، وذات لونين، غيري منُ خرج في هذا الوجه: ولم يلتفتُ رَبَّانُ إلى طيرته وزجره، ونفذ لوجهه، فلما رجع إلى موضعه الذي كان النابغة فارقه فيه، وذكر ما نال من السلامة والغنيمة، أنشأ يذكر شأن النابغة فقال:

تخبر طيرَهُ فيها زيادٌ تخبره وما فيها خبيرُ
كَأَنَّ لِقْمَانَ بْنَ عَادٍ لَهُ بِحِكمته مَشِيرُ
تَعَلَّمَ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا مَتَطَيَّرَ وَهُوَ التُّبُورُ
شيءٌ يوافقُ بعضَ أحياناً وباطله كثيرُ
شيء

واسم النابغة زياد بن عمرو، وكنيته أبو ثُمّامة، وأنشدني أبو عبيدة:

وقائلة: مَنْ أُمَّها واهتدى بنُ عمرو أُمَّها واهتدى

استطرد لغوي قال: ويقال أبشرت الأرض إِبشاراً: إذا بُدِرَتْ فخرج منها بذرها، فعند ذلك يقال: ما أَحَسَّ بَشْرَةَ الأَرْضِ.

وقال الكميت - وكنية الجراد عندهم: أُمُّ عوف، وجناحها: بُرْدَها - ولذا قال:

تُنْقِضُ بُرْدِي أُمَّ عوفٍ ولم يبارقُ بخُ للوعيدِ
وللرَّهْبِ

وأنشدنا أبو زيد:

رِجْلِيهِ رِجْلاً مُقْطَفٍ تَجَاوَبَ مِنْ بُرْدِيهِ
ترنيمُ

يقول: كأنَّ رجلي الجندب، حين يضربُ بهما الأرض من
شدة الحرِّ والرَّمضاء، رجلا رجل مُقْطِف، والمقطف:
الذي تحته دابَّةٌ قَطُوف، فهو يهْمزُها برجليه.

شعر في الجندب والجراد

وقال أبو زيد الطائي، يصف الحرَّ وشدته، وعملَ الجندب بكُراعيه:

سَاعٍ سَعَى لِيَقْطَعِ لَاحَتْ لِلصَاحِ
شَرَبِي الجوزاءُ
وَاسْتَكَنَّ العُصْفُورُ كَرَهَا مَعُوفِي فِي عودِهِ
الجرباءُ

ونَقَى الجندبُ الحَصَى وَأدَكَّتْ نيرَانَهَا المَعزَاءُ
بُكَرَاعٍ

وأنشد أبو زيد، لعوف بن ذُرَّوة، في صفة الجراد:

خفت أن يحدَرَنَا ويتركَ الدِّينَ علينا
للمِضْرِينِ والدِّينِ
رَحْفٌ من الخَيْفَانِ بعد كلِّ سَفْعَاءِ القَفَا
الرَّحْفِينِ والخدَّينِ
مَلْعُونَةٍ تَسْلَخُ لوناً عن مُلتَفَّةً في بُرْدِينِ

تُنْجِي على الشُّمْرَاخِ مثلَ مثلِ مِئْشَارِ غليظِ
الفَاسِينِ الحَرْفِينِ
أَنْصَبَهُ مُنْصِبُهُ فِي قِحْفِينِ

وعلى معنى قوله:

تُنْجِي عَلَى الشُّمْرَاخِ مِثْلَ مِثْلِ مِئْشَارِ غليظِ

الفأسينُ
قال حمادُ لأبي عطاء:

الحرفينُ

صفراءُ تُكْتى أُمٌّ عَوْفٍ رُجَيْلَتَيْهَا مِنْجَلانِ

تشبيه الفرس بالجرادة

ويُوصَفُ الفرسُ فيشبهه بالجرادة، ولذا قال الشاعر:

أَتَيْتَ أَبَاكَ فَاشْتَرِ الرَّدَّافَ عَنِ الْأَحْبَةِ
مِثْلَهَا يَشْغَلُ
رَفَعْتَ عِنَانَهَا وَضَعْتَ عِنَانَهَا لَا
فَجْرَادَةٌ تَفْشَلُ
وَلَمْ يَرْضَ بَشْرٌ بِنَ أَبِي خازِمٍ بَأَنَّ يَشْبَهُهُ بِالْجَرَادَةِ حَتَّى
جَعَلَهُ ذِكْرًا، حَيْثُ يَقُولُ:

قِيَادِ مُسْنِقَةٍ عَنُودٍ بِهَا الْمَسَالِحُ وَالْعَوَاظُ
مُهَارِشَةِ الْعِنَانِ كَأَنَّ فِيهَا هَبْوَةً فِيهَا اصْفَرَاؤُ
فَوَصَفَهَا بِالصُّفْرَةِ، لِأَنَّ الصُّفْرَةَ هِيَ الذُّكُورَةُ، وَهِيَ أَخْفُ
أَبْدَانًا، وَتَكُونُ لَخْفَةِ الْأَبْدَانِ أَشَدُّ طَيْرَانًا.

تشبيه مسامير الدرع بحدق الجراد

ويوصف قتيز الدرع ومساميرها فيشبهه بحدق الجراد، وقال قيس بن الخطيم:

رَأَيْتُ الْحَرْبَ حَرْبًا لَبَسَتْ مَعَ الْبَرْدَيْنِ ثَوْبَ
تَجَرَّرَتْ
مِثْلَ الْمَحَارِبِ
مِثْلَ مِثْلِهَا عِيونُ
مِثْلَ مِثْلِهَا عِيونُ

فضلها

وقال المقنع الكندي:

الجناد

تثرة ما أبصرت عيونها لها صنعا ولا سردها
ناظر
تلاخم منها سردها عيون الدبا في الأرض
فكانما
سردا
تجردها جردا

وقال عمرو بن معد يكرب:

تمناني ليقاني أبي وددت وأين ما متي وداي
تمناني وسابغتي دلاص
محاكمة السرا
مضاعفة تخيرها سليم سكاكها حدق الجراد

تشبيه وسط الفرس بوسط الجراد

ويوصف وسط الفرس بوسط الجراد، قال رجل من عبد القيس يصف فرساً:

إذا ما استدبرت
فتعامه
سنايكها رضيع
الجندل

تشبيه الحباب بحدق الجراد

ويوصف حباب الشراب بحدق الجراد، قال المتلمس:

شارب يوم استبوطت بهم وراء البيد حادي
عقاراً عتقت في الدن حتى حبابها حدق الجراد

لعاب الجندب

وإذا صفا الشراب وراق شبهوه بلعاب الجندب، ولذا قال الشاعر:

صفراء من حَلَبِ الكرومِ المفاصلِ أو لُعَابِ الجُنْدُبِ

ولُعَابِ الجندبِ سُمٌّ عَلَى الأشجارِ، لا يقع على شيءٍ إلا أَحرقه.

زعم في الدِّبَا ولا يزالُ بعضُ من يدَّعي العِلْمَ يزعمُ أن الدِّبَا بُريدُ الخُضرةِ، ودونها النهرِ الجاري، فيصيرُ بعضه جسراً لبعض، وحتى يعبرُ إلى الخضرةِ، وأن تلك حيلةٌ منها. وليس ذلك كما قال: ولكنَّ الرَّحَفَ الأولُ من الدِّبَا يريدُ الخضرةِ، فلا يستطيعها إلا بالعبورِ إليها، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافيةً صارت تلك لعمرى أرضاً للزحفِ الثاني الذي يريدُ الخضرةِ، فإن سمَّوا ذلك جسراً استقام، فأما أن يكون الرَّحَفُ الأولُ مهَّداً للثاني ومكَّن له، وآثره بالكفاية فهذا ما لا يُعرَفُ. ولو أن الزَّحْفين جميعاً أشرفا على النهرِ، وأمسكَ أحدهما عن تكلفِ العبورِ إلى أن يمهدَّ له الآخر - كان ذلك قولاً.

استطرد لغوي ويقال في الجراد: خِرقة من جراد، والجميع خِرَق، وقال الشاعر:

وكانها خِرَقُ الجَرَادِ يومَ غُبارِ

ويقال للقطعة الكثيرة منها رجل جراد، ورجلُهُ من جراد، والتَّوَلُّ: القطعة من النحل.

وتوصف كثرة النَّبْلِ، ومرورها، وسرعة ذلك بالجراد، وقال أبو النجم:

المَعزَاءُ من نِضالِها جرادٍ طارٍ عن جِدالِها

وإذا جاء منه ما يسدُّ الأفق قالوا: رأينا سُدًّا من جراد، وقال المفضل التُّكْرِي:

النَّبَلُ بينهم جرادٌ تُهَيِّجُه شامِيَةٌ خَرِيقُ

والمرتجل: الذي قد أصابَ رَجُلُ جرادٍ، فهو يشوبه.

وقال بعضُ الرُّجَّازِ، وهو يصف خيلاً قد أقبلت إلى الحي:

رأينا كدُخانِ المرتجلِ شَبَّهَ الحَفَّانِ في سفحِ الجَبَلِ

ولأن الحفانَ أتمُّها أبداناً، قال ابنُ الرُّبَعَرِيِّ:

أشياخي بديرِ الأسدِ ألقْتُ بِقُبَاءِ بَرَكَها اسْتَحَرَّ القتلُ في عبدِ

الأشَل
ساعةً ثمَّ استخفوا رَقَصُوا الحفان في سَفْحِ
الجَبَلِ
وقبلنا الصَّعْف منْ وعدلنا مَيْلَ بدرٍ
ساداتِهِمْ فاعتَدَل

طيب الجراد الأعرابي

والجرادُ الأعرابيُّ لا يتقدمه في الطَّيب شيءٌ، وما أحصي
كم سمِعْتُ من الأعرابِ مَنْ يقول: ما شِيعْتُ منه قطُّ وما
أدعُّهُ إلا خوفاً من عاقبته؛ أو لأنِّي أعيا فأتركه.

أكل الجراد والجرادُ يطيَّب حارًّا وبارداً، ومشويًّا
ومطبوخاً، ومنظوماً في خيط، ومجعولاً في المَلَّة.

والبيض الذي يتقدَّمُ في الطيب ثلاثةُ أجناس: بيض

الأسبور وبيض الدَّجاج، وبيضُ الجراد فوق بيض الأسبور

في الطيب، وبيضُ الأسبور فوق بيض الدَّجاج.

وجاء في الأثر، أن الجراد ذكرَ عندَ عمر فقال: ليت لنا منه

قَفْعَةً أو قفعتين.

وهو يؤكل يابساً وغير يابس، ويجعلُ أذماً وتَقْلاً.

والجرادُ المأكولُ ضروبٌ، فمنه الأهوازيُّ، ومنه المذئبُ،
وأطيبُهُ الأعرابيُّ، وأهلُ خُراسان لا يأكلونه.

قصة في الولوع بأكل الجراد وحدثني رَبَيْيل بن عمرو بن
رَبَيْيل قال: والله إني لجالس على باب داري في بني
صبير، إذ أقبلت امرأةٌ لم أر قط أتم حسناً ومِلحاً وجسماً
منها، ورأيت في مشيها تأوُّداً، ورأيتها تتَلَفَّتْ، فلم ألبثُ أن
طلعتُ أخرى لا أدري أيتهما أقدم، إذ قالت التي رأيتها بدياً
للأخرى: ما لك لا تلحقيني؟ قالت: أنا منذ أيام كثيرة أكثرُ
أكلَ هذا الجراد، فقد أضعفني فقالت: وإنك لتحببته حُبًّا
تحتملين له مثلَ ما أرى بكِ من الضَّعف؟ قالت: والله إنه
لأحبُّ إليَّ من الحبل.

طرفة في الجراد

وقال الأصمعي: قال رجلٌ من أهل المدينة لامرأته:
لأجزاك اللهُ خيراً، فإنك غيرُ مُزَعِيَةٍ ولا مبقية قالت: لأنا

والله أَرْعَى وَأَبْقَى من التي كانت قبلي قال: فأنت طالقُ
إن لم أكنُ كُنْتُ آتِيهَا بجرادٍ فتطبخ منها أربعة ألوان،
وتَشْوِي جنبِيها فرفَعْتُهُ إلى القاضي فجعل القاضي يفكر
ويطلبُ له المخرج، فقال للقاضي: أصلحك الله أشكلتُ
عليك المسألة؟ هي طالقُ عشرين.

تشبيه الجيش بالدبا

ووصف الراجز حرباً، فوصفَ دنوَّ الرَّجَالَةِ من الرَّجَالَةِ، فقال:

كَالدَّبِّ دَبُّ صُحَى إِلَى الدَّبِّ

قول أبي إسحاق في آية الضفادع

وقرأ بعضُ أصحابنا بحضرة أبي إسحاق: "وَقَالُوا مَهْمَا
تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَتَا بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ
مُفَصَّلَاتٍ" فقال رجلٌ لأبي إسحاق: انظر كيف قرَنَ
الضفادعَ مع ضعفها إلى الطوفان، مع قوة الطوفان
وغلبته، قال أبو إسحاق: الضفادعُ أعجبُ في هذا الموضع

من الطوفان، وإذا أراد الله تعالى أن يصير الضفادع أضراً
من الطوفان فعل.

شعر في تشبيه بالجراد

وقال أبو الهندي:

سِمْعْتُ الدَّيْكَ صَاحًا وَتَوَسَّطَ النَّسْرَانِ بَطْنَ
بِسُحْرَةٍ الْعَقْرِبِ
وَتَتَابَعَتْ عُصَبَ النُّجُومِ الضَّبَاءَ عَلَى فُرُوعِ
كَأَنَّهَا الْمَرْقَبِ
سُهِيلٌ فِي السَّمَاءِ وَعَارِضَةٌ هِجَانُ
كَأَنَّهُ الرَّيْبِ
نَبَّهْتُ نَدْمَانِي فَقُلْتُ لَهُ: ابْنَ الْكِرَامِ مِنَ الشَّرَابِ
اصْطَبَحَ الْأَصْهَبِ
صَفْرَاءُ تَنْزُو فِي الْإِنَاءِ الْجَرَادَةُ أَوْ لِعَابُ
كَأَنَّهَا الْجُنْدُبِ
الدَّبَا مِنْ حَرِّ كُلِّ
وَقَادَةَ حِرْبَاؤُهَا يَتَقَلَّبُ
ظَهِيرَةَ

وقال أبو الهندي أيضاً:

هَذَا الْوَطْبَ لِي ظَاهِرُ الْأَمْرِ وَفِي
ضَائِرُ الْغَامِضِ
كُنْتُ تَسْقِينِي فَمِنْ صَفْرَاءَ مِثْلِ الْمُهْرَةِ
قَهْوَةِ النَّاهِضِ
الْفَقَاقِيعُ إِذَا
جَرَادِ الْبَلَدِ الرَّامِضِ
شُعْشِعَتْ

وقال الأَفْوَه:

بمناقبٍ بيضٍ كأنَّ وجوهَهُمْ قُبَيْلَ تَرْجُلِ الشَّمْسِ
كمنتشرِ الجرادِ هَوَالِيطِنِ فِي دِرْعٍ وَفِي تُرْسِ
وكانها آجالٌ عاديةٌ ^{الْحُنْسِ} حَطَّتْ إِلَى إِجْلِ مِنْ
أقوال فيما يضر من الأشياء وروى الأصمعي، وأبو

الحسن، عن بعض المشايخ، قال: ثلاثة أشياء ربما
صرعتُ أهلَ البيت عن آخرهم: أكلُ الجراد، ولحوم الإبل،
والقُطْرُ من الكُمأة.

وقال غيرُهما: شربُ الماء في الليل يورث الخبل، والنظر
إلى المختصر يُورث ضعف القلب، والاطلاع في الآبار
العادية ينقض التركيب، ويُسوّل مصارعَ السَّوء، فأما
القُطْرُ الذي يُخْلَق في ظلِّ شجر الزيتون فإنما هو حتفٌ
قاص، وسمٌّ نافع، وكل شيء يخلق تحت ظلال الشجر
يكون رديئاً، وأردؤه شجر الزيتون، وربما قتل، وإن كان
مما اجتنبوه من أوساط الصحارى، قالوا: ومما يقتلُ:
الحَمَّامُ على المِلاءة، والجماع على البِطْنَة، والإكثارُ من
القديدِ اليابس.

وقال الآخر: شربُ الماء البارد على الظمِّ الشديد إذا
عَجَّلَ الكَرْعَ، وعَظَّمَ الجِرْعَ، ولم يقطع النفس يقتل.
قالوا: وثلاثُ تورثُ الهُزالَ: شرب الماء عَلى الرِّيقِ،
والنوم على غير وِطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت.
والجماعُ على الامتلاء من الطعام ودخوله، وربما خيف
عليه أن يكون قاتل نفسه.

وقالوا: وأربعةُ أشياء تسرعُ إلى العقل بالإفساد: الإكثار
مِنَ البَصْلِ، والباقلَى والجماع، والخُمَار.

وأما ما يذكرون في الباب من الهمِّ والوحدة والفكرة،
فجميع الناس يعرفون ذلك، وأما الذي لا يعرفه إلا الخاصة
فالكفاية التامة، والتعظيم الدائم، وإهمال الفكر، والأنفُ
من التعلُّم، هذا قول أبي إسحاق.

وقال أبو إسحاق: ثلاثةُ أشياء تخلق العقلَ، وتُفسد الذهنَ:
طول النظر في المرأة، والاستغراق في الضحك، ودوام
النظر إلى البحر.

وقال مُعَمَّر: قُطعت في ثلاثة مجالس، ولم أجدُ لذلك
علة؛ إلا أنني أكثرُ في أحد تلك الأيام من أكل الباذنجان،
وفي اليوم الآخر من أكل الزيتون، وفي اليوم الثالث مِنْ
الباقلِي.

وزعم أنه كلم رجلاً من الملحدين في بعض العشايا، وأنه
علاه عُلوًّا ظاهراً قاهراً، وأنه بَكَرَ على بقية ما في مسأله
من التخريج، فأجَبَل وأصْفَى، فقال له خصمه: ما أحدثت
بعدي؟ قال: قلت: ما أنْتَهُمُ إلا إكثاري البارحة من
الباذنجان فقال لي - وماخالف إلى التُّهمة: ما أشكُّ أنك
لم تُؤت إلا منه.

وقال لي مَنْ أثقُ به: ما أخذت قط شيئاً من البلاذُر
فنازعت أحداً إلا ظَهَرْتُ عليه.

وقال أبو ناضرة: ما أعرف وجه انتفاع الناس بالبلاذُر إلا
أن يؤخذ للعصب، قلت: فأي شيءٍ بقي بعد صلاح

العصب، وأنتم بأجمعكم تزعمون أن الحسن للعصب
خاصة؟.

في القطا

تقول العرب: أصدق من قطاة وأهدى من قطاة.
وفي القطا أعجوبة، وذلك أنها لا تضع بيضها أبداً إلا أفراداً، ولا يكون بيضها أزواجاً أبداً، وقال
أبو وجزة:

يَنْسُبْنَ وَهَنَا كُلَّ
صَادِقَةٍ
تُبَاشِرُ عُرْمًا غَيْرِ
أَزْوَاجِ

والعُرم التي عَنَى: بيض القطا، لأنها منقطة، وقال الأخطل:

شَفَى النَّفْسَ قَتْلِي مِنْ
سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ
يَشْفِيهَا قَتْلِي عَنِيَّ وَلَا
جَسْرٍ
جُشْمٍ شَرَّ الْقَبَائِلِ كَبَيْضِ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودِ
إِنَّهُمْ
حُمَرٍ

وقال مَعْقِل بن خويلد:

مَعْقِلٌ لَا تَوَطِّئُكُمْ
بَغَاضَتِي
رُؤُوسَ الْأَفَاعِي فِي
مَرَاصِدِهَا الْعُرْمِ

يريد: الأفاعي العُرم في مراصدها، وهي منقطة الظهر، وما أكثر ما تبيض العقاب ثلاث

بيضات، إلا أنها لا تلحم ثلاثة، بل تخرج منهن واحدة، وربما باضت الحمامة ثلاث بيضات، إلا أن

واحدة تفسد لا محالة، وقال الآخر في صفة البيض:

وَبِيضَاءَ لَا تَنْحَاشُ مِنَّا وَأُمَّهَلَمَا رَأَيْنَا زَالَ مِنْهَا زَوِيلُهَا
وَلَمْ تُقْرِفْ لِمَا يُمْتَنَى أُنْتَجَتْ مَاتَتْ وَحِيَّ
سَلِيلُهَا

يعني البيضة، تتوج، حامل: ولم تُقْرِف: لم تُدَانِ، لما يُمْتَنَى: أي للضراب، والامتناء: انتطارك
الناقة إذا ضربت ألقح هي أم لا.
وقال ابنُ أحمَر:

بتيهَاءَ قَفْرِ والمَطِيِّ الحَزْنَ قد كانت فِرَاخًا
كَأَنَّهَا بُيُوضُهَا
وذلك أنها قد كانت قبل ذلك الوقت تشرب من العُدُر،
فلما أفرخت صافت، فاحتاجت إلى طلب الماء من مكان
بعيد، فذلك أسرع لها.

تشبيه مشي المرأة بمشي القطة

ويشبهه مشي المرأة إذا كانت سميكة غير خراجة طوافة
بمشي القطة في القرمطة والدَّلِّ، وقال ابنُ مِيَادَةَ:

الطَّوَالِ سَدَوْنَ المَقْلَهَاتِ تريك قَوَامًا غير ذي
خَطَلٍ
تمشي ككَدْرِيَّةٍ فِي الجَتَّهْدِي سُروب قَطَا يَشْرَبْنَ
فَارِدَةً
بِالْتَّمِدِ

وقال جِرَانُ العُودِ:

رَأَيْنَ الصُّبْحَ بَادِرْنَ صَوَاءَ هَرَسِيمٍ قَطَا البَطْحَاءِ
هُنَّ أَقْطَفُ

وقال الكميْت:

يمشِينَ مشيَ قَطَا البِطَاحِ البُطُونِ رَوَاجِحَ الأَكْفَالِ

شعر في التشبيه بالقطاة

وقال الآخر في غير هذا المعنى:

الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُغَيِّئُ عَلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةً عَرَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ جَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

وقال آخر:

كَزُوجٍ مِنْ قَطَاً خَفُضِ عَيْشٍ وَنِقِ
بِمَفَازَةٍ مُورِقِ رَعْدٍ
فَجَانَهُمَا رَبُّ الزَّمَنِ تَرَّ عَيْنِي قَطُّ أَقْبَحَ مِنْ
فَأَفْرِدَا

شعر في صدق القطاة

وفي صدق القطاة يقول الشاعر:

وَصَادِقَةٌ مَا خَبَّرَتْ قَدْ طُرُوقاً وَبَاقِي اللَّيْلِ فِي
بَعَثَتْهَا الْأَرْضِ مُسْدِفِ
تَرَكْتُ نَامَتٌ وَلَكِنْ مِنْ قِلَاصٍ كَالْحَنِيِّ
أَعَشَّهَا الْمُعَطْفِ

وتقول العرب: لو تُرِكَ القطا لنام، ويقال: أَعَشَّشْتُ القومَ إِعْشَاشاً: إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ وَهَمَّ

كارهون لك فتحولوا عن منزلهم.

وقال الكمي:

تَكْذِبُ الْقَوْلَ إِنْ قَالَتْ كُلُّ ذِي نِسْبَةٍ لَا بَدَّ
يَنْتَحِلُ صَدَقْتُ

وقال مُزَاحِمُ الْعُقَيْلِيِّ فِي تَجَاوُبِ الْقَطَاةِ وَفَرَجِهَا:

فَنَادَتْ وَنَادَاهَا وَمَا اعْوَجَّ الَّذِي قَالَتْ لَهُ لَمْ
صَدَّرَهَا يُبَدِّلُ

والقطاة لم تُرد اسمَ نفسها، ولكن الناس سموها بالحروف التي تخرج من فيها، وزادَ في ذلك أنها على أبنية كلام العرب، فجعلوها صادقَةً ومُخبرَةً، ومُريدة وقاصدة. استطراد لغوي ويقال سِرْبٌ نساءٍ، وسِرْبٌ قطاً، وسِرْبٌ طباء، كل ذلك بكسر السين وإسكان الراء، فإذا كان من الطريق والمذهب قالوا: حَلَّ سَرَبُهُ، و: فلانُ حَلِيُّ السَّرْبِ؛ بفتح السين وإسكان الراء، وهذا عن يونس بن حبيب، وقال الشاعر:

القطاةُ فإني سَوِّفَ يوافقُ نَعْتِي بعضَ ما
أَنعْتُها
سَكَّاءُ مخطوقةٌ في ريشها قوادمها صُهبُ
طَرَقُ خوافيها

ويقال في ريشها فَتَحَ، وهو اللَّيْنُ، ويقال في جناحه طَرَقَ: إذا غطى الرَّيشُ الأعلى الأسفلَ، وقال ذو الرُّمَّة:

طراقُ الخوافي واقعٌ فوقَ ليلِهِ في ريشِهِ
يترقُّ

ويقال: اطَّرقت الأرض: إذا ركب الترابُ بعضه بعضاً، ولزمَ بعضه بعضاً، فصار كطِراق النَّعالِ طَبَقاً، وقال العجاج:

فاطَّرقتُ إلا ثلاثاً دُحَساً

والطَّرَقُ، بإسكان الراء: الضربُ بالحصى، وهو من فِعالِ الحَرَاةِ والعائِفين: وقال لبيدٌ، أو البعِث:

لعمرك ما تدري الطوارقُ زاجراتُ الطير ما اللُّهُ
بالحصى

قال: ويقال طَرَّقت القطاةُ بيضِها: إذا حان خروجه وتعضَّتْ به شيئاً، قال أبو عبيد ولا يقال ذلك في غير القطاة، وَعَرَّه قولُ العَبْدِيِّ:

تخذتُ رجلي لدى نسيفاً كأفحوصِ القِطاةِ
غرزها المطرِّقِ

وهذا الشاعر لم يقل إن التطريق لا يكون إلا للقطاة، بل يكون لكل بيّاصة، ولكل ذات ولد، وكيف يقول ذلك وهم يرؤون عن قابلة البادية أنها قالت لجارية تسمى سَحَابَة، وقد ضربها المخاض وهي تُطَلِّق عَلَى يدها:

سَحَابُ طَرَّقِي بِخَيْرِ طَرَّقِي بِخُصِيَّةٍ وَأَيْرِ
ثُرِينَا طَرَفَ البُظَيْرِ

وقال أوسُ بنُ حجر:

مكان ترى شطبَقُولية، ربهَا مسبَطْرُ
وأحمر جعداً عليه النسوفي ضبنه ثعلبٌ منكسرُ
صدره مثلُ جيب القتلتهق حيناً وحيناً تَهْرُ
وإخوتنا عامراً مثل ما بيننا نأتمرُ
صرخةٌ ثم إسكاته طرقت بنفاسٍ بِكِرُ
فهذا كما ترى يردُّ عليه.

ولادة البكر وإنما ذكر أوسُ بن حجرِ البِكرَ دون غيرها، لأن
الولاد على البِكرِ أشدُّ، وخروج الولد أعسر، والمخرج أكزُّ
وأضيق، ولولا أن البِكرَ أكثر ما تلدُ أصغرُ جثةً وألطفُ
جسماً، إلى أن تتسع الرحم بتمطّي الأولاد فيها لكانَ
أعسر وأشق.

أجود قصيدة في القطا

وقال المزار، أو العكَبُ التغلبي، وهي أجود قصيدة قيلت في القطا:

مروراهُ يحارُّ بها الفرخَ في حافاتها

القطا يتحرق
بها فَرَحَ القِطَاةِ جفا عنه مواليه
كأنه مُطْرَقُ
بديمومة قد مات فيها موته تَغْضَى مِرَاراً
وعينه وثرمقُ
بلا شيء هنالك يواريه قيضُ حوله
شخصه متفلقُ
محجّر ناب وعينُ وشدقُ بمثل الزعفرانِ
مريضةُ مخلقُ
تُعاجيه كحلاءِ المدامعِ ذنبٌ وحفٌ وجيدُ
حرةُ مطوقُ
سِماكِيَّةُ كدريَّةُ عُرْغُرِيَّةُ سُيَاكِيَّةُ غبراءُ سمراءُ
عشلقُ
غادرته تبتغي ما كفاها رَدَاياها النجاء
يُعيشُه الهبنقُ
تستقي من منهلٍ مسيرَةٍ شَهْرٍ للقطا،
دونه متعلقُ
لأزغبٍ مطروحٍ، بجوزٍ تُلْطَى سَمُوماً قيظه، فهو
تُوفَةٌ أورقُ
إذا أمسى وقد كاد الحَرُّ عن أوصاله
جلده يتمزقُ
فاستقلَّت ثم ولَّت جين يزهاها الجناحانِ
مُغيرَةٌ أولقُ
ضحضاحاً من المدعاميصه فالماء أطحلُ
بدتُ أورقُ
أنته مقذ حراً تغوتَ مخنوقٍ فيطفو
تغوتتُ ويغرقُ
وتُلقي في سقاء الحنظلِ العاميِّ جرؤُ

كَأَنَّهُ مُفَلَّقٌ
ارْتَوَتْ مِنْ مَائِهِ لَمْ وَقَدْ كَادَتْ مِنَ الرِّيِّ
لَهَا تَبْصِقُ
طَمَتْ طَمُوءَةً ضَعْدًا وَمَوَّطَّارَتْ كَمَا طَارَ السَّحَابُ
جِرَاتُهَا المَحْلَقُ

شعر البعيث في القطا

وقال البعيث:

بُطُولَاتٍ كَأَنَّ القطا تعرُّو المناهلَ
نَجَاءَهَا جُوتَهَا
طَوَّيْنَ سِقَاءِ الْخَمْسِ تُمَّتْ الْمِيَاهِ وَاسْتَبَتْ
قَلَصَتْ قَرُونُهَا
مَا وَرِدْنَ الْمَاءِ فِي أَدَاوِي لَيْسَ خَرُّ
غَلَسِ الصُّحَى يَشِيئُهَا
أَدَاوِي خَفِيفَاتِ الْمَحَامِلِ تُغْرِ اللَّبَاتِ مِنْهَا
أَشْنَقَتْ حَصِينُهَا
جَعَلْنَ حَبَابَ الْمَاءِ حِينَ غُصِي قَدْ ضَاقَ عَنْهَا
حَمَلْنَهُ وتينها
شُنَّ أَنْ يَسْمَعَنَّ لَيْلُهُ وَالرِّيحُ تَجْرِي
وَاللَّيْلُ وَاضِعٌ فُنُونُهَا
سَرِبُ فِي أَفَاحِصِ مَيْتَةِ الْخَرِشَاءِ حِيٌّ
السِّفَا جَنِينُهَا
يَرَوِّينَ زَغْبًا بِالْفَلَاةِ أَفَانِي الصِّيفِ، حُمْرًا
كَأَنَّهَا بطونها

يروِّين من قولك: روَّيت: أي حملت في رواية.

مَلَأَتْ مِنْهَا قِطَاةً تُعَكِّمُ الْأُخْرَى وَلَا
سِقَاءَهَا تستعينها

ذكر نوادر وأحاديث وأشعار وكلام يتمُّ بها هذا الجزء
قالوا: خَرِفَ النَّمْرُ بنَ تولب، فكان هَجِّيرَاه: اصْبَحُوا
الرُّكْب، اغْبِقُوا الرُّكْب.

وخرِفت امرأةٌ من العرب فكان هَجِّيرَاها: زَوْجُونِي،
زَوْجُونِي فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لَمَّا لهج
به أخو عُكل خيرٌ مما لهجتُ به صاحبتُكم.

وحدثني عبد الله بن إبراهيم بن قُدامة الجمحي قال:
كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى رجلاً
يَصْرِبُ في كلامه قال: أشهدُ أن الذي خَلَقَكَ وخلقَ
عمر بنَ العاص واحد.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه لصعصعة بن
صُوحان في المنذر بن الجارود: ما وجدنا عند صاحبك
شيئاً قال: إن قلتَ ذاك إنه لنظائرٌ في عِطْفِيهِ، تَقَالُ في
شِرَاكِيهِ، تُعْجِبُهُ حُمْرَةُ بردِيهِ. قال: وحدثنا جريز بن حازم
القَطَعِيّ قال: قال الحسن: لو كان الرجلُ كلما قال

أصاب، وكلما عمل أحسن، لأوشك أن يُجَنَّ من العُجَب.
عن أبان بن عثمان قال: سمعتُ أبا بلال في جنازةٍ وهو
يقول: كُلُّ مَيِّتَةٍ ظَنُونٌ إِلَّا مَيِّتَةَ الشَّجَاءِ قالوا: وما مَيِّتَةُ
الشَّجَاءِ؟ قال: أخذها زيادٌ فقطع يديها ورجليها، فقيل
لها: كيف تَرَيْنَ يا شَجَاءِ؟ فقالت: قد شغلني هَوَلُ
المُطَّلَعِ عن بَرْدِ حَدِيدِكُمْ هذا.

قال: وقيل لرابعة القيسيَّة: لو أذِنْتَ لَنَا كَلَّمْنَا قَوْمَكَ
فَجَمَعُوا لَكَ ثَمَنَ خَادِمٍ، وكان لك في ذلك مَرْقَفُ
وكفَّتِكَ الخدْمَةَ وتفرَّغْتَ للعبادة، فقالت والله إنني
لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسأل
الدنيا من لا يملكها؟.

والناسكات المتزهديات من النساء المذكورات في الزُّهد
والرياسة، من نساء الجماعة وأصحاب الأهواء، فمن
نساء الجماعة: أمُّ الدرداء، ومُعَاذَةُ العَدَوِيَّة، ورابعة
القيسيَّة.

ومن نساء الخوارج: الشَّجَاء، وحمادة الصُّفْرِيَّة وغازاة
الشَّيْبَانِيَّة قُتِلْنَ جميعاً، وُصِّلَت الشَّجَاء وحمادة، قتل
خالدُ بن عَنَابِ غَزَالَةَ، وكانت امرأةَ صالح بن مُسَرِّح.
ومن نساء الغالية: الميلاء، وْحَمِيدَةَ، وِليلى الناعظية.
محمد بن سلام عن ابن جُعْدَبَةَ قال: ما أبرم عُمر بنُ
الخطاب أمراً قط إلا تمثل بيت شعر.

وعن أبان بن عثمان، قال عبد الملك: لقد كنت أمشي
في الرَّزَعِ فَأَتَّقِي الجُنْدَبَ أن أقتله، وإن الحجاج ليكتب
إليَّ في قتل فئامٍ من الناس؛ فما أحفِلُ بذلك.

وقيل له وقد أمر بضرب أعناق الأسراء: أفسَتك الخلافةُ
يا أمير المؤمنين، وقد كنت رؤوفاً قال: كلا، ما أفسَتني،
ولكن أفساني احتمال الضغن على الضغن.

قالوا: ومات يونسُ النحويُّ سنة اثنتين وثمانين ومائة هو
ابن ثمان وثمانين سنة، وقال يونس: ما أكلت شيئاً قطُّ
في الشتاء إلا وقد بَرَّد، ولا في الصيف إلا وقد سخن.

وحدثني محمد بن يَسِير قال: قال أبو عمرو المَدَائِنِي: لو
كانت البَلَايا بِالْحِصص ما نالني كل ما نالني: اختلفت
جاريتي بالشاة إلى التَّيَّاس وبي إلى حملها حاجة،
فرجعت جاريتي حاملاً، والشاة حائلاً.
محمد بن القاسم قال: قال جرير: أنا لا أبتدي، ولكنني
أَعْتَدِي.

وقال القَيْنِي: أنا مثل العقرب، أضُرُّ ولا أنفع.
وقال القَيْنِي: أنا أصدق في صغار ما يضُرُّني، لأكذبَ في
كبارٍ ما ينفعني.

قال أبو إسحاق: استراح فلانٌ من حيث تعبَ الكرامِ.
وقال الحجاج: أنا حديدٌ حقود حَسود.
وحدثني نُفَيْع قال: قال لي القَيْنِي: أنا لا أصدق مادام
كذبي يخفي.

قال: وذكُر شبيب بن شيبَة عند خالد بن صفوان فقال

خالد: ليس له صديق في السر، ولا عدوُّ في العلانية.

وقال أبو نخيلة في شبيب بن شبيبة:

غَدَتْ سَعْدُ عَلَى شَبِيبِهَا فَتَاهَا وَعَلَى خَطِيبِهَا
مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى عَجَبَتْ مِنْ كَثْرَتِهَا وَطِيبِهَا
مَغِيبِهَا

وقال يحيى بن أبي علي الكرخي: أنا إنسان لا أبالي ما استقبلت به الأحرار.
وقال عمرو بن القاسم: إنما قويت على خصمي بأني لم أتستتر قطُّ عن شيء من القبيح
فقال أبو إسحاق: نلت اللذة، وهتكت المروءة، وغلبتك النفس الدنية، فأرتك مكروه عمك
محبوباً وشيء قولك حسناً، ومن كان على هذا السبيل لم يتلفت إلى خير يكون منه، ولم
يكثر بشراً يفعله.

وقال الفرزدق:

يُجِيرُ النَّاسَ مِنْ فَأَصْبَحَ يَبْغِي نَفْسَهُ مِنْ
سَيْفِ مَالِكٍ يُجِيرُهَا

ومن هذا الباب قول التوث اليماني:

أَيَّ بَابٍ أَطْلُبُ الْإِذْحَجِ بِنْتُ عَنْ الْبَابِ الَّذِي أَنَا
حَاجِبُهُ مَا

ومن هذا الشكل قول عدي بن زيد:

بَغِيرِ الْمَاءِ حَلْقِي كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ
شَرِقٌ اعْتَصَارِي

وقال زهير:

وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقاً وَصَعَنَ عِصِيَّ الْحَاضِرِ
جَمَامُهُ الْمَتَحِيمِ

وكتب سويد بن منجوف إلى مُصعب بن الزبير:

مُصْعَباً عَنِي رَسُولاً يُلْقَى النَّصِيحُ بِكُلِّ وَادٍ
أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ تَوَاحَى ضَحِكُوا إِلَيْكَ هَمَّ

الأعادي

وحدثني إبراهيم بن عبد الوهاب، قال: كتب شيخٌ من أهل الريِّ عَلى باب داره: جزى الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً، فأما أصدقاؤنا الخاصة فلا جزاهمُ الله خيراً، فإننا لم نُؤت قطُّ إلا منهم وأنشدني النهشليُّ لأعرابي يصف نخلاً:

مخارِقها ثِنْيِي جَوَانِيهَا
جَانِيهَا جَانِيهَا

ووصف آخر نخلاً فقال:

عَلَا قِمَّتْهَا الرَّاقِي أَهْلٌ

وقال الشاعر:

تَقَلِّلْ حَلَوْبَتَهُ وَيَنْكُرْ الأَعْدَاءَ يَغْبِقُهُ القَرَاخُ
رَأَيْتُ مَعاشِرًا يُثْنِي عَلَيْهِمْ شَبَعُوا وَأَوْجُهُهُمْ قَبَاخُ
المُضْرِمُونَ لَهُمْ
سُجُوداً
لم يُسَقَ عندهم صِيَاخُ

وقال الشاعر:

البائتين قريباً من
بيوتهم
يشاؤون آيبوا الحيَّ أو
طَرَقُوا

يقول: لرغبته في القري، وفي طعام الناس، يبيت بهم، وبدعُ أهله، ولو شاء أن يبيت عندهم

لَفَعَلَ.

وقال آخر، يمدح ضدَّ هؤلاء:

تَقْرِي قَدُورَهُمْ سُرَّاءَ لِيْلِهِمْ
أَضْيَافاً

وقال جرير:

لَأَسْتَحِي أَخِي أَنْ من الحق الذي لا يرى
له

قال: أستحي أن يكون له عندي يدٌ ولا يرى لي عنده مثلها.

وقال امرؤ القيس:

يَنْعَمَنَّ إِلَّا خَلِيٌّ مَنَّعَهُمْ الهموم ما يبيتُ
بِأَوْجَالِ

قال: وهو كقوله: استراح من لا عقل له، وأنشد مع هذا البيت قول عمر بن أبي ربيعة، ويحكى أن المنصور كان يعجبه النصف الأخير من البيت الثاني جداً، ويتمثل به كثيراً، حتى انتقده بعض من قضى به عليه أن المعنى قدّمه دهرًا، وكان استحسانه عن فضل معرفته بإحقاقه فيه، وصواب قوله:

وَأَعَجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّورِيَّانٍ مُلْتَفُّ الْحَدَائِقِ عَزَقَةٌ
أَخْضَرُ
كَفَّاهَا كُلَّ شَيْءٍ فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرِ الدَّهْرِ
يَهْمُهَا تَسَهَّرُ

وأنشد:

ابْتَدَرَ النَّاسُ الْمَعَالِيُوقُوفًا بِأَيْدِيهِمْ مَسُوكُ
رَأَيْتَهُمْ الأرانب

هجاهم بأنهم إنما يعيشون من الصيد، وأنشد:

ابْتَدَرَ النَّاسُ الْمَكَارِمُ قَامُوا رُتُوبًا فِي التُّهُوجِ
وَالْعُلَا اللهاجم

يخبر أنهم يسألون الناس، والنهج واللهمج: الطريق الواسع.

وقال الآخر:

ابْلُ يَرَوِين يَوْمًا عِيَالَنَا وَإِنْ يَكْثُرَنَّ يَوْمًا فَأَرْبُعُ
نُمِدَّهُمْ بِالْمَاءِ لَا مِنْ وَلَكِنْ إِذَا مَا قَلَّ شَيْءٌ
هَوَانِهِمْ يوسّع

وقال الآخر:

المُهَدَيَاتِ المَاءَ بِالمَاءِ بِالمَقَادِي كُلِّ قَادٍ
بَعْدَمَا
وَمُعْتَمٍ

وقال الآخر:

دَعَا وَالمَلِيلُ مُرِحٌ القِرَى يَا مُسْلِمَ بِنِ
سُدُولِهِ

جُعَلًا لَا يَهْتَدِي لِمْبَيْتِهِ اللُّومُ حَتَّى يَهْتَدِي
ابنوبار

وقال الحسن بن هانئ:

أَصْمَرْتُ لِلنَّيْلِ هَجْرَانًا قِيلَ لِي إِنَّمَا التَّمْسَاخُ
وَمَقْلِيَّةٌ
رَأَى النَّيْلَ رَأَى العَيْنِ أَرَى النَّيْلَ إِلَّا فِي
كُتُبِ
البَوَاقِيلِ

وقال ابن ميادة:

ابن قَشْرَاءِ العِجَانِ بَابِهِ إِذْنًا يَسِيرًا وَلَا
أَجْدُ
الَّذِي وَلَاكَ أَمْرٌ لَأَنْقَضُ مَنْ يَمْشِي عَلَيَّ
جَمَاعَةً
عُقْلًا

ومن هذا الباب قوله:

رَأَيْتُ أَبَا العُورَاءِ بِشَطِّ رِجْلَةٍ يَشْرِي التَّمْرَ
مُرْتَفِقًا
كَثِيرَةَ الخَيْلِ تَبَقَى عِنْدَ المَوْتِ أَعْلَمُ إِذْ قَفَى بَمَنْ
مِدْوِدَهَا

مَسَاعِيكَ فِي آثَارِ تَكُنْ أَنْتَ سَاعِيهِ فَقَدْ
سَادَتِنَا

ومن هذا الباب قوله:

المَجْدَ عَنِ آبَاءِ صِدْقٍ فِي دِيَارِهِمُ الصَّنِيْعَا
المَجْدُ الرَفِيعُ تَعَاوَرَتْهُ
السُّوءُ أَوْشَكَ أَنْ
يُضِيعَا

وقال جِران العُود:

أراقبُ لمحاً من سُهيل ما بَدَا في دُجِيَّة الليل
كانه يطرفُ

وقال:

أجدِ الموقودَ تُرجى لم يرعه الماءُ ساعة
حياته يُنضحُ

وكان أبو عبادِ النُّميريُّ أتى باب بعض العمال، يسأله

شيئاً من عمل السلطان، فبعثه إلى أُسْتَقَانَا فسرقوا كل

شيء في البَيدِر وهو لا يشعر، فعاتبه في ذلك، فكتب

إليه أبو عبّاد:

بازاً أَضْرِبُ الكُرُ وَالطَيْرَ العظاما
فتقنّصتِ بي الصَّ فأوهنتِ القُدّامى
ما أرسل البَا عَلى الصَّغو تَعَامى

أراد قول أبي النجم في الراعي:

بين الغانيات الجهل
كالصقر يجفو عن طرادِ
الدَّحَلِ

وبات أبو عبّاد مع أبي بكر الغفاريّ، في ليالي شهر رمضان، في المسجد الأعظم، فدبّ إليه،

وأنشأ يقول:

ليلةً لي بتُّ ألهُوبها الغِفاريُّ أبي بكرِ
قمتُ إليه بعد ما قد مضى من الليل على قدرِ
للة القَدْرِ فيا مَنْ رأى منِّي ليلةً القَدْرِ
قام حَمْدانُ أبو بكرِ وقد أفزَعَهُ نَحْري

وقال في قلبان صديقتيه:

قلبانَ قد بَعَثَ لشقائي وقد طَعَتْ

لم تُتَكَ بِأَيِّ عَظِيمِ الْقَوَى بَكَتْ

وقال مسكينُ الدَّارمي:

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَحَلْتُهَا الْقَطَا لَيْلاً وَهَنَّ هُجُودُ
كُلِّ قَرْمُوصٍ كَأَنَّ غَيْرَ أَنْ كَانَتْ لَهَنَّ

فِرَاخَةٌ

وقال أبو الأسود الدؤلي، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان:

أَمِنْتُ عَلَى السِّرِّ أَمْرًا غَلَبَكَ فِي النِّصْحِ غَيْرُ
مُرِيبٍ

بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى بَعَلِيَاءَ نَارٍ أُوقِدَتْ بِتَّقُوبِ

وَكُنْتُ مَتَى لَمْ تَزَعْ سِرًّا قِوَارِعُهُ مِنْ مَخْطِئِ
تَنْتَشِرُ

كُلِّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ كُلِّ مُؤْتٍ نَصَحَهُ بِلَبِيبِ
نُصَحَهُ

وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ لِهٍ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

وقال أيضاً:

كُنْتُ مَظْلُومًا فَلَا تُلَفَ الْقَوْمَ حَتَّى تَأْخُذَ
رَاضِيًا

كُنْتُ أَيْتَ الظَّالِمِ مَقَالَتِهِمْ وَأَشْغَبَ بِهِمْ كُلَّ
الْقَوْمِ فَاطْرِحُ

وَقَارِبُ بَدِي جَهْلٍ وَبَاعْجُلُوبٍ عَلَيْكَ الْحَقُّ مِنْ كُلِّ
بِعَالَمِ

حَدَّبُوا فَاقْعَسُوا وَإِنْ لِيهِمْ مَسْكُونٌ مِمَّا وَرَاءَكَ
تَقَاعَسُوا

تُدْعِيَنَّ لِلْحَقِّ وَاصْبِرْ كُنْتُ أَقْضِي لِلْبُعِيدِ
الَّتِي

أَمْرًا أَخْشَى إِلَهِيَّ عَادِي وَقَدْ جَرَّبْتُ مَا لَمْ

وَأَتَّقِي

وقال مسleme بن عبد الملك:

تَجْرِبِ

إذا الأصواتُ في القومِ مَوْطِنِ يَخْشَى به
القَوْمُ العَنَّتْ
مَوْطِنُ نَفْسِي على ما بالصَّبْرِ حَتَّى تنجلي عَمَّا
خَيَّلَتْ
انجَلَتْ

وقال الكمي:

وبيضِ رِقاقِ خفافِ المُتَوَسِّمِ لَلبَيْضِ منها صريرا
في الهامِ آثارُ هُطشِافِرَ قَرَحَى أكلنِ البَريرا
وأنشدني أبو عبيدة:

نُصِبِهَا قيساً بلا
استبقائها
صفائحاً فيها فضولُ مائها
كَلَّ عَصْبِ عِلٍّ من
دِمائها
علا البيضة في استوائها
رونقُه أوقَدَ في حِزبائها وقد أمخض من ورائها
وأنشدني لرجل من طيء:

فتيانَ صباحِ أصبَراً إذا كان الرماحُ كِسَرا
الحدودِ دُرَّعاً وحَسْبِ لَشْتَهونِ الأجلِ المؤخِرا
وقال ابن مفرّج:

البطون والهوادي قودُ حادِ الأبطالِ لا تحيدُ
رجعناهُنَّ قالتِ عودُوا يعلمن ما نُريدُ
ومن المجهولات:
عليك سلامَ الله من منزلِ هِجَتِ لي شوقاً قديماً
قَفَرِ
عهدتُك من شهرِ جديدهُ صُروفِ النَّوى تُبلي مغانيك
أحلُ
شهرِ
الخريميُّ أبو يعقوب:

لعمرك ما أخلقتُ وجهاً ولا عَرَّضْتُهُ للمعايرِ

أي لا أعيرُ لقصديك.

وَقَرْتُ أَيدي المحامِدِ وَخَلَّتْ ماله غيرِ
وَإِفرِ عِرْضَه

وقال مطيعُ بنُ إياس:

كَلَّفْتَنِي طَوِيلَةَ العُقبِ وَجُبُّ طُولِ الأَعناقِ مِنْ
خُلُقِي
مِنْ بُعْدِهَا فَإِنْ فَالْقُرْبُ أَيْضاً يَزِيدُ فِي
قَلْبِي قَرَبَتْ

وقال سهلُ بنُ هارون:

امرؤُ ضاقَ عَنِّي لَمْ أَنْ يراني عَنِيَّ عَنْه
خُلُقِي بِالِياسِ
يراني إذا لَمْ يَزَعْ مُسْتَمْرِباً دِرَراً مِنْه
أَصْرَتِي بِإِساسِ
أَطْلُبُ المَالَ كِي أُعْطِيَ كانَ مَطْلَبُهُ فقِراً إلى
الناسِ بِفَضْلَتِه

وقال ليحيى بن خالد:

تَلادِ المَالَ فِيمَا يَنْعَمُ بِهِ إِذا ما مَنَعُهُ كانَ
أَحْزَمًا
فِسيانَ حالاهِ لَه فَضْلٌ يَسْتَحِقُّ الفَضْلَ إِنْ هُوَ
مَنْعُهُ
مَذَلُّ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ غَيْرَ مَأكِلَةٍ ما تَأْتِي مِنَ الحَقِّ
مَعْنَمًا

وقال أبو الأسود لزياد:

لَعَمْرُكَ ما حَشاكَ اللهُ جَشَعُ وَلا نَفْساَ شَرِيرَهُ
ولَكنَّ أَنْتَ لا شَرِسُ غَلِيظَهْشُ تَنازِعُهُ خُوورَهُ

إِذْ أَتَيْنَاهُ نَزْلَنَا بِجَانِبِ رَوْضَةِ رَبِّيَا مَطِيرَةً